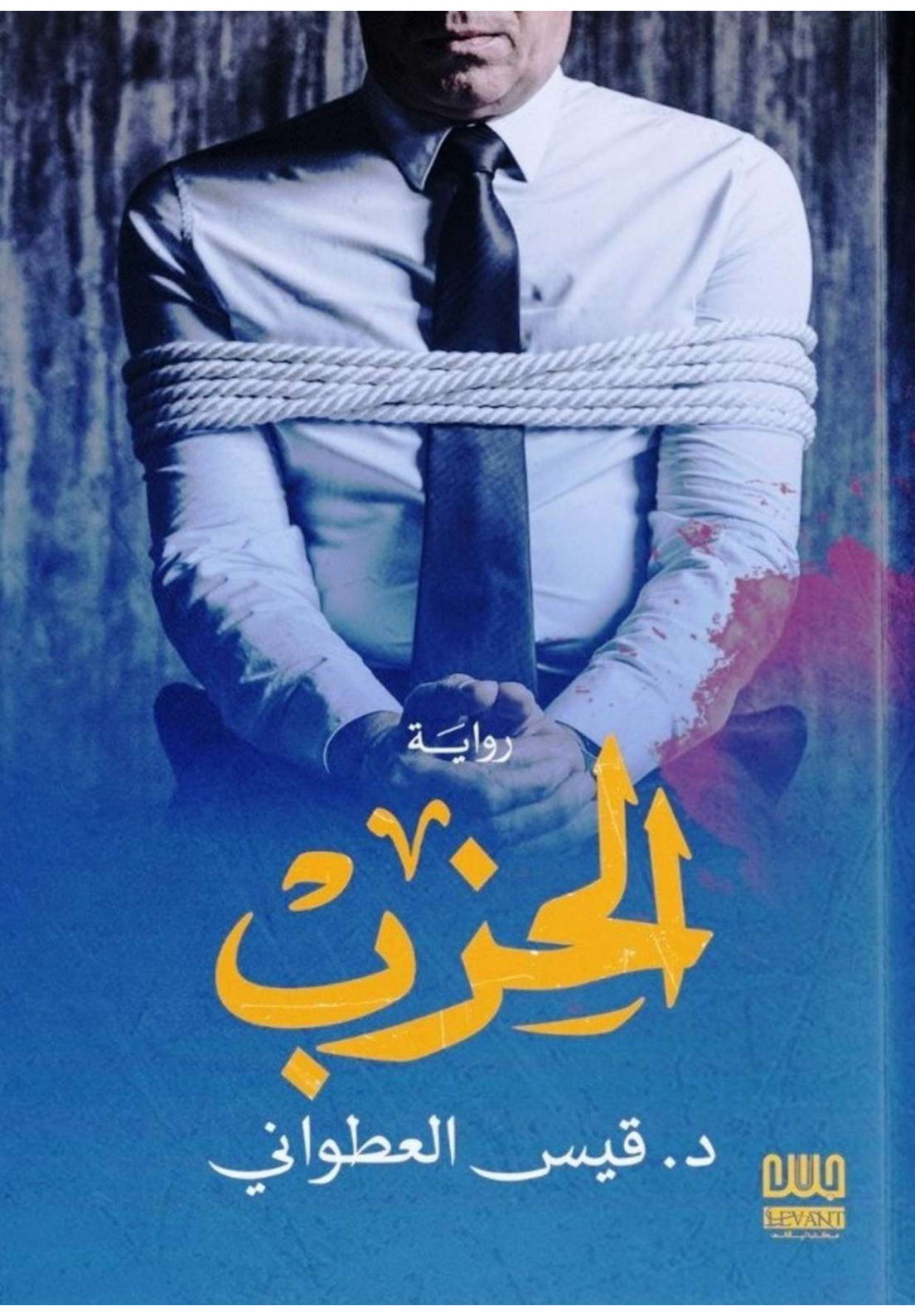
رواية
الحزب
د. قيس العطواني
LEVANT

رواية

الحزب

رواية

الحزب

د.قيس العطواني

رواية الحزب

د.قيس العطواني

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق العراقية ١٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠

الطبعة الأولى - العراق - بغداد 2020

Isbn : 978-9922-9354-4-7

إصدارات جسد

E.mail: jasad.library@gmail.com

هاتف جوال : 9647828424910+

جميع الحقوق محفوظة ، ولا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الاشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تنويه: إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

إلى المعذّبين في الأرض من سطوة الظالمين .

إلى الباحثين عن نسائم العدالة ، والحريّة تحت رياح الخضوع والاستسلام .

إلـى المجتمعـات المُحبّـة للديمقراطيـة ، والسـلام والحضـارة والتقدّم.

إلـى كلّ الطيّبـين الأحـرار المملـوئين تواضـعا ، وعلمـا وفكـرا منيرا لاينضب .

أهدي إليكم روايتي هذه .

د.قيس العطواني

الفصل الأول

الغرابينُ تخطفُ أزهارَ الياسمين

تتألّق ساحة التحرير في بغداد بين العيون المتلهّفة للاحتجاج ، وتتناغم مع الهتافات الصاخبة ... لَكَم ارتبطت هذه الساحة بالتوق لدعوى التحرّر من الظلم والطغيان ، وكم تألّقتْ بنُصبها الخالد نصب الحريّة الذي نسجته أيادي النحّات العراقي جواد سليم ليشهد تحت تماثيله الأربعة عشر عشرات الانتفاضات والاحتجاجات والثورات ، وليحتفل أحيانا برشاش الدماء الحرّة.. لقد وقف العراقيون بشرائحهم ، ومناطقهم ، وقومياتهم المختلفة ، تحت نصب الحريّة من أجل وطنهم ، ولم تتوقف هذه الساحة عن اجتذاب الطامحين والحالمين بالتغيير المنشود .. لقد وعدها الله بأن تبقى محطّ أنظار الأحرار نحو الأمل المنشود...

وتحت أشعة شمس آذار الحنيّة في يوم شعرتْ به النسائم والعصافير أنّها في ألفة من جديد بعد تقاطع وغياب طويل ، تجمّع آلاف المتظاهرين بمختلف الأعمار نساء ورجالا .. منهم من يتوشّح بالعلم العراقي ، ومنهم من يحمل هذا العلم ، ويقرّبه إلى وجهه ليقبّله بين حين وآخر ، ومنهم من يرفع قبضة يده هادرا بحنجرته محرّضا رفاقه وزملاءه المتظاهرين ... يهتفون بشعارات ضد فساد الحكومة وتقصير مسؤوليها في أداء واجبهم ، وعدم ممارسة دورهم الطبيعي في خدمة الشعب كما يقولون في شعاراتهم التي تلوح فوق هاماتهم من مثل :

(كلّا .. كلّا للفساد) ، (فلتسقط حكومة المحاصصة اللعينة) ، (الشعب يريد إصلاح النظام)... شعارات تهدر في حناجر المتظاهرين ، وأكثرهم من الشباب اليافع الّذي تعشّق في كلّ متر من ساحة التحرير

.. من بين المتظاهرين يبرز (مثنّى) الطالب الجامعي في كلية الهندسة التابعة للجامعة التكنولوجية ، وفي المرحلة الرّابعة منها .

مثنّى ذو البشرة الحنطيّة ، والطول المتوسط ، والجسم الرياضي معتدل القوام دائما ما يحلّق لحيته وشاربه ، وملامح من براءة الأطفال لمّا تزل في محيّاه الخجول .. يجلب الأنظار ، وهو يحثّ بإصرار زملاءه على ترديد الشعارات المناوئة للأحزاب الحاكمة موصيا إيّاهم بضرورة الالتزام بسلميّة التظاهرة، وعدم رمي قناني الماء ، أو أي شي آخر على أفراد الشرطة الحاملين الهراوات والمصدّات ، وتقف من خلفهم العربات الضخمة المزوّدة بمدافع المياه البارزة على سقوفها .. بينما آلات التصوير التابعة للمحطّات الفضائية واللاقطات تتنقّل بين صفوف المتظاهرين ، وتستطلع آراءهم التي تتألّق بنبرة الحماس ، ومحاولة إثبات وجهات النظر .

تقترب إحدى الصحفيّات من مثنّى ، ويتبعها من الخلف رجل يحمل آلة التصوير ، ويشقّ طريقه بصعوبة لتسأله :

– ما الدافع من وراء الخروج في هذه المظاهرات ، وماسرّ الحماسة التي تبديها ، وأنت تتوسّط الشباب بكلّ عزم وجديّة .؟

فردّ مثنّى على المذيعة بحماس ، وانفعال طاغيين :

– إنّ الخروج في مظاهرات معلومة مطالبُها، ومعروفة الأهداف التي انطلقت من أجلها ، والجهات التي تنظّمها حقّ كفله الدستور للشعب ، ويحميه النظام الديمقراطي الذي يحكمنا .

قطّبت المذيعة بين حاجبيها قائلة له :

– نعم لكنّكم متّهمون بعدم الوضوح في مطالبكم ، وأنتم تنتمون لجهات سياسية تنافس الأحزاب الحاكمة .؟

شعر مثنّى بالاستياء الشديد ، فردّ عليها بنبرة حازمة :

– نحن المتظاهرين بمختلف أعمارنا وقوميّاتنا وطوائفنا نريد بمظاهراتنا هذه أن نعبّر بها عن ولائنا للعراق ، وحبّنا لشعبه وترابه من خلال المطالبة بعدم التقصير في تقديم الخدمات الأساسية للشعب، وتوفير فرص العمل ، والقضاء على الفساد والفاسدين لكي يزدهر وطننا أكثر ، ويتقدّم إلى مصافّ الدول الكبرى .....

هنا لاحظت المذيعة أنّها قد أثارت مشاعر مثنّى ، فأرادت استثمار هذه اللحظة ، وبادرته بسؤال مستفزّ :

– وماذا تقول عن اتهامكم الصريح بأنّكم إنّما تريدون التشويش على عمل الحكومة بدفع من جهات سياسية منافسة .

فردّ عليها مثنّى بثقة عالية ، وعيناه تبرقان بلمعان ، وزهو كبيرين:

– نحن لاننتمي إلى أيّ جهة سياسية تنافس الحكومة ، فهذه المجموعة التي ترينها من خلفي مكوّنة من شباب ، وطلّاب جامعيين لم يقوَ عودنا بعدُ لندخل في معترك المنافسة السياسية على الرغم من أنّه حقّ مشروع كفله الدستور ، إنّ تظاهراتنا هي دعوة للإصلاح ، وتحقيقا لآمالنا في التقدّم والازدهار والرقيّ ....

واصل مثنّى كلامه بكلّ حماس ولهفة محرّكا ذراعه اليمنى تارة ، واليسرى تارة أخرى لإثبات وجهة نظره في اندفاع قلّ نظيره .. هنا كان أحد المتظاهرين القريبين من مثنى – وهو رجل طاعن في السنّ – يصغي إليه بإمعان كبير ، وبعد أن سمع ما دار في اللقاء التلفازي ابتسم ابتسامة أمل وتألّقت عيناه الغائرتان ، وفي قلبه ترتسم عبارة شفيفة :

(مادام هذا الشباب الواعي موجودا ، فلاخوف على هذا الوطن)

يرسم شارع فرعي ينساب من شارع الرشيد [1] في بغداد آيات المشهد الأحبّ في كل يوم جمعة لروّاد الثقافة ومحبّي القراءة في العراق . على ضفّتي هذا الشارع تنتشر الكتب ، وتتوسّد الأرصفة ، وتشغل عيون المارة بعناوينها المختلفة. إنّه شارع المتنبي كلّ شيء فيه يعبق برائحة التاريخ .

قبل أن تصل إليه من ناحية النهر، تواجهك بناية القشلة المطلّة على دجلة التي كانت ثكنة عسكرية في أيام الدولة العثمانية، وفي مدخل الشارع ، هناك على اليمين سوق مسقّف ينماز بحارات ضيقة ، ودرابين متعرّجة هو سوق السراي ، وكان يُسمّى قديماً بسوق الورّاقين ، وهو الآن سوق للقرطاسية واللوازم المكتبية.

---

[1] شارع الرشيد من أقدم وأشهر شوارع بغداد .. كان يعرف خلال الحكم العثماني باسم شارع (خليل باشا جادة سي) على اسم خليل باشا حاكم بغداد وقائد الجيش العثماني الذي قام بتوسيع الطريق العام الممتد من الباب الشرقي إلى باب المعظم ، وتعديله وجعله شارعاً باسمهِ عام ١٩١٠م ، وكان ذلك لأسباب حربية ولتسهيل حركة الجيش العثماني وعرباته ، فتمّ العمل في هذه الجادة بصورة مستعجلة وارتجالية حيث كان يصطدم بمعارضة العلماء ، ورجال الدين البغداديين عند ظهور عقبة تعلّق استقامتهِ ببروز أحد الجوامع ، وهو جامع مرجان على الطريق. كما كان يصطدم بأملاك المتنفّذين ، والأجانب المشمولين بالحماية وفق الامتيازات الأجنبية ، وكذلك لقلّة المال المتوفر لاستملاكها ، لذلك وجب حصول انحناءات في الشارع تبعاً لهذه العراقيل ، ثم أطلق عليه البريطانيون سنة ١٩١٧ شارع هندنبرك ، وشارع النصر ، وأخيرا في الحقبة الملكية سمّي بـ"شارع الرشيد" اسمه الأخير الذي بات أيقونة عراقية..

على اليسار ينتصب مقهى الشابندر، المنتدى الأشهر في بغداد للكُتّاب والشعراء وروّاد الفكر..في أرجاء هذا المقهى العتيق الذي تأسس عام ١٩١٧ تشعر بالتاريخ يجالسك ، وأنت تشرب (استكان) الشاي العراقي ، وعلى الجدران تنتشر صور بغداد منذ أيام العهد الملكي ، وصور أشهر الشعراء والكتاب والسياسيين في العراق .. في هذا الشارع يسير القاصّ والروائي المعروف صالح أمين هذا الرجل الستينيّ بشعره الناصع البياض ، وملامح الطيبة التي لاتخطئها العينان مرسومة على وجهه متنقّلا بين بسطات الكتب والقرطاسية ، والمكتبات الشهيرة ، وبعض المقاهي وتجمّعات الأصدقاء ..

صالح أمين الذي تحتلّ قصصه ورواياته المراتب الأولى في دنيا الأدب وسط إقبال كبير عليها من قبل القرّاء في العراق والبلاد العربيّة ، ولايشغله أمر سوى السعي إلى ثورة ثقافية تحاول نزع الستائر المظلمة التي وضعتها أنظمة الحكم السابقة على آفاق الشعب ، ورفع أعمدة النور في رحابه. ترافقه عينا زوجته التي شاركته المعاناة والحلم بهذه الثورة الثقافية ، وابتسامة ولده الوحيد (مثنّى) .

يدخل القاص صالح أمين في مكتبة ويخرج من أخرى متصفّحا كتبها ، وبعض ما تعرضه عدد من بسطات الكتب التي تقدّم نفائسها بين جانبي الشارع . أخيرا تدلف قدماه آخر المكتبات القديمة في الشارع ، وماهي إلا دقائق حتى خرج ضامّا كتابين إلى صدره مطرقا برأسه كعادته متّجها نحو موقف باصات الرّكاب قافلا إلى المنزل ، وهو في الطريق يرنّ هاتفه مظهرا رقم مثنّى ، فتعتليه ابتسامة عريضة :

– هلو بابا مثنّى كيف سارت المظاهرات .؟

– بابا .. لقد جرت المظاهرات على أحسن مايكون .. لقد عملوا لقاء تلفازيا معي وأبدعتُ في الكلام حتى أنّ الناس من حولي أخذوا بالتصفيق والتهليل..

تلقّى مثنّى عبر الهاتف ضحكة شفيفة طويلة من أبيه القاص صالح وعلامات البهجة تكاد تنبجس من عينيه ، ثمّ أجابه :

– ابني أنا راجع إلى البيت عندما ألقاك هناك أريدك أن تحكي لي عن كلّ شيء بأدقّ التفاصيل .

– طيّب بابا مع السلامة .

– مع السلامة ابني .. كن حذرا .

وما أنْ عبر صالح إلى الجهة الأخرى من شارع الرشيد حتّى تفاجأ بسيارة سوداء كادت أن تصدمه ليخرج منها ثلاثة مسلّحين قاموا بإمساكه ، وشدّوه بقوّة إلى داخل السيارة تحت تهديد السلاح ، وعنف أيديهم ، وقوّة أجسادهم لينطلقوا به بسرعة كبيرة ...

في مساء اليوم نفسه ، وبعد عودة مثنّى إلى بيته ، وانتهاء المظاهرات رنّ جرس البيت الواقع في منطقة الشعلة ببغداد ، فأسرع مثنّى إلى الباب متوقّعا وصول أبيه فقد تأخّر كثيرا عن موعد مجيئه المعتاد ، وما أن فتح الباب حتى اقتحم خمسة من الرجال الملثّمين البيت ، واعتلت ضربات أقدامهم باحة المنزل لترسم مشهد رعب كانت ذروته احتجازهم

لأمّ مثنّى زوجة صالح ، وولدها .. صرخت الأمّ في هلع شديد ، وهي تطالع في وجوه الملثمّين كأنها رؤوس الشياطين :

– يا إلهي .. يا إلهي .. مَن أنتم .. ماذا تريدون . ؟

يندفع اثنان من الملثّمين الخمسة ليمسكا برقبة الأمّ وولدها ، ويضعا كفّيهما على وجهيهما ، وردّ عليها رجل قويّ البنية لثامه وثيابه سوداء اللون يتوسط بوقفته رجلين ملثّمين كلاهما أضخم منه في البنية الجسدية ..هذا الرجل هو– أبو الأُسيد– قائد المجموعة المسلّحة الأربعيني ذو العينين الضيّقتين والحاجبين المقطّبين في كلّ حين :

– اصمتي أنت وابنك ، وإلّا أفرغنا الرصاص برأسيكما .

وصرخ مثنّى بصوت متهدّج ومتلعثم بفعل ضغط أصابع الرجل المسلّح على فمه :

– ماذا تريدون ..أرجوكم اتركوا أمّي .

التفت إليه أبو الأسيد بوجهه المقطّب الجبين قائلا بغضب: – اسكت ياهذا .

وأشاح اللثام عن وجهه لتظهر لحية كثّة ، وشارب خفيف ، وعينان حمراوان يملأهما الغضب قائلا لهما بصوته الأجش:

– اهدءا ، ودعاني أوضّح لكما من نحن ولماذا أتينا .. اجلسا على الأريكة حتى يهدأ روعكما ، ولاتختبرا صبري عليكما ...

بعد أن تمّ إجبار الاثنين على الجلوس استأنف أبو الأسيد حديثه معهما:

– أمّ مثنّى أنتِ مدرّسة متقاعدة ، ولديكِ نشاطات ثقافية متعدّدة ، وابنك مثنّى يتعاطى السياسة ويخرج في المظاهرات بمعنى أنّكما ستفهمان ما سأقول وتستوعبانه بروّية.

ردّت عليه أمّ مثنّى ، وأنفاسها تتقطّع من الهلع والرعب :

– لقد ملأتنا رعبا وقلقا .. مَنْ أنتَ بحقّ الله .

أجابها أبو الأسيد ، وقد اتكأ بكلّ هدوء على كرسيّ واسع مقابلهما فارشا ذراعيه بنشوة المنتصر :

– اسمعاني جيّدا .. أنا أبو الأُسيد أحد قادة (الحزب). لقد احتجزنا صالح أمين ، وسيبقى لدينا لمدّة معيّنة لانعلم أتطول أم تقصر لكي ينجز مهمّة محدّدة كلّفناه بها ، وما أن يُتمّ المهمّة سنطلق سراحه .

نظرت أمّ مثنّى إليه طويلا بعينين مندهشتين متسائلتين لاحظهما أبو الأسيد فاستأنف حديثه بنبرة هادئة وواثقة :

– نحن لدينا جماهير كبيرة مؤيّدة لنا في الشارع ، وحضورنا مؤثر في أوساط المجتمع ، وفي طريقنا إلى تسلّم الحكم لقيادة البلاد ، ونشر أفكارنا التي تخدم الشعب والوطن.

أجابه مثنّى معترضا ، وبصوت بدأ يلمّ شتاته :

– وما شأننا نحن وما دخل أبي ، ثمّ أنّني لا أفهم هل من مبادئ (الحزب) الذي تدّعيه اقتحام البيوت الآمنة ، وترويع الناس الأبرياء؟
أخذ أبو الأسيد يحلّق ببصره نحو أمّ مثنّى وولدها ، ثمّ أخبرهما أنّه قد ظهر لهما بوجهه ..هذا يعني إنْ لم يتّبعا الأوامر أو حاولا الاتصال بأحد ، فسيكون مصيرهما مثل مصير صالح وهو الموت ، ولا مجال للنقاش الان .
ارتجفت أصابع أمّ مثنّى وتفجّرت في عينيها آلاف الأسئلة لكنّما لم تستطع إخراج سؤال واحد للعلن ، واستمرّ مثنّى بالاعتراض :
– أيّ مهمة تريدون من أبي إنجازها. ؟ هو أديب لايعرف غير القلم والورق ، ولانملك من هذه الدنيا غير هذا البيت ، وراتب أبي التقاعدي البسيط .

فأجابه أبو الأسيد ، وقد بدأ الحنق يظهر عليه :

– (الحزب) لايريد غير قلمه.. قلت لك إنّ أباك محتجز لدينا، وسنطلق سراحه بعد إنجاز المهمّة، وهي أن يسخّر قلمه المبدع لخدمة أفكار (الحزب) وأهدافه العظيمة، ولكي تطمئنّا سأجعله يتكلّم معكما الان عبر الهاتف، وهو سيخبركما بما يجب عليكما فعله .

يطلب أبو الأسيد من (فاتك) – أحد أعوانه المخلصين – أن يتّصل بأحد أفراد الجماعة التي تحتجز القاص صالح أمين طالبا منه أن يخبره بأنّ زوجته وولده على الهاتف ، وبعد دقائق معدودة تمّ إعطاء الهاتف لأمّ مثنّى ، واندفع مثنّى ملتصقا بأمّه ليسمع صوت أبيه وهو يقول :

– أمّ مثنى .. كيف حالكِ .؟

تجيبه أمّ مثنى بصوت باكٍ متحشرج ، وبعينين دامعتين :

– أبو مثنى ما الذي فعلوه بك .. أين أنت الان .؟

– أنا بخير .. أنا بخير .. فقط أريد منك ، ومن مثنّى أن لاتقوما بأيّ عمل لاترضى عنه الجماعة ، وأن تنفّذا مايريدونه منكما .. لايمكنني الان إخبارك أكثر من هذا لأجل سلامتك وسلامة ابني اتّبعي مايقولونه لك رجاء.

وحاول مثنّى التحدّث إلى أبيه لكنّ أبا الأسيد خطف الهاتف من أمّه قائلا لهما:

– من الان فصاعدا تتبعان أوامري ، ولا تحاولا القيام بأيّ حركة من شأنها أن تنهي حياة صالح . سنراقب البيت عن كثب ، وسنزوركما بين الفينة والأخرى لنطمئنكما على حياته ، والتحدّث معه.. إنْ سألكما أحد عن صالح فقولا له قولا واحدا:

– إنّه مسافر لحضور عدد من المؤتمرات خارج العراق .. مفهوم .

((حينما أرى الظلمَ في هذا العالم .. أسلّي نفسي دوما بالتفكير في أنّ هناك جهنّما تنتظر هؤلاء الظالمين ..))

جان جاك روسو

هذه الدنيا دائما ما تخبرنا أن الإنسان مهما رفع رأسه طامحا للأعالي والسمو فسيبقى شيء من قدميه يتطلع نحو الأسفل .. نحو الظلام السحيق ليمدّ جذوره كي تتلاقح مع أعماق الشر وعتمة القسوة والظلم .. نتسلّل معا إلى غرفة قليلة الإضاءة تتوسّطها طاولة مستطيلة الشكل على جانبيها الطويلين ستة أشخاص أربعة منهم في الثلاثينيّات من العمر ، واثنان قد اقتربا من الستين ، وهم يديرون رؤوسهم في رهبة وتشوّق كبيرين نحو (جسّار محمود) الرجل الخمسيني ذي اللحية الكثّة ، والشارب الخفيف والبدلة الرّمادية بقميص أبيض من دون ربطة عنق ، ويقف خلفه بضعة مسلحين وجوههم غاضبة في كلّ حين.

يضرب جسّار بأصابعه على الجريدة التي يمسكها ، وهو يقول :

– جريدة الحريّة وأمثالها خطرعلينا ، خطر على مشروعنا السياسي . إنّ هذه الجريدة تؤلّب الشارع على حزبنا وإن لم تذكره بالاسم، فهي تناقض أفكارنا وتتهمنا بالرجعية والأصولية .

وردّ (مجاهد) – أحد أتباع جسّار المخلصين – في الأربعينيّات من عمره قويّ البنية يرتدي بدلة سوداء ، وقميصا رماديا من دون ربطة عنق موافقا لما ذهب إليه جسّار، ورأى أنّ مقالات جريدة الحريّة تحضّ على التشبّه بحريّة الغرب وديمقراطيّتها، وتسفّه الإرث الدينيّ ، وتسهم بدقّ إسفين بين (الحزب) وبين مريديه ، وتدغدغ العواطف بنبرة حريّة الإنسان ، وحريّة معتقده.

وعقّب عليه أحد أتباع جسّار الجالسين :

– إنّه د.سالم جواد .. كلّ مقالة يكتبها في جريدته الحريّة تؤلّب الناس علينا ، وينعت أفكارنا بالرجعيّة ، والسّعي لعبوديّة الشعب . إنْ أردنا أن تكون لنا كلمة ، وتأثير في الشارع يجب العمل على إيقاف من هم على شاكلته فورا ، أو أن ينحاز هذا الدكتور إلى الحقّ إلى (الحزب) الذي سيقود الثورة ، ويحقّق أهدافها ، ويقضي على المتشبّهين بالأجانب الّذين يريدون نقل ثقافتهم إلينا ، والقضاء على عاداتنا وتقاليدنا .

لوّحت يد جسّار للحاضرين بتسجيل مصوّر لواحد من لقاءات د. سالم في القنوات الفضائية التلفازية ، وقام بتشغيله .. تسأل مذيعة البرنامج د.سالم عن رأيه بالحراك السياسي ، والأفكار المطروحة على الساحة ، ودور الشباب ومواقفه منها فأجابها :

– كُتب لي أن أعيش حتى أشاهد استعادة الشباب لزمام المبادرة في صنع مستقبله في وطن عزيز مهاب الجانب كان مهدّدا بالذوبان في الأفكار الرجعيّة الدخيلة لولا تلك التضحيات الجسام التي بذلها شعبنا بتقديم قوافل متلاحقة من الشهداء في قتال الإرهاب والصمود بوجهه ، وفي التصدّي للفاسدين، والمُقصّرين عن خدمة الشعب عبر التظاهرات السلميّة الواسعة لولاها لَمَا تمتعنا الان بتجربة ديمقراطية حرّة على الرغم من هِناتها لكنّما تحاول أن تجدّد نفسها ، وتقوّي صلبها حتى تقف على أقدام راسخة في المستقبل القريب ..

نحن نطمح ببناء دولة تُحترم فيها الحريّات المسؤولة غير المنفلتة ، وتُحترم فيها حقوق الإنسان، ولابأس أن نفيد من تجارب الغرب، وغيره

من الأمم التي سبقتنا بالديمقراطية ، ولن يتأتّى ذلك إلا إذا دفعنا إلى الصفوف الأمامية برجال يستشعرون حبّهم للوطن والشعب ، ولايتسربلون بأيّ لباس دينيّ أو قوميّ يؤدي إلى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد .

(يستمرّ د. سالم في حديثه للقناة الفضائية، وبآخر كلمة منه في شريط الفيديو المعروض يصرخ جسّار بحنق وغضب شديدين:)

– ابن الـ..... ضعوه في القائمة ، ولننظر كيف نتعامل معه .

فعلّق مجاهد بلسان متوثّب : لقد دَسسنا له أكثر من شخص لشراء صوته لكنّه يرفض مدّعيا الوطنية ..أيّ وطنية هذه .؟ إنّه يميل إلى الغرب الكافر في كلّ توجهاته .

جال جسّار بنظره بين أتباعه المتحلّقين حوله ذوي الوجوه الغاضبة في كلّ حين موجّها حديثه إليهم بنبرة حادّة :

– إنّ الذي ينتظرنا أمر كبير ، وحسب تعليمات قائدنا يجب أن نعالج كلّ ثغرة من الممكن أن يأتي منها ضرر على كيان الحزب وأهدافه .. يجب أن نتحرّك بقوّة وسرعة ، ونبلغ (القائد) بالنتائج سريعا.

في صباح يوم مشمس على بغداد ، وبعد ليلة ماطرة ، وبقع من المياه تركد هنا وهناك في الشارع الفرعي النازل من شارع حيّ أور الرئيس القريب من منطقة البنوك خرج من بيته د.سالم جواد التدريسيّ في الجامعة المستنصرية ، وصاحب جريدة (الحريّة) التي تنزع إلى التوجّهات الديمقراطيّة والوطنيّة ، وحماية الحريّات ومناهضة الفساد والاستغلال بشتى صوره ..

د.سالم الرجل الذي يقترب من الستين ذو خصلة الشيب المتوسطة في شعره ووجهه الحنطيّ البيضوي تستعرضه النظّارة الطبية الأثيرة .. خرج متوجّها إلى سيّارته قصد الذهاب إلى الجامعة ، وفوجئ بأنّ اثنين من إطارات السّيارة قد أُفرغا من الهواء ، فوقف متحيّرا لبرهة ، وإذا بسيّارة تركن إلى جانبه لتخرج منها امرأة حسناء في أوائل العشرينيّات بهندام محتشم متوجّهة إلى الدكتور سالم قائلة له :

– د.سالم صباح الخير .. كيف الحال .. طبعا أنا معجبة جدا بجريدتك الرائعة وبمقالاتك التنويرية ، ولشدّما جذبني حديثك في لقاءاتك التلفازية ، وأسمع عن حبّ الطلبة لك في الجامعة المستنصريّة ، ودورك الكبير في إثرائهم بالثقافة الحقّة .

ردّ د.سالم بابتسامة خجلة : شكرا جزيلا ابنتي هذا من ذوقك ولطفك.

استمرّت المرأة في كلامها ، وكأنها قد حفظته مسبّقا :

– أراك حائرا دكتور هل من شيء .

أجابها د.سالم : سيارتي .. لقد أفرغ الهواء من إطارين فيها ، ولاأعلم مَنْ تسبّب بذلك ، ولماذا؟.

– ربّما أطفال عابثون تسبّبوا بهذا .. دكتور دعني أوصلك بسيارتي.

شعر د.سالم بالحرج نوعا ما فردّ عليها متمنّعا :

– لا يا ابنتي سآخذ سيارة تكسي لايهمّ شكرا لك.

لكنّ المرأة أصرّت على عرضها ، فاقتربت منه قائلة :

– لايمكن دكتور إنّ طريقي يمرّ عبر الجامعة المستنصرية ، ويشرّفني أن أقلّك بسيّارتي .. تفضّل دكتور تفضّل.

بتردّد وتثاقل واضحين صعد د.سالم إلى سيارة المرأة الحسناء لتنطلق بسيرها مارة في طريق لم يعتده د.سالم ، فأدار رأسه نحو المرأة سائلا إيّاها بنبرة متعجّبة :

– لماذا تذهبين بهذه الطريق يا ابنتي .؟

– إنّها طريق مختصرة دكتور.

استغرب د.سالم ممّا سمعه ، فهذه أبدا ليست طريقا مختصرة فقال لها:

– إنّي أعرف كلّ الطرق في هذه المنطقة ، وهذه الطريق لاتوصل إلى الجامعة أبدا ... يبدو أنّك لست من هذه المنطقة .

وبدت علامات الارتباك بوضوح على وجه المرأة الشابة حتى أنّها لم تجبه إطلاقا ، ولاحظ هذا الأمر د.سالم ، فمال نحوها بجسده متسائلا:

– مابك يا ابنتي أراك غير طبيعية هل هناك شيء ما...

وقبل أن يسترسل د.سالم في كلامه تدخل السيّارة على حين غرّة فرعا جانبيا وتقف ، وقبل أن ينبِس ببنت شفة رأى عددا من الرجال الملثّمين شاهرين أسلحتهم ، وقد أحاطوا بالسيارة ، وأنزلوه منها عنوة مهدّدينه بالقتل إن لم يستجب لأوامرهم ، ودسّوه في سيارة مضلّلة لتنطلق بسرعة كبيرة وسط هلعه ، وصدمته .

بعد عملية خطفه الماكرة يجلس د.سالم صاحب جريدة (الحريّة) على كرسيّ خشبي أمام طاولة دائرية صغيرة ، ومظاهر العياء تبين على هيئته .. يدخل جسّار ، وعيناه تقدح شررا مع ثلاثة مسلحين أقوياء البنية محاولا فتح الحوار معه بنبرة هادئة نوعا ما :

– د.سالم نعلم أنّ ابنتك الوحيدة (رؤى) التي خرجتَ بها من الدنيا هي كلّ حياتك بعد وفاة زوجتك ، والآن هي تدرس الماجستير في الهندسة الكهربائية بلندن ، وتقيم مع أختك أمّ وليد أليس كذلك. ؟

ردّ د.سالم بانفعال شديد : من أنتم .. ماذا تريدون منّي ... أين أنا ؟.

– اهدأ .. اهدأ .. دعنا لانطوّر الأمر إلى شيء اخر .

– هل أنتم من الحكومة.؟

تنهّد جسّار بعمق ، وثقة قائلا : نحن من (الحزب) ، ونعمل على أن نسود البلد حتى تكون الغلبة لنا ، ونحكم البلاد .. نحن كيان كبير له مريدون كثر ، ، ونعمل على كسب الناس وتهيئتهم لاختيارنا ، والتصويت لنا في الانتخابات العامّة المقبلة .. ربّما أنت تعرف بعض شخوص الحزب لكونك صحفيّا ، ومتابعا لكنّني لن أصرّح بالأسماء الان .

اعترض د.سالم على كلام جسّار مستغربا كيف يقول إنّنا سنسود ، وهم يعملون في الظلام ، ولايصرّحون بأسماء قادة (الحزب)، ولايتواصلون مع الناس علنا، ثمّ طفق يسأله :

– لماذا أنا هنا.. لماذا خطفتموني .؟

فأجابه جسّار برويّة ، ونبرة هادئة بأنّ الوقت لم يحن بعد ، وأنّهم يهيّئون الأرضية الملائمة ، ويمهّدون لظهورهم ، وأنّهم لو ظهروا للعلن فسيَصطُمّون الآذان بقوّة صوتهم وحضورهم ، وسيستحوذون على أفئدة الشعب بسهولة .

استمرّ د.سالم بطرح أسئلته فهو لايريد مغادرة كونه صحفيا ، وكأنه ليس مخطوفا من قبل جماعة مسلحة خطيرة ، فسأل جسّارا إن كان ينتمي إلى كيان سياسي مسجّل ومشارك في الانتخابات ، وجاءته الإجابة التي كان يتوقعها :

– إنّ كلمة الانتخابات والحريّة ، والدّيمقراطية استوردناها من الخارج من أهل الانحلال والتفسّخ الأخلاقي ، ويجب أن تُردّ هذه البضاعة إليهم.

تساءل د.سالم باندهاش واستغراب .. كيف سيظهر (الحزب) للعلن ، ويشارك في الانتخابات ، وهو يرفض الديمقراطية المستوردة كما يقول.؟ ، فأتته الإجابة من جسّار بأنّ الديمقراطية والانتخابات الوسيلة المتاحة حاليا ، وهم مجبرون على اتباعها الان لكنّها عموما لاتلائم الشعب ، وتفتّت كيان الأمّة .

هكذا إذن .. يرضون بالديمقراطية والانتخابات إنْ أوصلتهم للسلطة ، وما أن يتمكّنوا منها ، فسيشطبونها من القاموس .... تدفّقت هذه العبارات في سريرة د.سالم الذي اتهمه جسّار بأنّه يحمل خطّاً فكريا في جريدته (الحريّة) لايستقيم وتوجهات (الحزب) ، وطلب منه أن يغيّر منهجها ، وأن تعمل وفق ما يريد (القائد) ، فأجابه د.سالم أنّ بإمكانهم أن يصدروا جريدة خاصة بهم ، ويعبّروا بها عن أفكارهم .

فردّ جسّار مقهقها بأن لديهم جريدة ، ولكن لايعلنون فيها عن كلّ ما يريدون حتى لايلفتوا انتباه المغرضين ، ويتحرّك ضدّهم الجمهور المنافس ، وحتى لاتضايقهم السّلطات الحكومية، وتصطدم بهم، ثم إنّهم يفتقدون لشخصية بينهم بمثل قلم د.سالم ، وجمهوره الواسع ، وآرائه المؤثرة في الناس ... بينما هما في هذا الحوار يدخل أحدهم بقدح من الشاي ، وكوب من الماء ، ويشير جسّار بيده لـ د.سالم : تفضّل دكتور اشرب الشاي ، واصغِ لي .

بيد راجفة تناول د.سالم قدح الشاي ، ومع أول رشفة قال له جسّار إنّ (القائد) قد قرّر احتجازه هنا في هذا البيت الواسع مدّة سنة واحدة يقوم خلالها بإدارة جريدته من هذا المكان الذي يتوفّر فيه كلّ مايحتاجه من معيشة ، ولوازم ضرورية فلديه الهاتف الذي يتصل به تحت إشرافهم ، وسيوفّرون له مكتبا مريحا ، وجهاز حاسوب، وخطّ انترنت وكلّ مايريد من كتب، ولوازم الكتابة ليبدأ بتغيير نهج الجريدة على وفق مايريده (الحزب)، وربّما سيتولّى منصبا رفيعا فيه ، فردّ د.سالم بنفاد صبر :

– لكنّني لاأستطيع فعل ماتريدون منّي لاأستطيع..كيف أخون قلمي وجمهوري ومبادئي . أنتم تطلبون المستحيل .

أجابه جسّار بحدّة وحنق بالغين واضعا خيارين أمامه لاغيرهما إمّا أن يكون معهم ، ويتبع أوامرهم حينها كلّ شيء سيمضي بهدوء ، وإمّا أن تكون حياة ابنته ، وحياته نفسها هي الثمن ، فلم يتمالك د. سالم نفسه رادّا عليه بنبرة احتجاج وغضب :

– أيُعقل أنّكم بهذه الرؤية ، والتفكير الرجعي تريدون أن تقودوا دولة عظيمة وعريقة كدولة العراق ؟

تدوّي في المكان صفعة أسقطت د.سالم من على كرسيّه ، ووقف جسّار عند رأسه ليقول له بصوت حنق متحشرج :

– اصمت عن مثل هذا الكلام ، وأقولها لاخر مرّة ..

مدّ د.سالم يديه المرتجفتين إلى نظّارته الطبية التي سقطت على الأرض ، والتقطها بهدوء ليعيدها إلى عينيه التي شخصتْ نحو جسّار ، وهي تسائله بصمت مُرّ : أيّها النّزق الأحمق ماقيمتك من دون حريّة.؟ لماذا ترضى بأن تُستعبد من قبل شخص ما ، أو جهة ما.

وقف جسّار أمام عيني د.سالم طويلا ، وشعر أنّهما يكلّمانه ويحتجّان عليه بشدّة فحاول لجمهما بقوله :

–دكتور إنّ الحياة للأقوى ، والناس لايحسنون التصرّف بحريّاتهم .. الفوضى دائما هي النتيجة المتحصّلة من هذه الحريّات،وماتسمّي بالحرية والديمقراطية تخلق الضّعف والهوان ، وتنشر أفكارا لاتتفق مع الثوابت الدينية .

ردّ عليه د.سالم بعد أن اعتدل بوقفته التي أراد لها أن تكون شامخة ، وشعر أنّه مازال رابط الجأش :

– إنّكم لاتعيرون أهمية للثوابت الدينية التي لم تكن يوما ضدّ حريّة الانسان المسؤولة إنّما تهمّكم السلطة التي تخلقونها بهذه الثوابت. إنّكم توظّفون كلّ شيء لتصلوا إلى السلطة والحكم .

حاول جسّار أنّ يدافع عن وجهة نظره ، وهو في داخله يعلم أنّه ليس بمقدوره الصمود في هذا النقاش مصرّا على القول إنّ توظيف كلّ شيء في سبيل الوصول إلى السلطة هو ماكان يفعله الإنسان منذ أن وُجد على هذه الأرض ، ثمّ طلب من د.سالم إخبار كل موظّفي الجريدة ، وكلّ أصدقائه بأنّه سيسافر إلى لندن ليكون قرب ابنته مدّة عام ، وأيّ

محاولة لإخبار أحد بوضعه هذا سيكون مصيرها حياة ابنته أوّلا ، ثم حياته ثانيا ، وأعطاه الهاتف طالبا منه الاتصال بالعاملين في الجريدة ، وإخبارهم بما اتفقا عليه وإلا لن يرى لغة متسامحة مرّة أخرى .

هكذا انتهى الحوار بين الاثنين بتلبّد الغيوم السود فوقهما ، واحتدام الصراع الأزلي بين فكريهما ... مرّت دقائق من الصمت، واستحضر د.سالم في ذهنه صورة ابنته رؤى، وضحكتها البريئة ، وصورة أخته الكبرى أمّ وليد ، وقدّ خطّ الزمن على محيّاها آلام فقد زوجها الذي أعدمه النظام السابق في بغداد ، وهروبها قسرا من الملاحقة، وفقدها لجنينها الذي أجهضته في شهره السادس ،وهي في جبال كردستان العراق تحاول مع أخيها اللجوء إلى تركيا... يطرق د.سالم برأسه ، وقد أثقله ألم القلق والهواجس ، وبنبرة واهنة وعينين ناقمتين تشخصان لجسّار يتّصل بـ(جمال بدري) مدير تحرير جريدة الحريّة ، مبلغا إياه بعزمه على السفر إلى لندن ، والبقاء مع ابنته لظروف خاصة .

هنا يلحظ جمال في الطرف الاخر من الهاتف تغيّرا بنبرة د.سالم ، فسأله عن نبرة صوته المتعبة ، وردّ عليه مسوّغا تغيّر نبرته بحجّة الظروف العائلية طالبا منه إدارة الجريدة بدلا منه، والتواصل معه عبر الإنترنت والهاتف فقط ، وأنه سيرسل له مقالاته الافتتاحية عبر الإيميل ، وسيبعث شهريا بقوائم رواتب موظفي الجريدة حتى تصلهم بموعدها المحدد ، ثمّ يندُسُ جسّار كتف د.سالم ، ويومئ له برأسه.. فهم د.سالم الإيماءة ، واستأنف الحديث مع مدير التحرير:

– اسمع جمال سأرسل لك خطة جديدة لتوجّهات الجريدة كي تنطلق بها في العمل.. خطّة تغيّر من المسار الموضوعي والمنهجي لها ، وأرجو أن لاتناقشني الان لأنّني متعب جدا .. أستأذنك .. إلى اللقاء .

يظهر للعين المتطلّعة في منطقة حيّ العدل ببغداد جامع بسيط في مظهره الخارجي بقبّته التي سقط بعض الآجُرّ منها ، ومئذنته الصغيرة التي تعاورها الزمن بأنيابه ، فترك خدوشه وطعناته فيها .

من الداخل تبرز الزخارف الإسلامية محيطة بالشبابيك المقوّسة ، وهي تُزيّن بعض زوايا المكان ، ويظهر المنبر البسيط بدرجات سلّمه الأربع الذي ينتهي بكرسيّ خشبيّ ، وعمودين من الخشب يستند إليهما الشيخ (خالد) الرجل الأربعينيّ بوجهه الحنطيّ السمح الجميل المحيّا ، ولحيته الخفيفة المشوبة بالبياض الذي يمنح المتطلّعين إليه طابع الوداعة والسماحة ، وهو يخطب بجمع من المصلّين يحلّقون حوله ، وتبدو على محيّاهم السكينة والهدوء ملتذّين بكلام الشيخ ، ومنصتين إليه بخشوع منقطع النظير، وهو يقول :

– إخواني وأبنائي تعلمون أنّ الله أمرنا باليُسر والسماحة ، ونهانا عن الغلظة والفظاظة ، فالتسامح خلق عظيم يرتفع بصاحبه نحو الارتقاء في مستويات الإنسانيّة ، ونحن أمّة وسط نرتبط مع مَنْ هم مثلنا في الدّين ، ومع مَنْ ليس على ديننا بروابط الأخوة والمحبّة والتعاون والتآزر ، فليست في قاموسنا المعنوي مفردات الكراهية والعنف والعنصرية . لكنّما البعض يستغلّ هذا الدّين ليمارس دور الشيطان القابع في مكنون نفسه سعيا للهيمنة والتسلّط على رقاب الناس.

وما أن أنهى الشيخ خالد خطبته حتى خرج من بين صفوف المصلين الشابّ الثلاثيني (زيد) المتزمّت بأفكاره ، وآرائه يرافقه (عبد الرّحمن) الشاب العشرينيّ الذي يشاركه ذات أفكاره وانتمائه. أخذ زيد يحرّك رأسه

يمينا وشمالا ، وسيماء الانزعاج تملأ وجهه الأصهب ماسكا بطرف لحيته الضخمة ، وهو يتأفّف بقوّة حتى كاد مَنْ بجانبه يسمعه ، وما أنْ خرج من الجامع حتّى تناول هاتفه ليتصل بـ(أبي البراء) الشيخ الستينيّ ضخم الجثة بحاجبيه الغليظين الأبيضين ، ولحيته الكثّة المخضّبة بالحنّاء ، مرتديا لباسا إسلاميا وعمامة بيضاء ، هو مسؤول زيد المباشر في (الحزب) ، والطامح في منصب كبير وعده به (القائد) عندما تلين لهم الأمور ويستولون على حكم البلاد .

كان أبو البراء ينتظر هذه المكالمة من زيد :

– شيخي هذا المسمّى بالشيخ خالد يستهزأ بنا.. لقد أثار أعصابي.

– ما الذي حدث أخبرني .؟

– لم يستجب لتعليماتنا ، وضرب كلامك ياشيخي عرض الحائط .

– تعال ومن معك إلى المقرّ سنتداول بشأنه ، وننظر ماذا سنفعل في الخطوة المقبلة .

أومأ زيد برأسه نحو عبد الرحمن عندما رآه خارجا مع (أحمد) من الجامع .. أحمد الشابّ العشريني الطيّب القلب الذي تبدو على وجهه علامات البراءة ، وسيماء الأطفال يعمل مهندسا مدنيّا في أمانة بغداد. لقد تعرّف عليه عبد الرحمن قبل شهر كعادته عندما يريد كسب الشباب إلى (الحزب) حسب أوامر زيد .. فهم عبد الرحمن الإيماءة لينفرد بأحمد جانبا محاولا إقناعه بالانضمام إلى (الحزب) قائلا له :

– لقد بلغ الانحلال ومخالفة شرع الله مستوى لايطاق .

أجابه أحمد مستغربا : كيف هذا .؟

ردّ عليه عبد الرّحمن متظاهرا بالانزعاج :

– ألا تلاحظ مظاهر السّفور لدى النساء في الشوارع والأماكن العامة .. ألا تلاحظ الشباب وملابسهم المخالفة للشرع ، وما تعرضه المسارح والقنوات الفضائية من عروض هابطة وأفلام تغضب الله .

– لكنّ الأمر ليس ظاهرة ، وليس شائعا كما تظنّ . بل هي مظاهر قليلة.

– قليلة .؟ أهكذا تظنّ .؟ طيّب إنْ كانت قليلة الان ، وسمحنا لها بالانتشار والتمدّد ولم نتصدّ لها ، فسينتشر الانفلات والميوعة ، ومعصية الله كالنار في الهشيم بين الشباب ، وسنكون كالشياطين لأنّنا خُرسنا ولم نقل الحق ، ولم نجهر به .

التفت أحمد إلى عبد الرّحمن بعينين مندهشتين متسائلا عن السلطة التي يملكها ، وتسمح له بأن يتصدّى لمظاهر السفور كما يقول ، وأردف قائلا :

– إنّ مايُسيّر الدولة هو الدستور ، والقوانين التي تحفظ الحريّات للناس الذين يتوزّعون بين مشارب مختلفة ، ولماذا من حيث الأساس نتدخّل باختيار الإنسان لأفكاره ومعتقداته ، وحريّته . ؟

أجاب عبد الرّحمن بنبرة منزعجة ممّا يسمعه من أحمد :

– إنّنا نملك سلطة الله وشريعته ، ويجب أن ننفّذ شرعه كما أمرنا الله.

بدأ الحوار بين عبد الرّحمن وأحمد يثير الأجواء . إذ توغّل في الأول الحنق ، والانزعاج ملتفتا نحو الثاني بعينين بدأتا بالاحمرار :

– لقد استقصيتُ ، واستفتيتُ أكثر من شيخ جليل وعالم فذّ ، وكلّهم أجمعوا على ضرورة محاربة مكامن الانحلال الأخلاقي ، والاختلاط المؤدّي إلى الفتنة.

ردّ أحمد بنبرة هادئة ، وواثقة من نفسها بأنّ هناك قوانين دستورية وضعية تراقب مظاهر الانحلال الأخلاقي ، وتمنعه وتحاسب عليه إنْ خالف الضوابط ومسّ مشاعر الناس . أمّا الاختلاط ، فكلّ شخص يعكس تربية أسرته له ، وما اكتسبه من سمات . لذلك تكون تصرفاته انعكاسا لتصرفات أهله داخل البيت ، وما اكتسبه من بيئته ..

أجابه عبد الرّحمن باستغراب مصطنع يحفّه الاستهزاء والاستخفاف :

– أيّ قوانين يا أحمد .. حسبتك أذكى من أن تقول هذا الأمر .. أنا أحدّثك عن شرع الله ، وأوامره ونواهيه ، وأنت تحدّثني عن القانون والدستور .. كلّ هذه الأمور من صنع الغرب الكافر فُرِضتْ علينا فرضا فخالفنا شريعة الله وكلمته الحق .

فقاطعه أحمد مذكّرا إيّاه بأنّه يعيش في القرن الحادي والعشرين، والمجتمعات تطوّرت وارتقت عقولها ، ومايسود الان هو معنى الإنسانية

وكرامة البشر ، واحترام إرادته وحريّته في الاختيار، وهذا لايخالف شرع الله . إذ لا إكراه في الدِّين قد تبيّن لكم الرّشد من الغيّ..

شعر عبد الرحمن بنوع من الصدمة . إذ تفاجأ من ردّ أحمد ، ولم يكن يتوقعه على الإطلاق ، وهو الذي كان يمنّي النفس بترغيبه ، وكسبه إلى حاضنة (الحزب) لكنّه لملم شتات ألفاظه :

– ماهذا الهراء أيعقل أنّك صاحب دين .؟

حدّق أحمد طويلا بعيني عبد الرحمن ، وتساءل في نفسه :

لِمَ يعتقد مَنْ يميل إلى الالتزام الديني في حياته أنّ هذا الالتزام لايكتمل من دون محاولته التدخل فيما يعتقده الناس ، والعمل على مصادرة حريّاتهم.؟

بعد أن لملم عبد الرحمن قدميه مبتعدا جال أحمد ببصره بين الناس وهم يخرجون من الجامع ، وساءل نفسه ، ومن خلالها ساءل الكون ومن عليه :

–هل هناك شيء في هذه الدنيا يستحق أن يصادر عقولنا ، ويستغل عاطفتنا الفطرية.؟ هل هناك شيء في هذه الدنيا يستحق إزاءه أن يسير الناس بالعصا من دون فكرة الإقناع ، والعرض الموضوعي ، والنظرة إلى آفاق العلم ؟. عندما يقترب الدين من الترهيب ، فإنه يقود الإنسان من ظاهره لا من باطنه ليخلق منه إنسانا ازدواجيا منافقا.

غادر زيد ، وعبد الرحمن المكان متوجّهين إلى جامع كبير تزهو واجهته الأمامية بالأقواس الإسلامية المزخرفة ، والأعمدة الشاهقة المغلّفة بالمرمر ، وتشمخ فيه قبّة ضخمة مرصّعة بالنقوش والزينة ، وتطلّ مئذنة الجامع على مناطق واسعة من بغداد لعلوّها الشاهق ، وهي مغلّفة بحجر اللازورد .

بعد أن وصلا اتجها مباشرة إلى قاعة داخل الجامع حيث كان بانتظارهما أبو البراء ، فبادره زيد بالتحية ، وبعد أن أذن له بالجلوس على مقعد فخم وثير قبالته تكلّم بحماسة وصرامة في القول لكنّه في الوقت نفسه كان حريصا على أن لاتعلو نبرته بوجه أبي البراء :

– شيخي بعد أن أوصلنا للشيخ خالد رسالتك التي حذّرته فيها من مغبّة مايفعل ، وكيف أنّه على باطل ويجب تغيير نهجه المتراخي مع العاصين ، وعدم نهيه عن المنكر فوجئتُ بأنّه لم يرعوِ ، وظلّ متمسّكا بموقفه.

هنا ضاقت عينا أبي البراء مقطّبا حاجبيه ، وأومأ برأسه موقنا بأنّ خطبة الشيخ خالد على غير ما طُلب منه ، واستأنف زيد حديثه صابّا حقده على الرجل :

– شيخي لقد أتت خطبة الشيخ خالد في الجامع اليوم لتلمّح إلينا ، وتتهمنا بمحاولة شقّ صفّ المسلمين ، وكيف أنّنا نقوم بمصادرة عقول الناس ، وخداعهم ... إنّ خطبته ليست من الدين في شيء . إنّه معاند أثيم .

نهض أبو البراء من مكانه رافعا رأسه متطلّعا إلى فخامة أرجاء الجامع وعظمة بنائه ، وجمال زخارفه مذكّرا زيدا كيف أنّ الشيخ خالد قد رفض في المرّة السابقة العرض الذي قدّمه له بدعمه ماليا كي يعيد ترميم الجامع المتهالك الذي ورثه من والده الشيخ مفيد ، ويُصلح من معيشته ، وطلب منه أن ينضمّ إلى (الحزب) ، ويترك هذا النهج الخاطئ الذي يسير عليه ويصبح معهم . لكنّه رفض الانضمام إليهم .. وافقه زيد في القول معلّقا :

– شيخي إنّ رفض الشيخ خالد الانضمام إلينا ليس بصالح المسيرة لاسيّما أنّ له مريدين وأتباعا كثيرين ، ويؤثّر كلامه في النفوس ، وهاهو اليوم يؤكد هذه الوقاحة، والجرأة بخطبته التي يوحّد فيها بين المسلم وغير المسلم ، وبتشهيره بنا .

أطرق أبو البراء برأسه ، ورفع مسبحته نحو مستوى صدره ، وزمّ شفتيه وأغمض عينيه برهة من الوقت ، ثمّ قال :

– لقد اشترى الشيخ خالد عداوتنا ، وأعلن حربه علينا والبادئ أظلم.. سأوصل أمره إلى القائد اليوم ، وأبلغكم بما يجب علينا القيام به إزاء هذا المرتدّ إن لم ينصع إلينا .

((لا تَخَفْ أبداً أن ترفع صوتك من أجل الصدق والحقيقة ، ومن أجل التعاطف ضدّ الظلم ، والكذب والطمع .. لو فعل كلّ الناس ذلك سيتغيّر العالم.))

ويليام فوكنر

مضى شهران تقريبا على احتجاز القاص صالح أمين .. نمضي معا لننظر هناك إلى إحدى البنايات القديمة المعزولة التي يؤدي إليها ممرّ ترابي ينسدل من الشارع الرئيس الممتدّ لإحدى الضواحي شمالي بغداد .. ينزل أبو الأُسيد من السلّم متجها نحو قبو صغير لاينيره سوى مصباح متدلٍّ من السقف ، وفي عينيه وهج مخيف صائحا:

– أنت ياصاحب الشعر الأبيض (يقصد القاص صالح أمين) :

–هل أنهيتَ الرواية .؟

ردّ صالح بتململ : كلّما أوشكتُ على نهايتها تأتي أنت لتمزّقها.

سحب أبو الأسيد كرسيا من أحد زوايا القبو ، وجلس بنفاد صبر قائلا:

– لأنّك لاتكتب ما نريد ..المسؤول الثقافي يقول لك ألف مرّة أظهر الأتباع والرعية في الرواية ، وهم يمدحون الملك دائما ، ويعظّمونه لدرجة التقديس ، وصوّر من يعصيه على أنّه مارق عن الذات الإلهية ، وطامع بالخير لنفسه ، ولاتهمّه مصلحة الشعب . هذا آخر إنذار لك وإلّا .. أنت تعلم ما الذي سنفعله بزوجتك وولدك مثنّى .

يتقدّم صالح الذي شحب وجهه كثيرا للأمام ، وبان الأسى في عينيه ، ولكنّه كان يغالب الألم في نفسه حتى لايبدو منكسرا ، ثمّ قام بسحب كرسيّ كان في جانب القبو ليجلس عليه أمام أبو الأسيد قائلا له :

– الأدب ليس طينا صناعيّا أغيّر شكله متى أردتُ .. إنّه إبداع .. خيال يضرب في النّفس، ويحملها إلى آفاق بعيدة حيث تُنسج الأحداث

معجونة بقلم المعاناة. الأدب يحمل إلى جانب متعة القراءة البعد الكوني للإنسان وروحه النقيّة .

ما أن سمع أبو الأسيد هذا الكلام حتى استرسل بقهقهة طويلة قائلا :

– أنتم الأدباء تعيشون في وادٍ ، والدّنيا في وادٍ اخر .. بربّك كلماتك هذه من سيفهمها إلا أمثالك من المجانين .

أجابه صالح بنبرة مستهزئة : مجانين ؟ ومن هم العقلاء أعضاء حزبك مثلا.؟

تحوّلت معالم وجه أبي الأسيد من القهقهة إلى شكل بركان يتطاير الشّرر منه وقفز واقفا ، والغضب يملأه ليمسك برقبة صالح بقوة ، ويصفعه عدّة صفعات أدمت وجهه.

مسح صالح عن صدغه بضعة قطرات من الدم زحفت إلى أسفل خدّه الأيسر ثمّ ثبّت عينيه بوجه أبي الأسيد قائلا له بصوت خفيض :

– أنتم لاتملكون سوى العنف أداة .. كيف ستكسبون عقول الشعب .. أبالعنف أيضا.؟

رفع أبو الأسيد يديه عن رقبة صالح مبلغا إيّاه أنّ قائد (الحزب) هو الذي سيلتفّ حوله الشعب ، وهو من سيكسب عقولهم، وقلوبهم بشخصيته القيادية ، وسيحدّد المسار لحكم هذا البلد ، ثم أعطاه مهلة نحو شهرين لإتمام كتابة الرواية التي طلب منه إنجازها مهدّدا إيّاه بمصير كارثي سيحلّ بزوجته وابنه إن لم ينفذ أوامره .

تنهّد صالح طويلا ، وهو ينظر إلى أقدام أبي الأسيد ، وجماعته مغادرة المكان ، وأخذ يخاطبهم بصوت خفيض ، وهم لايسمعون:

– (الحُكْم).. آه .. كم تشغلكم السّلطة ، فتصادر آدميتكم ، ولا تنظرون إلى ما يريده الشعب الذي سئم الأحزاب ... سئم من غسيل الدماغ . بِمَ تختلفون عن غيركم مادامت أدواتكم كأدواتهم ، ونهجكم مثل النهج الذي اتبعه مَنْ سبقكم، وخلّف النكبات، والويلات للشعب.؟

ثم أطرق برأسه مغمضا عينيه.. غارقا في سحب الآلام والوجع من المجهول الاتي .

بعد مضيّ أكثر من شهرين على وعيد أبي الأسيد ، وتهديده بتصفية عائلة القاص صالح أمين إنْ لم ينجز الرواية التي تم تكليفه بتأليفها لصالح (الحزب).. يدخل أبو الأسيد مع ثلّة من الملثّمين المبنى المحتجز فيه ، ويفتحون الباب عليه فبادرهم بالقول:

– إليكم الرواية كاملة .. هذا ما أقدر عليه الان أرجوكم أريد الاطمئنان على زوجتي وابني .

بعد أن أخذ أوراق الرواية منه ردّ عليه أبو الأسيد :

– لك ذلك ستطمئنّ عليهما ..لقد أبلغني أستاذ محمد الذي كان يراجع الرواية معك خلال الأيّام الماضية أنّه راضٍ عنها هذه المرّة على الرغم من عدم اتمامها .. سأعرضها على قيادة الحزب حتى تأخذ طريقها للطبع. إنّك الان في المسار الصحيح ستأخذ راحة لشهر واحد كي تبدأ

بتـأليف قصّـة جديـدة ، وسـيعطيك أسـتاذ محمـد توجّهاتهـا ، وأهـدافها وخطوطها العريضة.. أنجز المهمّة لنتركك طليقا .

القاص صالح : محمد .. الأديب الفاشل أصبح مسؤولكم الثقافي ، وهو من يوجّه قلمي .

فأجابه أبو الأسيد :

– إنّكم قد ظلمتم محمّدا وهمّشتموه ، وشعر أنّ الحزب هو الكيان الوحيد الذي يستطيع أن يُرجع إليه اعتداده بنفسه ، وأن يعطيه مكانة في هذه الحياة أنتم حرمتموه منها.

– نحن حرمناه من أن يخدع نفسه ..

– هكذا أنتم تقدّمون الأعذار لتسويغ اضطهادكم كلّ من لايسير على نهجكم .

هنا شعر أبو الأسيد بأنّ كلماته الأخيرة هواء في شبك لأنّه هو نفسه غير مقتنع بها في الأصل ، وأنّها تشعره بالصِّغر ، ولو كان الأمر بيده لشطب هذه الكلمات من الزمن قبل أن تصل لصالح ، فتدارك الأمر بأنّ الأوان قد فات للحديث في هذه الأمور ، وأن صالح يعيش في صومعة .. في عالم المثل والقياس بالمسطرة ، فليس هكذا الحياة إنّما الدنيا لمن غلب ، والبشر هم البشر تحرّكهم الأهواء ، والمطامع مادخل الزمن في هذا .

اعتدل صالح في جلسته ، وتوجّه في كلامه إلى أبي الأسيد غير هيّاب ، ولا وجل :

– لقد غادر العقل المتحضّر منطقك السّقيم . إنّك وأمثالك مثل الفيروسات تصيب البشر حتى تدمّره ، وتحافظ على التوازن في الطبيعة. إنّ الطبيعة أحيانا تنتخب بعض البشر ليحاول تدمير جنسه تحت مسمّيات شتى مثل تفوّق العِرق ، أو إعلاء القومية أو القبلية أو الدّين أو حبّ السيطرة والتملّك ، والغرض هو المحافظة على التوازن في الكرة الأرضيّة بين مخلوقاتها ، فمثلما أوجدت الطبيعة أمراض الكوليرا والسّل والملاريا والجدري ، والكورونا لتقضي على الملايين من البشر ، فقد أوجدت مجرمين مخبولين من البشر يُسمّون أنفسهم قادة ليساهموا في قتل الملايين أيضا .

فغر أبو الأسيد فاهه بغباء للتعبيرعن اندهاشه :

– أما قلت لك إنّك ، وأمثالك مجانين . (قال هذه العبارة ، ثم غادر المكان).

تنهّد القاص صالح بعمق وألم بعد أن غادر الجميع المكان ، وعاد من جديد لطقسه الأثير ، وهو مناجاته مع نفسه هذه المناجاة التي تحوّلت إلى ممارسة يومية ليهرب بوساطتها من سطوة القهر وتأنيب الضمير:

– لقد ارتكبتُ أكبر جريمة بحقّي ، وحقّ المجتمع والإنسانية .. هل يعلم هذا المعتوه الذي كان واقفا أمامي كمَّ العذابات التي عانيتها . لقد كان الموت أهون عندي من كتابة هذه الرواية ، وعندما وجدتُ أنّ

محمّداً الأديب الفاشل الذي كان يسعى لترويج نفسه أديبا ، وناقدا صنديدا رغم أنف الجميع قد أصبح معهم ، وأنّه المسؤول الثقافي لـ(الحزب)..أيقنتُ أنّ العقل الإنساني من الخواء بمكان حتى أنّ أتفه الأسباب يمكن أن تجعل منه قنبلة مدمّرة موقوتة .

آهٍ من هذه الحياة .. نعمل دائما على ألّا نمسك الشمعة من شعلتها حتى لاتحترق أصابعنا ، ولكن هذه الحياة تدفعنا دفعا لمسك الشمعة من شعلتها ، وهي تستمرّ بضحكاتها وأنينها ، فلماذا نحمل هموما لانفيد منها ، ألا يمكن أن نجمع الحجارة التي تعيق طريقنا ، ونبني بها أرصفة جميلة تزيّن الطريق إلى المجد في هذه الحياة ... هكذا كانت الأفكار تترى على الشيخ خالد ، وهو يقرأ كتاب (معنى الحياة) لألفريد أدلر ، وقد توسّط عائلته جالسا في بيت صغير ملحق بالجامع الذي ورثه من أبيه الشيخ مفيد ..

تحمل زهراء ابنته ذات الأحد عشر ربيعا دلو الماء ، وهي تبتسم لأبيها الذي احتضن أختها الصغرى آية ذات الثلاث سنوات ، وأخذ يلاعبها بشغف .. تتبعها أمّها بآنية طعام العشاء مخاطبة زوجها ، والابتسامة تملأ وجهها المتعب :

– أما مللتَ من اللعب مع آية ياشيخ ..هيا حان آوان طعام العشاء .

بدأت العائلة الصغيرة بتناول الطعام .. الشيخ خالد يضع لقمة في فمه ولقمة صغيرة في فم آية وسط ضحك زهراء ، وابتسامة الأمّ العريضة ، ثم نهضت أمّ زهراء لحاجة ما متجهة إلى المطبخ .. في هذه اللحظة

دقّ جرس الباب ، فوضعت يدها على قلبها مستشعرة نغزة أنذرتها بشيء مخيف وراء صوت الجرس ، فلم تتحرك من مكانها لبرهة ، ونادى عليها الشيخ خالد :

– أمّ زهراء .. هلّا نظرتِ من الطارق.؟

وبخطى غير منتظمة اتجهت أمّ زهراء نحو الباب ، ومن دون أن تفتحه قالت بصوت مرتجف نوعا ما :

– من الطارق؟

أجابها صوت نسائي رفيع متهدّج :

– أختي أنا على باب الله ، وأطلب مساعدة منكم ، فأطفالي من دون عشاء الان ، والشيخ خالد معروف بإحسانه الله يحفظكم ويحفظ أطفالكم .

أمّ زهراء : نعم انتظري قليلا أختي .

عادت أمّ زهراء إلى داخل البيت ، وهي تسائل نفسها عن سبب شعورها بعدم الراحة والقلق ..أخبرت زوجها عن المرأة فقال لها :

– أعطها ممّا نستطيع ، وهذا طعامي ضعيه في كيس ، واحمليه لهذه المرأة المسكينة .

رأى الشيخ خالد تردّد أمّ زهراء ، وحيرتها فقال لها :

– مابك أمّ زهراء ؟.. لا أراك على مايرام .

ردّت ، وعلائم القلق تضجّ من محيّاها :

– قلبي منقبض لا أعرف لماذا .. حتى أنّي لم أرتح لصوت المرأة على الإطلاق.

الشيخ خالد : دعي الوساوس عنك ، وسارعي إلى عمل الخير .

عادت أمّ زهراء إلى باب الدّار بكيس الطعام ، ومبلغ من المال لتمنحهما للمرأة السّائلة ، وما أن فتحت الباب حتى دهم ثلّة من المسلّحين الملثّمين المنزل يقودهم زيد ، ويرافقه عبد الرّحمن ، وأمسكوا أمّ زهراء ودفعوها إلى داخل البيت ، وشهروا أسلحتهم بوجه الشيخ خالد ، وأمسكه اثنان من المسلحين وقيّداه مهدّدينه بقتل الطفلتين وسط صراخ أمّ زهراء التي عالجوها بضربة على رأسها بأخمس البندقية أفقدتها الوعي .

حينها بدأت الطفلة آية بالبكاء والصراخ ، فوضع أحد المسلحين لاصقا على فمها لإسكاتها ، ثم وضع المسلحون جميع العائلة في غرفة واحدة ، وقيّدوا زوجته الفاقدة الوعي وابنته زهراء . بدأ لون وجه آية بالاحمرار ، ولاحظ الشيخ خالد كأنّ ابنته تختنق ، فرجاهم أن ينزعوا اللاصق من فمها. في هذه الأثناء استردّت أمّ زهراء وعيها ، فاقترب من رأسها أحد المسلحين طالبا منها عدم إصدار أيّ صوت مهدّدا إيّاها بقتل ابنتيها.

امتثلت أمّ زهراء للأمر وسط غابة من الرّعب والدّموع ، وهي ترى طفلتها آية تكاد تختنق من البكاء ، وعدم قدرتها على التنفس ، فتوسّلت إليهم بأن تحتضن طفلتها ووعدتهم بإسكاتها ، ومع رجاء الشيخ خالد وتوسّلاته أمر زيد قائد المجموعة المسلحة بفك القيد عن أمّ زهراء ، ورفع اللاصق عن فم آية ، وسرعان ماقفزت الأمّ نحو ابنتها لترفعها من الأرض ، وتحتضنها بحنوّ بالغ جعل الطفلة تخفّف من بكائها حتى هدأت تماما.

أمّا الطفلة زهراء فلم تنبِس ببنت شفة من هول الصّدمة ، وعمق الرّعب الذي سيطر على كلّ قواها ، ثم اقترب زيد من الشيخ خالد الذي كان متماسكا ، وصلبا للغاية وهمس في أذنه :

– ستأتي أنت ، وعائلتك معي .. إنّ شيخنا أبا البراء يريد أن يُضيّفك عنده .

ردّ الشيخ خالد بنبرة ألم وتهكّم : يُضيّفني .؟ يا لَهذه الدعوة الكريمة . إنّ طريقتكم في تضييف الناس ليس لها مثيل أبدا.

أجابه زيد بنبرة هادئة : لابأس ياشيخ للضرورة أحكام ..هلمّ معي من دون أيّ محاولة غبيّة منك للصراخ أو عمل شيء ما ، فعائلتك معنا ، وأنت ترى المسافة التي تفصل فوّهة البنادق عن رؤوسهم أليس كذلك.؟

أومأ الشيخ خالد برأسه موافقا على ماقاله زيد خوفا على حياة عائلته ، فأخذتهم المجموعة المسلحة قصد التوجّه إلى مقرّ أبي البراء في جامعه ، وفي أثناء خروج المجموعة المسلحة من الدار، وهم يقودون الشيخ

خالد وعائلته كانت نسرين ابنة الجيران ذات الاثني عشر ربيعا زميلة زهراء في المدرسة تُسقي بضعة سنادين وردٍ تصطفّ على سياج البلكونة التي تقع في زاوية مظلمة من دارها تطلّ على بيت الشيخ خالد ، فتنبّهت إلى جلبة وصراخ يصدر من بيت صديقتها زهراء ، فبقيت تراقب الوضع بخوف وهلع شديدين ، ورأت المسلحين يُخرجون عائلة الشيخ خالد ، ويزجّون بهم في سيارة سوداء ، ثمّ انطلقت بسرعة ، والتحقت بها سيارة رباعية الدفع لم تميّز لونها جيدا.

ركضت نسرين نازلة السُلّم ، وهي تسرع الخطى المرتبكة لتخبر أباها وأمّها بما رأته من خطف الشيخ خالد وعائلته .. بعد دقائق كان هناك تجمّع من الرجال شبابا وشيوخا ، ومن بعض النساء يزداد عدده أمام بيت الشيخ خالد كلما مرّ الوقت. إذ انتشر خبر خطفه وعائلته في المنطقة ، وتم الاتصال بالشرطة التي فتشت البيت ، ودوّنت أقوال الحاضرين ، وسجّلت الواقعة .

****

لطالما آمن الطيبون بأنّ الدين ليس الذي تُبيّنه الطقوس والتقاليد ، ولا الذي تعكسه جدران المعابد ومآذنها وصلبانها ، بل بما تُسرّ النفوس ، ويختبئ في دواخل المرء ، ونيّاته الحقيقية ..

ينتقل المشهد إلى جامع الشيخ أبي البراء . إذ أدخل المسلحون الشيخ خالد ، وعائلته في غرفة منزوية عن الجامع ، ثم عزلوا عائلته عنه وأدخلوها في غرفة أخرى .. بعد دقائق مخيفة من الزمن ، جاء أبو

البراء ، ودخل الغرفة وألقى بنظرة استهزاء وتهكّم نحو الشيخ خالد ، ثم استوى على مقعد مكتب فخم ، وبادر بالحديث :

– لقد حذّرتك أكثر من مرة ياخالد من أن تخرج عن الثوابت ، وفتحتُ لك باب (الحزب) لكنّك ركبتَ رأسك بعد أن استحوذ الشيطان على عقلك فاستكبرتَ ، وأثمتَ .

أجابه الشيخ خالد بنبرة احتجاج :

– أهذا الكلام يصلح أن يوجّه لي .. أنا الذي يخشى الله ويتّقيه حقّ تقاته .. أتقول لي مثل هذا الكلام .؟

حاول أبو البراء أن يحدّ من ثورة غضبه التي تكاد تتفجّر متهما الشيخ خالد بأنّ خُطَبَه في الجامع ماهي إلّا مدعاة للفجور، ومعصية الخالق عزّ وجلّ، وأنّه يستغلّ مايسمّيه بالتسامح ، ويجعله سببا للاعتراف بفكر العلمانيين الملحدين ، وجعل الديانات كلّها على مسافة واحدة لافرق بينها ، وأنّه يعلم علم اليقين أنّ الدين عند الله الإسلام .

لكنّ الشيخ خالد بقي ثابت الجنان، وردّ على أبي البراء متحفّزا :

أنا أعلم علم اليقين أن الله عادل مع خلقه ، وأديانه لايفرّق بين من يتبع هذا الدّين أو ذاك، ثم هل تعلم أنت بالسّرائر ، وماتخفي نفوس من تسمّيهم ملحدين ..؟ أفلا نظرتَ إلى مايقدّمونه من خير للإنسانية، وغضضتَ الطرف عن معتقدهم .؟ أنت لَمْ تُكلَّفْ من السماء بتولّي

حساب الناس وعقابهم ، أو ثوابهم حول معتقداتهم إنّما الله وحده يمتلك هذا الحق.

نهض أبو البراء من مكتبه وسار باتجاه الشيخ خالد ، ووقف أمام وجهه ، وصمت بضعة ثوانٍ ثمّ قال له :

– هذا ماتحاول أن تسوّقه في خُطَبك ، وهو خارج عن نهج ديننا.

– إنّما الدين عندك ، وعند أمثالك جَوَاد تركبونه للوصول إلى غاياتكم في التسلّط على العباد .

أدار أبو البراء وجهه بعد سماعه العبارات الأخيرة ، وعاد إلى الجلوس عند المكتب ، ونظر طويلا إلى الشيخ خالد محدّثا إيّاه :

– كنت آمل أن تنضمّ إلينا وتكون عونا لنا .. اسمع ستبقى محتجزا أنت وعائلتك حتى تتوب مما أنت فيه .. فكّر جيّدا انظر لعائلتك ، ومستقبل ابنتيك وزوجتك .. إن انضممتَ إلينا ونشرتَ فكرنا ، ونهجنا بين مُريديك وأتباعك سنعطيك مكانة كبرى ، ومنصبا كبيرا في الدولة عندما نتسلّم السلطة.

حاول الشيخ خالد الردّ لكنّ أبا البراء رفع يده مسكتا إيّاه :

– لا أريد ردّا منك الان .. فأنت متوتر ممّاحصل .. سنحتجزك لوحدك بعيدا عن عائلتك ، ولكنْ إنْ أبديتَ الاستعداد للتفكير في عرضنا سأُلحقك بعائلتك وتجتمع معهم ، ونوفّر كل مستلزمات الراحة لك ..

ليست من عادتي ملاطفة من يحاربني لكنّني معجب بفكرك ،ولسانك وأريدك معنا ..فكّر بكلماتي جيدا.

بعد انتهاء هذا الحوار تتجه مرآة المشهد إلى زاوية شبه مظلمة يقبع فيها الشيخ خالد ، وأمامه صحن من الأرز بجانبه صحن آخر يحتوي على حساء ، وقطعة لحم ونصف رغيف خبز فوقه ، مع قدح ماء بجواره . يُسرّح الشيخ خالد ببصره نحو كوّة صغيرة أعلى الحجرة التي تحتويه بعد أن انسكب بين أحضانه رذاذ شفيف من ضياء القمر، وتداعت أمام ناظريه صور ابنتيه زهراء وآية ، وابتسامة زوجته الشفيفة ، وأخذ يخاطب هذا الخيالَ في شغف ظاهر ، وبعينين بدأ رقراق الدمع يزحف نحوهما رويدا رويدا:

– أمّ زهراء ... زهراء ... آية ... هل ترضون أنْ أصبح مثلهم .. أنْ أستغلّ الدين الذي يربط روح الإنسان بخالقه في سبيل تحقيق مصالح دنيوية أثيمة كلّها عدوان وهيمنة وتسلّط .؟ الخالق عنوان للرحمة والمغفرة والمحبّة الذي يراقب أعمالي لهذا أخشى من أن تنحرف كلماتي ، أو أعمالي إلى ما لايرضاه ، فهل هم يؤمنون بهذا الخالق ، أم يؤمنون بخالق آخر يجيز لهم العدوان والقتل والنهب والسّلب باسمه ، ولا وجود لهكذا خالق إنّما هي النفس البشرية التي تتنازعها الشرور، وحبّ الهيمنة والتسلّط والاستحواذ.

هم يريدونني أن أصبح مثلهم أن أؤمن بخالق وهمي من صفاته العدوان والظلم والتسلّط ، ويهدّدونني بكم يا أمّ زهراء ، يا زهراء ، يا آية ، يهدّدوني بحرماني منكم بقتلكم.

تنزل الدموع مدرارة على وجنتي الشيخ خالد فتبتلّ لحيته الخفيفة ، ثم يعود إلى مناجاته ، وحديثه مع الخيال :

– ماذا تقولين يازهراء .. أنت يا آية قولي لي ماذا أفعل .. أمّ زهراء هل ترضين أن أكون مثلهم.؟ هم يريدون اغتيال الله ، وقتله في دواخل القلوب الطيّبة.. هم يريدون استعباد الناس والهيمنة على مقدّراتهم باسم السماء ، ولكنّي إنْ لم أصبح مثلهم سيقتلونكم ، وإنْ فعلوا فما حاجتي إلى الدّنيا بعدكم.

يعود الشيخ خالد إلى البكاء ، وهذه المرّة دوّى بكاؤه ليهزّ أركان الحجرة المحتجز بها ، وبعد ثوانٍ من بكائه المرّ يتناهى إلى سمعه في آفاق الخيال صوت رقيق ميّزه بسهولة .. إنّه صوت آية هذه الطفلة الصغيرة التي لاتكاد الحروف تكتمل في نطقها موجهة الكلام إلي أبيها:

– بابا أنت طاهر ونقيّ مثلي أنا ، ومثل زهراء ومثل أمّي ، ومثل الله الطاهر النقي ، فابقَ على نقائك وطُهرك يا أبي ... ابقَ على نقائك يا أبي .. ابقَ على نقائك.

ينهار الشيخ خالد، ويجثو على ركبتيه ليطلق صرخة ألمّ مدوّية رجّت الافاق الحزينة .

((لا تـأتي العظمـة عنـدما تسـير الأمـور معـك علـى خيـر مـا يـرام ، ولكنّهـا تـأتي عنـدما يـتمّ اختبـارك بحـق ، وعنـدما تتعـرّض لـبعض الضربات وبعض الإحباطات ، وتشـعر بـالحزن والألـم ، لأنّـك لايمكـن أبـدا أن تشـعر بروعـة وجـودك فـي قمـم الجبـال مـالم تكـن فـي أسـفل الوديان .))

ريتشارد نيسكون

يجلس أبو الأسيد مقابل محمّد جابر هذا الرجل الأربعينيّ الانتهازيّ بفطرته المهزوز نفسيا ، وعمل (الحزب) بخبث على توظيف حالته النفسية لصالحه . حاول محمد أن يروّج لنفسه أديبا قاصّا ، وناقدا لكنّ ضعف نتاجه الأدبي جعل الجمهور يحجم عنه ، فلم تلق أعماله قبولا على الإطلاق ، واعتزل التعاطي مع الأدب في نكوص وحقد على المُبَرَّزين والناجحين في ميدان الأدب القصصيّ والنقديّ..

قدّم أكثر من مرّة أوراقه ليُقبل في الدّراسات العليا في قسم اللغة العربية لكنّه يفشل دائما على الرغم من مساعيه غير النزيهة بسبب ضعف معدّل درجاته ، ورسوبه في الامتحان التنافسي..

هو الان مدير مطبعة (الحزب) السريّة التي اتخذت اسم (دار نشر ومطبعة الإيلاف) اسما تعريفيا لها ، وهي لامكان لها ظاهريا فلا أحد يستدلّ على موقعها إلا قلّة من أعضاء الحزب ، ومحمد هو المنظّر لشعارات الحزب ، والمساهم في ضخ الأفكار إلى (القائد) المسؤول الأول في (الحزب) ، وتدور في مخيلة محمد آمال بالبروز ، والتميّز إن نجح (الحزب) في التسلّط ، وأخذ مقاليد الحكم .. يخاطبه أبو الأسيد :

– أستاذ محمّد لقد وافق القائد على طباعة هذه الرواية ..عليك الإشراف على طبعها وتوزيعها بين المكتبات ، واحرص على توزيعها مجانا بين أوساط الشباب في الجامعات والملتقيات الأدبية.....

يقاطعه محمّد : وحتى في المدارس أبو الأسيد حتى في المدارس ، فالأدب دوره كبير وخطير في صناعة تغيير عقول اليافعين ، وميولهم واتجاهاتهم .

أبو الأسيد : أنت أعلم منّي بهذا ، فأنت العقل الثقافي للحزب (قال هذه العبارة الأخيرة وأعقبها بضحكة خفيضة ، ابتسم إزاءها محمد قائلا:)

– يجب الضغط على صالح لإنجاز أكثر من قصّة ، أو رواية هذا العام .. إنّ اسمه لامع في الساحة الأدبية ، ومؤكد أنّ قرّاءه سيتلقّفون نتاجه القصصي ويتأثرون به.

(قصد محمد من كلامه أن يتمّ الضغط على القاص صالح ، وتعنيفه والتنكيل به نفسيا. هنا ردّ أبو الأسيد في خبث واضح :)

– أمَا تحسد صالح على مكانته الأدبية ؟ إنّه يقول عنك أشياء لا أرضاها ، ولو لم نحتجه الان لقطعت لسانه .

فقال محمّد ، وهو يشعر بالحنق والصدمة :

– لقد ظلموني .. ظلموني كلّهم .. مسخوا اسمي اللّامع، وحقدوا على موهبتي الأدبية .. هم يريدون الساحة لهم .. لهم فقط ، ولايهتمّون إلا بمن هو على خطّهم وشاكلتهم .

(استرسل محمد في كلامه ، وقد بان على ملامحه اضطراب شخصيته ، وحالة من الهلع الشديد :)

– هم نعتوني بالفاشل .. رأيتُ هذا في عيونهم، وإنْ لم يقولوه صراحة لي.

تقدّم نحوه أبو الأسيد ليربت على كتفه بعد أن لاحظ على ملامحه حالة الاضطراب النفسي هامسا في أذنه :

– لا تأبه لهم .. أنت عالي الشأن والمقام ، ومادمت معنا سيرضخون لك ، ويكونون تحت أمرك .

الزمان يوم جمعة نيساني مشمس .. المكان شارع المتنبي في بغداد ، ولا تكتمل طقوس يوم الجمعة عند كثير من روّاد الشارع من دون احتساء الشاي العراقي ، ولقاء أعلام الفكر والثقافة في مقهى الشابندر ، ذلك المَعْلَم التراثي الذي يشهد على أكثر من قرن من عمر بغداد بوصفها عاصمة للعراق.

ثلاثة أشخاص في خريف العمر يجلسون في هذا المقهى الشعبيّ ، وبيد اثنين منهم رواية (الملك والرّعية) لصالح أمين .. يُنزل دلشاد نظّارته فاغرا فاهه وهو يطوي الرّواية قائلا :

– ماهذا .. أيعقل أنّ هذه أفكار صالح أمين التي يحملها أبطال هذه الرواية..

فقال عدنان الجالس بجنب دلشاد ، ولم تبرح عيناه صفحة من الرواية التي يقرأها :

– إنّه تغيير جذري في رؤى صالح أكاد لا أصدّق .. أسلوبه في الكتابة نفسه ولكنّ الأفكار والرؤى ليست له .

ردّ دلشاد معترضا : ماذا تقصد بأنّها ليست له .؟ لقد بنى من خلال أسلوبه المعروف هذه الرواية ، فكيف ليست له ؟

– إنّه يصوّر الرّعية الّذين يخرجون عن طاعة الملك بأنّهم جاحدو النعمة وسينالهم العقاب الإلهي ، فلا مجال للاحتجاج على الظلم.

في هذه اللحظة ردّ عمّار الجالس بجنب عدنان على الاثنين:

– لقد قرأت الرّواية قبلكما ، وخرجت بذات الانطباع المرسوم على وجهيكما ..لقد صُعِقتُ ..لا أدري كيف سيستقبل قرّاء صالح هذه الرواية ..انظرا في الصفحة مئة وواحد وعشرين كيف يقول إنّ الملك أدرى بمصلحة الرّعية من أنفسهم .

عدنان : لو كنتُ أعلم أن صالح يبحث عن المال ، ويهتمّ له لقلت إنّ دار النشر هي من أملَتْ عليه أفكار هذه الرواية مقابل مكافأة مالية معيّنة .

التفت دلشاد بعد احتسائه رشفة من قدح الشاي الذي أمامه نحو عمّار مخاطبا إيّاه :

– لقد قرأتُ اسم دار النشر التي طبعت الرواية (الإيلاف) إنّها دار نشر غير معروفة ولم أسمع باسمها من قبل .. أليس كذلك ياعمّار ؟.

– بالتأكيد هذه الدار غير معروفة ، ولم أقرأ اسمها من قبل في أيّ رواية غير هذه .

فعلّق عدنان مقطّبا جبينه : ربّما لهذا السبب أرادت الدار – كونها ناشئة – أن تستقطب قاصّا وروائيا كبيرا كصالح أمين ليكتب رواية على مزاج مسؤول الدّار حتى يحقّق الانتشار بسرعة.

دلشاد : لكنّ صالح أمين لايبيع قلمه عدنان .

– أنا لم أقصد هذا بالضبط .. ربّما كان صالح بحاجة إلى المال فاضطرّ للموافقة.

تدخّل عمّار بين الاثنين ليقطع حوارهما متسائلا :

– رفيقاي العزيزان أنتما ترجمان بالغيب .هل لاحظتما اختفاء صالح أصلا.؟ لقد مضى شهران تقريبا ولم نره ، وكلّما نتّصل به يعتذر بحجج غير مقنعة ، وبعد مدّة لم يردّ على اتصالاتنا إطلاقا.

فأجابه دلشاد ملتفتا نحوه : لنذهب إلى بيته الان ، ونستوضح كلّ شيء.

يذهب الثلاثة إلى بيت صالح أمين ، وبعد أنْ وصلوا رنّ دلشاد جرس الدار ، وماهي إلا لحظات حتى خرجت أمّ مثنّى وفتحت الباب ، والاضطراب بادٍ عليها .. ألقى الثلاثة التحية عليها ، وتساءل دلشاد :

– ماذا هناك أمّ مثنى لقد اتصلتُ بصالح أكثر من مرّة ..هاتفه مغلق دائما.

ردّت أمّ مثنى بارتباك واضح : إنّ أبا مثنى قد سافر خارج العراق في مشروع ثقافي وسيبقى مدّة ستة أشهر حتى يعود.

قال عدنان مستغربا : مشروع ثقافي ؟..لم نسمع أنّ لديه مشروعا ثقافيا ..نحن أقرب أصدقائه ، ولم يبلغنا بشيء ..هل خشي من أن نحسده مثلا .. (وأطلق ضحكة خفيفة).

التفت عمّار نحو عدنان قائلا : يا أخي كيف تظنّ أنّ صالح يمكن أن يخفي عنّا شيئا كهذا .

دلشاد : كيف يمكنني أن أتصل به ، وهو في الخارج.؟

أمّ مثنى : لقد طلب أبو مثنى عدم الاتصال به ، وتَرَكَ هاتفه في البيت مغلقا لأنّ الجهة التي سيسافر إليها هي التي ستوفّر له هاتفا خاصّا يتّصل به .

وسألها عمّار : وهل اتصل بكم ؟

– لا.. إنّه لم يتصل بعد على الرغم من مرور أكثر من شهرين تقريبا على سفره.

– حسنا .. هل تحتاجين أنت ، ومثنّى إلى شيء ما.؟

صمتت أمّ مثنى طويلا ، وهي تنظر إلى الثلاثة بعينين قلقتين كأنّما تريد إخبارهم بمحنتها ، ولكنها قطعت نظراتها لتخبرهم أنّها ومثنّى بخير لتشكرهم كثيرا ، فألقوا عليها التحية وغادروا المكان .. في أثناء العودة تبادل الثلاثة دفّة الحوار الذي يصخب بينهم أحيانا.

عدنان : ماهذه التبريرات من أمّ مثنى.. لم اقتنع بكلمة واحدة مما قالته .. يبدو أنّ صالح على خلاف معها فـ(هجّ) من البيت .

فقال عمّار ضاحكا : أنت دائما لاتحسن الظنّ بالاخرين .

– ليس كما تظنّ .. إنّ في الأمر شيئا غامضا إذا لم تتضح ملامحه قريبا فإنّه ينذر بشرّ كبير .

يجلس جمال أمام جهاز الحاسوب فاغرا فاهه باندهاش ممّا يقرأه من رسالة د.سالم التي وضع فيها منهج الجريدة الجديد تحت تهديد المسلحين ، ثم رفع الهاتف ليتصل بجميع المحررين ويدعوهم لاجتماع عاجل في غرفته ، وبعد التئام الحضور ابتدأ جمال الحديث :

– زملائي لقد حدثت أمور مهمة يجب أن أطلعكم عليها .. اتصل بي د.سالم ، وأبلغني أنّه سينقطع عنّا مدّة عام كامل لظروف خاصة به ، وأوكلني بمهمة إدارة الجريدة ، واليوم صباحا وصلتني رسالة من الدكتور كاتبا فيها جملة من التعليمات.... و.....(يتردّد في الكلام قليلا ، ثم يستأنف الحديث :)

– الحقيقة ماكتبه الدكتور شكّل صدمة لي لأنه سيغيّر منهج الجريدة تماما .

أحمد المحرّر في الجريدة : أقلقتنا أستاذ جمال ما الذي يحصل بالضبط.

حسام محرّر اخر : ماهو النهج الجديد أستاذ .

جمال : يطلب منّا الدكتور أنْ لاننشر شيئا يتعلق بالحريّات والديمقراطية ، وأن نهيّء مقالات ، وحوارات وتحقيقات صحفية تدور حول أهمية المحافظة على العادات والتقاليد ، وتهاجم طبيعة الحياة في الغرب وأمريكا والنظام القائم فيهما و ..... (يقاطعه المحرّر أحمد ضاحكا :).

– وماشأننا بحياة الغرب وأمريكا .. أيعقل أنّ هذه التوجيهات من الدكتور أنت متأكد أستاذ جمال.؟

– قلت لكم إنّ الأمور ليست واضحة أمامي ، وأنا أعرف د.سالم جيدا .. إنّه صاحب مبدأ وقلم حرّ ، فلايمكن أن تتغيّر قناعاته هكذا بمنتهى السهولة .

توجّهت سعاد المحرّرة في الجريدة بالحديث إلى جمال : أستاذ نريد أن نواجه د.سالم ، ونتكلم معه إنّ الذي تقوله لايصدقه عاقل .

– الدكتور سيغيب عنّا سنة كاملة ، ورفض طلبي في أن يحادثكم عبر كاميرا التواصل الاجتماعي .

ردّت سعاد باستغراب : لم أفهم شيئا .

– أنا مثلك لا أفهم ما الذي يجري ، ولكنّه طلب تنفيذ تعليماته من دون اعتراض .

المحرر حسام : أنا أقدم أستقالتي أستاذ يبدو أنّ الجريدة قد بِيعت إلى جهة ما ، ود.سالم ينفذ ما يُطلب منه .

ينهض صلاح – محرّر اخر– ليقول :

– وأنا كذلك أستاذ استقالتي ستكون في مكتبك حالا.

جمال : مهلا ....مهلا دعونا لانأزّم الأمور رجاء .. إنّ الصورة ضبابية كبيرة ، ولست مطمئنّا لما يحدث إطلاقا ...أرجوكم دعونا نفكر أوّلا بطريقة نتمكّن بها من مقابلة الدكتور.

يلتزم الجميع الصمت في إشارة إلى موافقتهم على ماقاله جمال مدير التحرير.

لماذا الشرّ باقٍ ، ويتمدّد في هذه الدنيا .. إنّ الله لايصنع الشرّ ، إنّما الإنسان مَنْ يصْنعه ويُهرول إليه ملتذّا به، ولكن لماذا.؟ أيكون من صُنع الطبيعة حتى تحفظ التوازن على هذه البسيطة.؟ لازال هذا السؤال من دون إجابة مقنعة..

يدخل بضعة مسلحين حجرة الشيخ خالد المحتجز فيها .. تقدّم أحدهم ، وطلب منه مرافقته ليقابل أبا البراء .. ينهض الشيخ خالد متثاقلا ، وعيناه تخبران من يتأمّلهما بما سيدور من حوار ، وما أن دخل إلى مقرّه بادره أبو البراء بالحديث :

– كيف أنت الان .؟

نظر إليه الشيخ خالد بعينين مرهقتين جدّا قائلا له : أريد أن أطمئنّ على عائلتي ... زوجتي وابنتيّ الاثنتين .

ردّ أبو البراء واضعا كفّه على عاتق الشيخ خالد : هم بخير لاتخش شيئا عليهم لقد قطعنا لك وعدا برعايتهم وستزورهم في كلّ حين ، بل ستلتحق بهم معزّزا مكرّما .

– وما هو الثمن ؟

يطرق أبو البراء برأسه ، ثم رفع رأسه مثبّتا عينيه بعيني الشيخ خالد قائلا:

– بداية ليست محمودة .. نحن لانطلب منك ثمنا ، بل قناعة وصدق انتماءٍ لجماعتنا . ربّما تطرّفتَ في عدم فهمنا .. نحن نأمر بالمعروف

، وننهى عن المنكر ، ونطيع الله ونتّبع أوامره ، ولانرضى بالباطل .هذا هو أساسنا وأصل توجّهنا ، وأعتقد أنّك لاتخالفنا في هذا الأساس والأصل ، أمّا إن اختلفنا في أمور فرعية ، فمن الممكن أن نتوافق ، ونتفاهم لنصل إلى حلول وسط أليس كذلك؟

– يا أبا البراء إنّك تحصر كلام الله بما جاء في ديننا ، وهذا قطعا مردود عليك ، فللبشرية أديان ورسل وكتب مقدّسة ، وكلّها من الله .

– هنا أختلف معك بل أتقاطع معك بشدة .. إنّ الدين عند الله الإسلام.

– أنت تعلم معنى هذه الآية . تعلم أنّ معناها الخضوع والاستسلام لإرادة الله الذي رضي بالإسلام دينا لمن آمن برسالة النبيّ محمّد ، وأعلم أنّك ستورد مزيدا من الآيات التي تفسّرها بمنظور واحد يمثل وجهة نظرك المتزمّتة ، ومن هم مثلك .

– هكذا بجرّة قلم تنسف قول الله .؟ ألم يأمرنا الله بقتال الكفرة ، ونشر الدين القويم .؟ ألم يأمرنا بإعلاء كلمته ، ودعوة الناس لدينه ، والإيمان برسوله الأمين .؟

– إنّك، و(الحزب) تتخيّلون إلها مثلكم عنصريا متسلّطا غاضبا متعاليا لارحمة لديه ولارأفة ، وأسهل شيء تعمدون إليه لمن خالفكم هو سفك دمائه ، وهتك عرضه.

تراجع أبو البراء إلى الخلف، ثمّ التفت إلى الشيخ خالد مجدّدا :

– عجبا .. عجبا .هل أنت رجل دين أم ملحد زنديق .؟ كلامك يشبه كـلام الملاحـدة الكفـرة الـذين يـدعون إلـى العلمانيـة ، وماتسـمّى بالديمقراطية...

أمسك أبو البراء بمسبحته وسحب حبّاتها بعنف ، ثم استرسل بكلامه الحادّ معربا عن نفاد صبره ، ويأسه من الشيخ خالد ، وطلب منه تغيير نهجه في خُطبه على منبر مسجده ، واتباع أوامره بالحرف ، وإن رفض الانصياع فسيكون عدوّا للإسلام ويحلّ دمه ، وعرضه .

((مسكينة دُورُ العبادة كم استُغِلّتْ من قبل رجال السطوة لحفظ مصالحهم .. هناك من لايعلم أنّ دور العبادة لو استُغِلّتْ من قبل الظالمين ، فستحصل أعظم الفواجع التي يُسحق بها الإنسان ، (ويصبح الدين شهيدا في سجلات التاريخ).))

د.قيس العطواني

الفصل الثاني

موتُ أزهار الياسمين

قاعة كبيرة في ركن مميّز من الشارع الرئيس لمنطقة الزعفرانية في بغداد .. في كلّ جانب من القاعة تطلّ نوافذ صغيرة تتسرّب من خلالها أشعة باهتة من ضياء وقت العصر لتتمازج مع آهات تنبعث من هذا الركن ، ودعاء يصدح من ذلك الركن ، وآلة التصوير التلفازية الخاصة بالقناة الفضائية للشيخ (أبو الخَنْزَب) الرجل الخمسيني ذي اللحيّة الشقراء المشذّبة ، والعينين الخضراوين والجبين العريض والطول الفارع ، ومُصاحب الجان ومُصارع الشياطين ، والمعالج الروحي ذي القدرات الإلهية كما يدّعي .. آلة التصوير هذه تجول بين النساء بمختلف أعمارهن ، وهنّ يرتدين العباءات السود ..

من بين النساء مَنْ تجلس لِوهنها وكبر سنّها ، ومنهنّ مَنْ تسقط على الأرض ، وترتجف تحت وطأة صراخ أبي الخنزب بثيابه البيضاء ، وغطاء رأسه الأبيض ، ولحيته المشذّبة المخضّبة بالحنّاء ، وعينين تقدحان بالشرر :

– اخرج ياعدوّ الله .. اخرج ياجانّ من جسد هذه المرأة بحق النبيّ ، وأولاده المعصومين .. بسم الله الرحمن الرحيم إنّ الله عزيز ذو انتقام .. إن الله عزيز ذو انتقام ... اخرج ياعدوّ الله .

تطلق المرأة صراخا مدوّيا، والشيخ أبو الخنزب يضع يده على رأسها ويحمل في يده الأخرى عصا غليظة يضرب بها المرأة المسكينة :

– اخرج وإلا سأحرقك ... سأحرقك .. اخرج ياملعون ..

ثم يعود لينهال عليها بالضرب فتتلوّى ، وتطلق الصرخات عاليا .. أخيرا صرخ الشيخ :

– لقد خرج .. لقد خرج .

فجأة سكنت حركة المرأة ، وارتخت ارتجافاتها بفعل الإيحاء النفسي الذي قام به الشيخ بمهارة وحرفة ، فتعالت الصيحات من كلّ مكان :

– اللهم صلّ على محمد وآل محمد .. اللهم صلّ على محمد وآل محمد ...

يقترب من أبي الخنزب أحد معاونيه ، ويلصق رأسه إلى جانب أذنه ليخبره بأمر جعله يفضّ جلسة طرد الأرواح والجنّ ، ويطلب من المنتظرين دورهم كي يعالجهم على يديه الكريمتين المجيء غدا بالموعد نفسه ، ثم طلب من معاونيه أن ينضمّوا إليه بعد أن أجرى مكالمة هاتفية عاجلة ليذهبوا سريعا إلى (الفلّا) مكان إقامته في إحدى ضواحي بغداد الجنوبية ..

يبرز مدخل الـ(فلّا) الضخمة للشيخ أبو الخنزب. إذ يقف عدد من الحرّاس المدجّجين بالسلاح موزّعين في الممرّ الذي يمتدّ على جانبيه شريط من الأشجار الجميلة الباسقة ، ويتلوّى الطريق في امتداده من الباب الرئيس الخارجي حتى باب المدخل . حيث يقف إزاءه الشيخ أبو الخنزب تحوطه ثلّة من المسلحين بعضهم بلحى طويلة ، والبعض الاخر من دونها ، وعلى يمينهم يتلألأ المسبح الجميل والإضاءات الرائعة التي تعكس ألوانها على صفحة مائه الصافية ..

تدخل بضع سيارات مضلّلة سوداء لتشقّ هذا الممرّ الملتوي ، وتحطّ الرحال أمام أبي الخنزب ، وينزل من السيارة المضلّلة السوداء التي توسّطت الموكب أبو البراء ، وزيد ، وعبد الرّحمن ، وبضعة أشخاص ملتحون بدشاديش قصيرة ، وغطاء أبيض على الرأس ويهشّ إليهم أبو الخنزب مُهلّلا ومُرّحبا :

– أهلا أهلا شيخنا الجليل شرّفتنا بمجيئك .

ردّ عليه أبو البراء بابتسامة عريضة بعد أن جالت عيناه بأرض المكان:

– أهلا بك ياشيخ أبا الخنزب كيف حالك.

– بخير مادمت خيمة لنا يا شيخنا الجليل .. تفضّل تفضّل للداخل (قالها أبو الخنزب بحماس شديد).

يجلس أبو البراء ، وأبو الخنزب مع الحاشية أمام مائدة عامرة بما لذّ وطاب من المأكولات ، وأنواع الأشربة ، ويبادر أبو البراء بالحديث والابتسامة تملأ وجهه :

– أبشرنا كيف هو عملك يا أبا الخنزب ؟

يناول أبو الخنزب فخذ دجاج مشويّ إلى أبي البراء رادّا على سؤاله :

– أمورنا في ظلّ رعايتكم بخير دائما .

– لقد سمعتُ بالمهاترات التي جرت بينك، وبين الشيخ الشيباني.

– شيخي إنّه حاقد عليّ ، ويسعى لأخذ زبائني .

– هذا الخلاف ليس بصالح الحزب ، ولا بصالحكما . اسمع لقد اخترت ثلاثين من رجالنا لكي تدخلهم دورة خاصة ويتعلّموا طريقتك في العلاج الروحي ، وبعد أن تنتخب منهم مَنْ تراهم أقوياء الجِنان رابطي الجأش قم بنشرهم في مختلف مدن العراق ليقوموا بمثل عملك وتحت إشرافك ، وهم بدورهم سيعلّمون غيرهم ممّن نضمن ولاءهم لنا ونصرتهم لنا وتنفيذ توجيهاتنا .

ردّ أبو الخنزب ، وقد ارتسمت علامات القلق في عينيه :

– لكنّهم سيزاحمونني في رزقي إنْ فعلتُ ذلك ياشيخي .

– لاتخف سنحمي رزقك ، وسأعطي لك صلاحية أخذ نسبة من أرباح كلّ واحد منهم.. إنّ لنا في توجيهك لتعليمهم وإدخالهم هذه الدورة غايات معلومة.

– هل أستطيع معرفة هذه الغايات شيخي الجليل .

– نريد أن يتعلق النّاس بوهم العلاج الروحي ، وخرافات الجنّ والأشباح والسّحر والعمل .

شعر أبو الخنزب أنّ هذا الكلام يمَسّ ذاته وشخصيّته فقال :

– شيخي إنّك تشكك بقدراتي وتصفها بالأوهام كيف هذا ، وأنت من يدعمني ويشدّ من أزري.

– أيّ قدرات هل نسيتَ نفسك .. إنّك كنت جنديا فارّا من الجيش ، وأنا آويتك وأعطيتك هذا الدور .

ردّ أبو الخنزب بنبرة واطئة ، وواثقة جدّا : إنّك لو لم ترَ في داخلي مقدرة وعزيمة لما أوكلتَ لي هذا الدور .

قهقه أبو البراء بصوت عالٍ قائلا له : معك حق .. معك حق في هذا.. لقد تقمّصتَ الدور بشكل كبير حتى صدّقتَ نفسك بأنّ لديك قدرات روحانية (ضاحكا بعمق) .. لابأس نحن من علّمناك الصنعة أليس كذلك .؟

– أنت وليّ نعمتي، وكلنا فداء للحزب ، وسأنفّذ ماتطلبون ، ولكن شيخي لِمَ تريدون أن يتعلق النّاس بما أسميته وهم العلاج الروحي والجنّ والسحر .؟

– النّاس كلّما زاد تعلّقهم بالغيبيّات ، وقدرة الجنّ ، وقدرة الآخرين على علاجهم بالسّحر والروحانيات كلّما سهلت السيطرة عليهم ، وعلى توجّهاتهم ، وأبعدناهم عن منطقة إعمال العقل والتفكير المنطقي بالأشياء وأبقيناهم على سطحية معتقداتهم حتى لايزعجوننا بالأسئلة الحقيقية ، ولايناقشون أصل طروحاتنا لاسيما إذا غلّفنا هذه الطروحات بطابع القدسية، وارتباطها بالسّماء.

– أنا معك شيخي الجليل ، فإنّني ألحظ أنّ النّاس كلّما اعتقدوا أنّ أمراضهم لاينفع معها الطبّ الحديث ، وأنّ شفاءهم من عِللهم لايتحقق

إلا تحت عباءتي ورُقاي الشّرعية ، وإلا بهداياهم للجنّ كلّما شعرتُ بأنّهم طوع يدي تماما أحرّكهم بمنتهى السهولة.

أطرق أبو البراء برأسه ماسكا بطرف لحيته :

– أبا الخنزب نحتاجك أن تتحكّم أنت ، وطلابك بمصائر أكبر عدد ممكن من الناس .. أن تتحكّم بقراراتهم حتى يلج الحزب في عقولهم ويسيطر عليها تماما . أنت تعلم أنّ مهمتنا جسيمة وتحتاج إلى تظافر كلّ الجهود للاستيلاء على الحكم وإنقاذ الشعب من أيدي مايسمونهم بأصحاب الديمقراطية والحريّة المنفلتة.

ينفعل أبو الخنزب تماهيا مع كلام أبي البراء :

– شيخي إنّ أفكار مايُسمّون بالعلمانيين خطرة على توجّهاتنا إنّها تحاول إفساد الناس وسلبهم من سلطتنا .

يزمّ أبو البراء شفتيه ، ويضيق زاويتي عينيه :

– الحزب يعمل على معالجة هذا الأمر الخطير ، وقد تحرّك بالفعل إنّهم العقبة الكأداء في طريقنا . يجب التركيز على تشويه صورة مايسمّون بالعلمانيّين عبر الطعن في سلوكيّاتهم والمسّ بأعراضهم .. يجب أن ننشر فكرة أنّ العلمانيين ، والمتنوّرين يهدفون إلى إشاعة الزّنا وتبادل الزوجات والإباحية بين المجتمع، فكلّ فرد من هؤلاء القردة الخنازير ديّوث زنديق فاجر عميل للغرب والصهيونية.

****

في فضاء اخر .. يجلس جمال قُبالة جهاز الحاسوب ، وعيناه وحاجباه يعكسان حالة التعجب ممّا يقرأه من رسالة د.سالم :

– ..... والان بعد سنوات مريرة من النضال في سبيل حرية الشعب ، وبعد أن علقت الامال بغد مشرق قوامه الديمقراطية ، والتداول السّلمي للسلطة واحترام الحريات الشخصية كشفت الأحداث أن ماكنتُ أنسجه في مخيّلتي محض أكاذيب وخيالات خدعتني بها كتابات جون ستيوارت ، وإيمانويل كانت ، وروايات سولمون نورثوب ، وجون شتاينبك ...

قرّائي الأعزاء لقد وصلت إلى قناعة في أنّ الخلاص يكمن في عدم التشتّت في الاراء ، وأنّ الانفلات في التعبير عن الأفكار والرّؤى يجلب الفوضى ، ويخلق نزعة التمرّد المفضي إلى الضياع ، وهذا ليس في صالح الوطن والمواطن.. إذ ليست كلّ تجربة في الحريّة ، والديمقراطية يمكن لها أن تلائم البلدان كلّها.. ما أحوجنا إلى من يمنحنا الأمن في هذا الوطن بغض النظر عن الطريقة المتبعة لتحقيقه..ما أحوجنا إلى إشباع الجائع بالخبز لابالشعارات الرّنانة عن الحريّة والديمقراطية .. الصوت الواحد المغرّد أجمل من عشرات الأصوات المتداخلة الصاخبة ، فلتتجه أنظارنا إلى (الحزب) الذي يحميكم ، ويشبعكم ، ويجعل أطفالكم ينامون في أمن وأمان.....

(ما أن انتهى جمال من قراءة الرسالة حتى علا صوته لا إراديا بقوله:)

– غير معقول ...غير معقول... هذا ليس د.سالم على الإطلاق.

يبدأ جمال بكتابة رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى د.سالم:

– مرحبا دكتور كيف حالك .. لقد تلقّيتُ رسالتك المتضمّنة افتتاحية يوم الغد وأنا أتنقّل بين أسطرها اسمح لي أن أقول إنّها تطعن مصداقيتنا بالصميم ، وتصوّرتُ أن شخصا آخر كتبها وليس أنت .. قل لي بربّك ما الذي يجري ، ولماذا لاتدعني أتصل بك وأسمع صوتك .. أرجو إجابتي بأسرع وقت .

يدخل المحرّر(أحمد) ملقيا التحية على جمال ، سائلا إيّاه عن وصول افتتاحية الجريدة التي يكتبها د. سالم، فردّ عليه:

– تعال بقربي ، واقرأ مقالة الدكتور .

وقبل أن ينهي أحمد قراءة المقالة صرخ قائلا : ماذا ..هل تريدني أن أنشر هذا الكلام باسم الدكتور في افتتاحية الجريدة .؟

– وماذا عسانا أن نفعل ...لقد حاولت كلّ جهدي أن أتكلّم مع الدكتور عبر الهاتف وهو يرفض ، وطلب مني نشر هذه المقالة في افتتاحية الغد ، وتغيير نهج الجريدة في كلّ صفحاتها بما يتناقض تماما مع توجّهاتنا .

– يعني هذا أنّك سوف تنشر المقالة ، وتوافقه الرأي.؟

– كيف تقول هذا يا أحمد .. أنا لاأوافقه أبدا ولكنّني أشعر بأن الدكتور سالم مُجْبر على هذه المقالة ومجبر على كلّ ما يفعل .

– مجبر؟ .. ما الذي يجبره أستاذ.؟

بعد نظرة تأمّل عميقة قال جمال : لا إجابة لديّ الان ، ولكن أرى أن نساير الأمرهذه الأيّام ، فرياح القلق والشك أخذت تهبّ في أرجائي ، ولكلّ حادث حديث... انشر مقالة الدكتور كما هي ، واجمع لي المحرّرين يوم غد سألتقيهم التاسعة صباحا .

في اليوم التالي ، ومن على كراسي طاولة الاجتماعات في غرفة د.سالم بمبنى الجريدة بدأ النقاش الصاخب يعلو بين المحرّرين حتى دخل جمال مدير التحرير ، وجلس مبتدئاً الحديث :

– زملائي لقد لاحظتم افتتاحية الجريدة اليوم ، وصدمتكم بالتأكيد كما ستصدم كلّ قرائنا.. على الرغم من ذلك ، فأنا متأكد أنّ هذا التغيير ليس من نسج رؤية الدكتور سالم .. إنّني أعرف الرجل من سنوات عديدة ، ولايمكن أن تكون مقالته الافتتاحية برضا قلمه ..

حسين (محرّر في الجريدة): أستاذ جمال إنّ المشهد غامض لدينا أرجوك فسّر لنا مايحدث بصورة أوضح.

– لامعطيات لديّ الان ، ولكنّني قرّرت تشكيل فريق مكوّن منّي، ومن المحرّرين أحمد وسعاد لنقوم بالتحرّي عن الدكتور ، ونجمع المعلومات عنه ، ونحلّلها وصولا إلى خيط ما يحلّ لنا لغز هذا التغيير .

سعاد (محرّرة في الجريدة) : أستاذ جمال يجب التحرّك ، والاتصال بزملائنا في وسائل الإعلام الأخرى ليقدّموا لنا معلومات ، أو شيئا مفيدا .

– لا أبدا .. لا سعاد .. ما أرجوه من كلّ الحاضرين عدم الحديث إلى أيّ شخص أو جهة ما بما يدور بيننا الان .

سعاد : لقد أفزعتني أستاذ هل تريد القول إنّ الدكتور سالم في خطر؟

– أكرّر ماقلته ليست لديّ معطيات الان ، ولكن لننشر مايبعثه من مقالات بصورة طبيعية ، ولانلفت انتباه أحد بقلقنا ، ومانوي فعله... أحمد وسعاد بعد أن تنجزا مهامّكما في الجريدة أريدكما في اجتماع مغلق عصر هذا اليوم .

بدأت الهواجس ، وغيوم القلق تدبّ في محرّري الجريدة وبين حواراتهم ، وفي أحايين كثيرة يتسرب شيء من الخوف بينهم على حياة د.سالم .. في الموعد المحدّد يجتمع جمال مع المحرّرين أحمد وسعاد في مكتب الدكتور سالم ، وطلب منهما تحرّكا سريعا من عدّة اتجاهات . إذ أسند إلى أحمد مهمّة التوجّه إلى بيت الدكتور في حي أور ، وأن يطرق الباب كأنّه زائر عادي ، وإن لم يخرج أحد يبدأ بالتقصّي عنه عند الجيران لمعرفة أي شيء عنه.

وأسند إلى سعاد مهمّة التحرّي عن مكان (رؤى) ابنة الدكتور في لندن. إنّها تدرس الماجستير في الهندسة الكهربائية بكلية (أمبريال) في لندن

قسم الهندسة الكهربائية، وطلب منها البحث عن أي شيء يؤدي إلى الاستدلال على مكانها .. هنا سألته سعاد مستفسرة :

– أستاذ جمال أليس للدكتور سالم أقارب في بغداد ؟

– ما أعرفه أنّ أقاربه اللصيقين به يقطنون خارج العراق ، وقد هربوا سابقا من حكم النظام السابق كيلا يتمّ اعتقالهم ، فهم معروفون بآرائهم الحرة. أمّا أنا ، فسأذهب إلى الجامعة المستنصرية لأسال عن الدكتور هناك .... إذن صباح الغد نبدأ العمل .

****

يطرق أحمد محرر الجريدة باب دار الدكتور سالم في حي أور بصوت عالٍ بعد أن ضغط على زرّ الجرس عدّة مرّات من دون أن يخرج أحد .. هنا فتح (أبو علي) جار د. سالم باب داره ، فبادره أحمد :

– السلام عليكم حاج .

– وعليكم السلام .. ابني لاتتعب نفسك لن يخرج أحد ، فمنذ أكثر من أسبوع لم نر دكتور سالم .. يبدو أنّه قد سافر.

– كيف علمت حاج .. هل أخبرك الدكتور ، أو أحد ما ؟

– ابني .. قبل أيّام طرق بابي رجل شابّ قال إنّه من أقرباء الدكتور ، وأخبرني أنّ الدكتور بعد انتهاء المؤتمر الذي يشارك به خارج العراق سيسافر من هناك إلى لندن ليبقى مع ابنته لمدّة عام ، وأعطاني مفتاح الباب الخارجي ، ورجا منّي الاهتمام بحديقة المنزل ، وأعطاني مبلغا من المال لتأجيرعامل يقوم بهذه المهمّة .

– ألم يقل لك أين مكان المؤتمر الذي سافر إليه الدكتور ؟

– لا يا ابني ، وأنا لم أسأله .

– من هو قريب الدكتور هذا ياحاج هل تعرف أين يسكن؟ ....هل تعرف أحدا من أقاربه ، فأنا بحاجة ماسّة للقاء الدكتور سالم كونه المشرف على رسالتي في الدّراسات العليا (لقد اخترع أحمد هذه القصة حتى لايثير الشكوك حوله).

– لو كنت أعلم شيئا من هذا لأخبرتك ياولدي .

– طيّب أشكرك.. أشكرك .

****

(إنّ من يُخاطرون بالدخول إلى المجهول هم فقط من سيُمكنهم أن يدركوا إلى أي مدى يُمكن للمرء أن يتقدم.) بدأت المحررة سعاد بترديد هذه المقولة لـ(– ت. س. إليوت) في مبنى الجريدة ، وهي تقلّب بعض الكتب والصّحف الموجودة في غرفة الدكتور سالم ، وتلفت انتباهها صورة حديثة لرؤى ابنة الدكتور ، وهي ترتدي روب التخرّج الجامعي ... اتصلت سعاد بأحد معارفها خارج العراق ، وهو ابن عمّها ثامر الذي يسكن في فرنسا ، ورجته أن يذهب إلى مقرّ الكليّة في لندن التي تدرس فيها رؤى ، ويتحرّى عنها علّه يعثر عليها ، فتكلّمها وتستوضح منها عن حال أبيها...

مرّ أسبوع على حديثها مع ثامر وطلبها منه أن يتحرّى عن كلية رؤى في لندن، وبينما هي منهمكة في تحرير أخبار صفحة (مع المجتمع) التي تحرّرها يرنّ هاتفها فتجيب :

– أهلا ثامر كيف حالك .. ماهي الأخبار .؟

– أهلا بك سعاد ..الان خرجت من كلية إمبريال ، وعندما سألت الإدارة كيف لي أن أجد طالبة الماجستير رؤى سالم لم يتعاون معي أحد من

الموظّفين ، وطلبوا أن أزوّدهم بوثائق عائلية تثبت صلتي بأيّ طالب هنا حتى يزوّدونني بالمعلومات ...

– طيب ثامر أتعبتك معي كثيرا ... لا أدري ماذا أقول سنفكّر في طريقة ما تساعدنا على العثور على ابنة الدكتور والحديث معها ..أشكرك كثيرا ابن عمي.

عصر اليوم نفسه.. في جريدة الحرية يجتمع جمال مع سعاد وأحمد ، ويبدأ الأخير الحديث :

– هناك تفاصيل غريبة أستاذ جمال ، فبعد أن طرقتُ باب دار الدكتور ، ولم يُجب أحد قال الجيران إنّه ربّما سافر ، وإنّ أحد أقاربه أعطاهم مفتاح الباب الخارجي ليعتنوا بحديقة المنزل خلال فترة سفره.

– ألم تسأل عن قريبه هذا ، وأين يسكن ؟

– سألتُ ولم أحصل على جواب .

اعتدلتْ سعاد بجلستها قائلة :

– أنا حاولتُ وسعيتُ لأعرف مكان رؤى ابنة الدكتور لكنّ الكلية التي تدرس فيها طلبت وثائق عائلية تثبت الصلة بأي طالب قبل تزويدهم بأي معلومة .

يطلق جمال تنهيدة عميقة مؤلمة ثم قال :

– لقد أكدت لي إدارة الكلية في الجامعة المستنصرية التي يعمل بها الدكتور عندما ذهبت أسأل عنه أنّه قد انقطع عن الدّوام منذ اسبوعين ، ولايعلمون شيئا عنه . حتى أنّه لم يقدّم طلب إجازة.

أحمد : كيف هذا .. لقد قال لي أبو علي جيران الدكتور إنّ قريبه أبلغه أنّه سيسافر مباشرة بعد انتهاء المؤتمر الذي يشارك فيه إلى لندن للبقاء مع ابنته مدّة عام.

ردّت سعاد بكلمات تشي بالقلق : يشارك بمؤتمر لاتعلم عنه الكلّية شيئا ، ويترك محاضراته ، وطلبته ولايبلغ الإدارة بشيء ؟...أستاذ جمال الدكتور في خطر.

جمال : ذات الشعور أقضّ مضجعي منذ يومين ..نبرة الدكتور ، وهو يتحدّث معي عبر الهاتف .. طريقة كلامه معي في الاتصال الوحيد الذي رفض أن يتكرّر .. التغيير المفاجئ في نهج الجريدة والمقالة الافتتاحية ، وانقطاعه عن الدوام في الكلّية وكلام الجيران ..حجّة السفر المفاجئ والغريب.. أستطيع أن أؤكّد لكم الان أنّ الدكتور في خطر وأنّه محتجز عند جهة ما.

سعاد : يا إلهي فلنبلغ السلطات الأمنية فورا .

جمال : ليس الان سعاد .. ليس الان مادام بالإمكان التواصل مع الدكتور عبر رسائل البريد الإلكتروني ، فليس من المناسب إبلاغ الشرطة ، وسنستمرّ بالتحرّي عنه .. المفترض أنّه سيرسل لنا مقالة جديدة مساء اليوم ، وسأحاول معرفة شيء ما .

****

(أرى نفسي تائها لا أدري أيّ طريق أسلك في حياتي هذه التي سيطرت عليها رياح القلق والخوف والحيرة ، أجد التوتر يملؤني .. أحتاج لمن يضيء لي الطريق لأخرج إلى النور .. كم تمنيتُ لو أن أنتهي ولو بقرار خاطئ .)

هكذا بدأت العبارات تملأ خاطر مثّنى وهاجسه ، وهو يوزّع الخطا الوئيدة في أروقة كلية الهندسة في الجامعة التكنولوجية ببغداد شارد الذهن ، ويكلّم نفسه باستغراق كبير :

– ماذا أفعل الان .. أبي مرّت عليه أربعة أشهر ، وهو محتجز عندهم ولاأستطيع البوح لأحد باحتجازه خشية أن يقتلوه ويقتلوا أمّي .. أعلم أنّني مراقب في كلّ خطواتي داخل الكلية ، وخارجها ..... (يتلفّت شمالا ويمينا باضطراب) ، ولكن إلى متى يستمرّ هذا الأمر ..هل سيطلقون سراح أبي بعد ستة أشهر كما قالوا.؟ هم مجرمون ، وهل للمجرمين كلمة صدق وشرف ؟ ، ولكنّ أبي .. أبي سيضيع منّي يجب أن أفعل شيئا .. يجب أن أتحرّك من دون لفت انتباه أحد .. سأبعث برسالة عبر البريد الإلكتروني ، وأوصلها إلى وزارة الداخلية .. هاتفي قد صادروه ، ولايسمح لي باستعماله إلا بموافقتهم وتحت أعينهم .....

(تبين على ملامح مثّنى علامات الاضطراب الشديد ويواصل حديثه مع نفسه :)

– ماهذا الجنون .. ماذا سأفعل .. هل أخطو هذه الخطوة .. ألا يشكل هذا خطرا على حياة أبي وأمّي. ؟ لا .. لا أعتقد ذلك لو أتممتُ الأمر بسريّة تامة فلن يستطيعوا ملاحظة أنّي بعثت برسالة عبر البريد الإلكتروني .. هيّا مثنّى هيّا أبعدْ هواجسك وأنقذ أباك هيّا.

يدخل مثنّى مكتبة الجامعة الكبيرة ويتوجّه إلى مركز الإنترنت مخاطبا الموظّف :

– عذرا هل يمكنني استخدام الإنترنت لديّ بحث ، وبحاجة إلى معرفة مصادر عنه ، وهذه هويّتي الجامعية .

– نعم تفضّل .

فتح مثّنى موقع وزارة الداخلية على الإنترنت ، ودخل في قسم شؤون المواطنين – شعبة التبليغات .. وبدأ يكتب :

– (إنّي مثنّى صالح أمين أبلغكم بأنّ أبي القاص والروائي صالح أمين قد خطفته جماعة تقول إنّنا من (الحزب) ، وستحتجزه لمدّة ستة أشهر حتّى يكتب قصصا ، وروايات لصالحهم تخدم أفكارهم ، وأهدافهم الرامية إلى السيطرة على الدولة ، وحكمها على وفق تصوّراتهم الإجرامية .. لاأستطيع إعطاءكم رقم هاتفي ، ولاعنوان سكني .. لأنّني خائف على حياة أبي وأمّي . إذ قالوا لي إنّهم سيقتلونهما ، ويقتلونني إن شعروا بأيّ تبليغ منّي أو من أمّي لأحد ما حول هذا الأمر .. فقط أقول لكم إنّني طالب في كلية الهندسة بالجامعة التكنولوجية قسم الهندسة الكهربائية ، وفي المرحلة الرّابعة .. لا أعلم هل تصرّفتُ بشكل

صحيح بإرسال هذه الرسالة ، أم أنّني سألحق الأذى بأبي وأمّي ..إنّني خائف جدا ، وأنتظر إرشاداتكم.)

يضغط على زرّ الإرسال في الحاسبة الإلكترونية ، وما أن حاول غلق واجهة الموقع ، والنهوض حتى شعر بكفّ غليظة تمسك برقبته بشدة ... رفع رأسه وإذا بـ(فاتك) أحد أفراد مجموعة أبي الأسيد ينظر إليه شزرا ، وبغضب شديد قائلا له :

– ما الذي تفعله مثنّى؟

بارتباك شديد ، وفزع قلّ نظيره ردّ مثنى :

– أ .. أ .. أ أ .. لاشيء .. لاشيء أبدا .. كنت أبحث عن مصادر لبحث كلّفني به الدكتور في القسم.

ردّ الرجل بنبرة تشكيك ، ونظرة شزرة بعد أن لاحظ أنّ الموقع في الحاسبة هو موقع وزارة الداخلية :

– حقّا ... طيب لابأس .. انهض سأوصلك إلى دارك .. هناك أخبار طيبة عن أبيك .. ألم تشتق له ؟

ردّ مثنّى ، والرّعب ملك قلبه خشية أن يكون فاتك قد لاحظ صفحة الإنترنت التي فتحها :

– بالتأكيد ..بالتأكيد ..سآتي معك..؟

يخرج الاثنان من الجامعة ، والأفكار تتصارع في رأس مثّنى ، وعينا فاتك تخبّئان حنقا وغضبا كبيرين ، وصعدا السيارة متّجهين إلى منزل صالح أمين ، وبعد وصولهما ينزل مثّنى من السيّارة ، ويلتفت إليه فاتك قائلا :

– سيتصل بكما صالح مساء اليوم ليطمئنّ عليكما .. لاتقلق مثّنى والدك سيخرج قريبا اطمئن ..إلى اللقاء .

في مساء اليوم نفسه .. غرفة الجلوس في بيت صالح .. الأمّ وولدها جالسان مترقّبان لايتحدثان بشيء ، وصورة من القلق والخوف ، وهالة من الذلّ تؤطّرهما لم تكن تتوقّعها أمّ مثنى وولدها ، فبقيا لا ينظر أحدهما إلى الاخر ...فجأة رنّ جرس الباب ، واتجه مثّنى نحوه ، وإذا هم جماعة أبي الأسيد ، ومعهم محمد جابر المسؤول الثقافي في الحزب.. اندفعوا للداخل ، وسحبوا مثّنى معهم ، وأغلقوا الباب ، وطلبوا منه أن يسدل الستائر.. تصدّى أبو الأسيد للحديث ملتفتا نحو مثّنى:

– تعال معي لنجلس في تلك الزاوية لديّ حوار معك .

يجلس مثّنى أمام أبي الأسيد ومحمّد ، وابتدأ الأخير الحوار:

– مثنى أنت شابّ طموح ، ولديك بذرة الثورة .. لقد سألنا عنك في الكليّة وعلمنا أنّك تشارك في التظاهرات دائما .. تظاهرات ضدّ هذه الحكومة الفاسدة العميلة .

أجاب مثنّى بهدوء : أعتقد أنّ واجب كلّ شخص يحبّ وطنه ، وينشد تصحيح الأوضاع الخاطئة التعبير عن عدم رضاه ، فيسعى للضغط لكي تصحّح الحكومة من أوضاعها وتحاسب المفسدين.

أومأ أبو الأسيد برأسه موافقا على كلامه ، ومعقّبا عليه :

– أحسنت.. أحيّي فيك روح الشجاعة والإقدام. حزبنا ، وأنت يلتقيان في هدف مشترك واحد .. نحن نسعى إلى التغيير والقضاء على هذه الحكومة العميلة الفاسدة التي لم تحقّق طموحات الشباب الناهض..

ينظر مثنّى إلى أبي الأسيد نظرة حيرة واستغراب ممّا يقوله لاسيّما مصطلح الحكومة العميلة .. نظرة التقطها أبو الأسيد فقال له :

– أرى في عينيك تساؤلا محيّرا .. أنت الان تعجب من كلامي ، وتقول في نفسك كيف أنّنا وطنيون ونقوم باحتجاز والدك ، ونقتحم عليكم الدّار بهذه القسوة ..أليس كذلك .؟

لم يردّ مثنّى سوى بعينين خائفتين لاحظهما أبو الأسيد مستئنفا حديثه:

– لاعليك أنا قرأتُ هذه الحيرة في عينيك .. لكن اعلم صديقي مثنّى أنّ هذا الهدف المشترك الذي بيننا يحتاج أحيانا إلى أساليب ربّما تُعّد قاسية نوعا ما ، ولكنّها ضرورية لإدامة الزّخم النضالي والوطني ..

تداخل في الكلام محمد المسؤول الثقافي للحزب :

– والدك مثلا قاصّ ، وروائي معروف لكنّه لايعالج في قصصه ، ورواياته مشاكل الشباب ، ولايطالب باقتلاع هذا النظام من جذوره ، وانت تعلم أنّ لوالدك جمهورا واسعا من القرّاء من الممكن أن يؤثر فيهم لهذا ضيّفنا والدك حتى نستثمر موهبته الأدبية لخدمة الهدف المشترك الذي بين (الحزب) وبينك.

حاول مثنّى الاعتراض على هذا الكلام بأنّ أباه لديه مواقف مشهودة في دعوته للإصلاح من خلال تغيير الوجوه الحاكمة ، واختيار الأصلح في الانتخابات ، وهذا واضح حتى في بعض قصصه . لكنّ اعتراضه هذا ولّد تذمّرا لدى أبي الأسيد الذي نهض من مكانه ، ثم دنا من مثنّى قائلا بهدوء :

– إصلاح .. إصلاح ماذا ؟ أنت لاتعي ماتقول .. هذا النظام السياسي الراهن لن ينصلح إلا باقتلاعه من جذوره .

– الاقتلاع من الجذور ..ماذا تقصد ؟

– الثورة المسلّحة هي من تطيح بالرؤوس العفنة .. كلّ مَنْ في هذا النظام السياسي يجب أن يُسحل ويُعلّق على أعمدة الكهرباء .

اقترب محمد من مثنّى ، وقال له بصوت خفيض :

– نحن نريد منك أن تنضمّ إلى (الحزب) ، وسيكون لك موقع قياديّ كبير .. من يدري ربّما تتسلّم منصبا مهما في الدولة إن استولينا على الحكم لتقود الشباب نحو التغيير المنشود.

أحسّ مثنّى بدفق من الشجاعة جعله يردّ بقوله :

– الشعب هو من اختار من يمثله في السلطة ، وهو من سيغيّر من خان عهده معه بالانتخابات النزيهة فقط ..علينا أن نوسع من مساحة الإدراك لدى الناس ونبيّن لهم كيف يختارون مَنْ يمثلهم في النظام السياسي والسلطة بصورة صحيحة ، ولن يكون حمل السلاح إلا مِعْوَلا لهدم التجربة الديمقراطية.

– أهكذا علّمك والدك. ؟... إنّه يلقنك مفاهيم توصلك للخنوع والتهميش في هذه الحياة .(ردّ محمد بحنق شديد) ، فأجابه مثنى بلهجة واثقة ، ونبرة حادّة متجاهلا حقيقة أنّه بين أنياب المسلحين :

– أبي ترك لي مساحة واسعة من حرية التفكير والاختيار .. نحن نعيش الديمقراطية ، فهل (الحزب) يريد السلطة بالسّلاح حتى لو كان الثمن آلاف الضحايا الأبرياء .؟

اصطفّ أبو الأسيد إلى جانب محمد ليردّ على مثنّى قائلا له :

– لن يتغيّر هذا النظام إلا بالسلاح ، والشعب سيلتفّ حول القويّ الذي يحقّق آماله ويهتف له ، ولن يعير أهمية لصناديق الاقتراع .

– لكنّنا جرّبنا مثل هذا التغيير ، وحَكَمَنا القائد القويّ المطلق الصلاحيات ، فتجبّر وطغى ، واحترق بسببه الأخضر واليابس في وطني.

تملّك العجبُ أبا الأسيد وهو يسمع ردود مثنّى ، وعزم على إنهاء الحوار لكنّه في اللحظة الاخيرة قرّر المواصلة معه :

– لمعلوماتك يامثنّى الشعب الان يتوق لمثل هذا القائد يتوق لمن يحكمه بالحديد والنار . لأنه سئم ممّا يدعونها بالديمقراطية والحرية .. ديمقراطية الغرب الكافر.

وأراد محمد أن يدعم حجّة مسؤوله أبي الأسيد :

– إنّنا نختلف عن غيرنا يامثنّى .. شعبنا يختلف عن شعوب الغرب وأمريكا .. أنماط عقولنا لاتشبه غيرها ، ولن نعتاد على الحريّة ومفاهيم الديمقراطية المستوردة من الخارج ..عقولنا لها نظام خاص.

فأجابهما مثنّى بردّ غير متوقّع : إنّ البشر في هذا العالم يشتركون بالجينات الأساسية نفسها إنّما يفترقون طبقا لما يكتسبونه من بيئاتهم ، فلافرق بيننا وبين ماتسمّيه الغرب الكافر الذي قطع أشواطا واسعة في خدمة الإنسانية.

أحسّ أبو الأسيد ومحمد بعدم الجدوى من استمالة مثنّى إليهما ، فأدارا وجهيهما عنه ، وقبل أن يبتعدا التفت أبوالأسيد نحو مثنّى قائلا :

– أنت شاب صغير السنّ ، ولاتعلم أنّ هناك عالما اخر غير الذي ربّاك عليه والدك ... عالم الواقع الذي يستند إلى حقائق السّطوة العادلة لتحقيق الأهداف المشروعة .

وأكمل محمد العبارات بقوله : لقد أفسد أبوك عقلك .

((قهرُ الإستبداد ليس بالأمر السّهل ، ولكن ما يُعَزّينا أنّه كلّما اشتدّ الصّراع قسوة كلّما ازداد النّصر مجدًا .))

توماس باين

تجلس سعاد في بيتها أمام شاشة التلفاز متابعة نشرة الاخبار لإحدى القنوات الفضائية ، وأخذت تتابع خبرا عن إحدى التظاهرات ، وصور المتظاهرين وهم يحملون شعارات مكتوبة على لوحات ولافتات كبيرة ، ويسيرون في مظاهرات احتجاج صاخبة .. فجأة صرخت سعاد قائلة :

– لقد طرأت ببالي فكرة رائعة للعثور على رؤى .

في صباح اليوم التالي تسرع الخطى نحو مقرّ جريدة الحرّية ، وتدخل غرفة مدير التحرير جمال ، وكان المحرر أحمد في مكتبه صائحة :

– لدي فكرة عظيمة أستاذ .

رجعت سعاد خطوة إلى الوراء ، ورفعت رأسها وبدأت تحرّك ذراعها مقلّدة شخصيّة شارلوك هولمز في إحدى حلقات مسلسله الشهير في وقت اتسعت فيه عينا جمال وأحمد تعجّبا واندهاشا ، ثمّ قالت :

– سأطلب من ابن عمّي ثامر الذي يقيم في فرنسا أن يذهب إلى لندن ويحمل لوحة كبيرة يكتب فيها اسم رؤى سالم ، وتحتها جملة : أنا من بغداد ، ويقف بها قرب مدخل الكلية التي تدرس فيها علّها تلاحظه عند دخولها .

وافقها الاثنان على هذه الفكرة الرائعة ، فأسرعت سعاد للاتصال بابن عمّها ثامر ، واتفقت معه على الخطة ، وبعد يومين من الاتصال والاتفاق وقف ثامر في الصباح الباكر بجوار كلية إمبـريال للعلوم والتكنولوجيا والطب قرب بوّابة دخول الطلبة رافعا لافتة كبيرة ممسكا

إيّاها من عمود وضعه في وسطها مكتوب عليها : (– رؤى سالم – أنا من بغداد)..

أخذ ثامر يتلفّت يمينا وشمالا متطلعا في وجوه الطلبة الذين بدأوا بالدخول للكلية بين من يرمقه بنظرة مستغربة ، وبين من يمنحه ابتسامة بلهاء ، أو غير مكترث به ، وهو يرفع هذه اللوحة التي فيها اسم رؤى سالم .....

اعترى ثامر القلق من مغبة مايعمل خوفا من أن يكون وقوفه بهذه الكيفية غير قانوني .. تمرّ أمامه أفواج الطلبة ، ومعظمهم يشعّ من وجهه الاحمرار الباهت المشوب بالحيوية ، وهناك آسيويون وأفارقة ، ووجوه شرق أوسطية تمرّ أمامه ، وهو يقف حينا ، ويجلس حينا اخر على الرصيف عندما تتعب قدماه ، ويسائل نفسه : أينك يارؤى .؟

مرّت ساعة تلتها أخرى مشوبة بالاضطراب ، ثم مرّت الساعة الثالثة ، ولم يطرق لوحته أحد ، أو يسأله شخص ما عمّا يفعل ، ومن هو .. أخيرا يُنزل اللافتة بتحسّر ليقفل عائدا إلى الفندق الذي يقيم فيه ، ثمّ اتصل بسعاد ، وأخبرها عمّا حصل له ، فرجته أن يعاود الكرّة في اليوم التالي ، فربما رؤى لم تحضر لكليتها اليوم لعارض ما ، وقد تأتي غدا .. لم يخيّب ثامر ظنّها ، ففي صباح اليوم التالي قبل أن يدخل أول طالب للكلية كان ثامر موجودا رافعا لافتته ، وهو يتأمّل المدخل والأسوار الخارجية بعيون قلقة ، ثمّ تقاطر الطلاب شيئا فشيئا .. بعد نحو ساعة تقترب رؤى من مدخل الكلية ، وقبل أن تلمح ثامر ولافتته تنادي عليها زميلتها في الدراسة لتدخلها في حوار يتناقشان فيه ، وهما

تسيران حتى وصلا مكان ثامر. لكنّ رؤى لم تلحظه لانغمارها في النقاش مع زميلتها ، فلم ترفع رأسها نحوه ، ومرّت من أمام ثامر ، كنسمة باردة تلمس جبين ثامر وتصافح حروف اللافتة :

(– رؤى سالم – أنا من بغداد)..

فجأة تقترب فتاة زنجية في العشرينيات من العمر من ثامر ولوحته وحيّته. نظر ثامر إلى محيّا الفتاة بعمق ودهشة متسائلا مع نفسه ، هل هذه رؤى ابنة الدكتور سالم .. هل كان متزوّجا من امرأة زنجية ... ثم رجع عن تساؤلاته ليردّ التحية :

– أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .

أجابته بابتسامة خجولة : أنا علياء زميلة رؤى في الكليّة ، ولاحظت اللافتة فأتيت إليك .

فقال ثامر بعد أن تهلّل وجهه : يا مرحبا يا مرحبا ..حظرتك سودانية؟

وردّت الفتاة : أنا صومالية ، وأصبحت مع رؤى في قسم الهندسة الكهربائية منذ أوّل مرحلة لنا في الكلية .

– حقّا .. أين يمكنني أن أجد رؤى.

تلتفت علياء إلى الخلف قائلة : لقد رأيتها قبل دقائق .

– طيّب كيف هو شكلها هل أستطيع أن أرفع صوتي وأناديها.

ترفع علياء يدها مشيرة إلى فتاة تُظهر جانبا من وجهها فقط قائلة :

– إنّها هناك ستدخل باب الكلية ، (وتبدأ بمناداتها :)

– رؤى ... رؤى .(يرافقها صياح ثامر ...رؤى ...رؤى ..)

هنا تلتفت رؤى التي تبدو بعينيها السوداوين الواسعتين ، وظفيرتها السميكة المميّزة التي تسدلها على كتفها الأيمن ، وبشرة وجهها الحنطية تبدو مثل أميرة سومرية .. التفتت إلى مصدر الصوت قبل أن تدخل قدمها عتبة مدخل الكلية ، فتقع عيناها على الرجل ولوحته ، وحروف اسمها ، وكلمة بغداد ، ثم تتّجه إلى الرّجل في الوقت نفسه الذي يتقدّم فيه سائرا إليها ويبادرها بالتحية :

– مرحبا ..مرحبا ..هل أنت رؤى ؟

فقالت رؤى بعينين مندهشتين : نعم أنا رؤى.. من أنت ولماذا ترفع هذه اللافتة ؟

أجاب ثامر ، وقد شعر بارتياح كبير يعمّ أرجاءه ، وكان قد هيّأ عذرا رتّبته معه سعاد في حال لقائه رؤى:

– أنا لديّ دعوة إلى أبيك الدكتور سالم لحضور مؤتمر في فرنسا أمام الجالية العربية ، ولاأملك عنوان سكنه ، وعلمت أنّك ابنته ، وتدرسين هنا فاتبعت وسيلة اللافتة هذه للوصول إليك مع خالص اعتذاري إن كانت طريقتي فجّة .

– لا أبدا لاحاجة للاعتذار ، وأهلا وسهلا بك.. لكنّ والدي ليس في لندن إنّه في بغداد .. ألَم تحاول الوصول إليه هناك ، أو تتّصل به هاتفيا .؟

– في الواقع لا أملك عنوانه ، أو رقم هاتفه في بغداد .

– سأعطيك عنوانه ورقم هاتفه بعد أن أتصل بوالدي .. أعطني رقم هاتفك سأتصل بك لاحقا .

أبلغ ثامر ابنة عمّه سعاد بالتفاصيل ، وسرعان ما اجتمع مدير التحرير جمال مع المحرّرَين أحمد وسعاد .. التقوا بوجوه غائمة قلقة وحائرة ، ثم بادر جمال بالحديث:

– الان أنا شبه متأكد بعد حديث رؤى مع ثامر ابن عمّك يا سعاد أنّ الدكتور سالم مختطف ، أو محتجز عند جهة ما ، وهي تفرض عليه توجّهاتها .

– يا إلهي ما العمل أستاذ ؟ (ردّت سعاد بهلع .)

وعلّق أحمد : أرى أنّ الأمر يجب أن يتخذ اجراء رسميا... يجب إبلاغ السلطات الأمنية.

أومأ جمال برأسه موافقا : نعم الان سأتصل بوزارة الداخلية وأطلعها بكل التفاصيل ، ولكن أكرّر ماقلته : لن نبلغ أحدا غيرنا بخطوتنا المقبلة . سنبلغ السلطات الأمنية ، وهي سترى كيف تعالج الأمر .. لهفي عليك دكتور سالم .

****

يلوح في الأفق مبنى وزارة الداخلية في بغداد .. كان المعتاد في عمل هذه الوزارة أن يعلن العراق خاليا من أعداء النظام الحاكم ، ويأمل العراقيون أن يكون عملها الان إعلان العراق خاليا من أعداء الشعب .

يدخل جمال مدير تحرير جريدة الحريّة المبنى متوجّها إلى مديرية مكافحة الإجرام – مكتب مكافحة جرائم الخطف .. ينهض العميد ضرغام محمود مدير المكتب الرجل الخمسيني ذو الشارب الكثّ ، والوجه المشوب بصفرة خفيفة ، والكتفين العريضين .. ينهض من مكتبه مرحّبا بمجيء جمال :

– أهلا بك استاذ جمال ...

– شكرا جزيلا أستاذ تشرّفنا .

يجلس الاثنان وسط هدوء يستقبله جمال بنوع من الحذر ، ويبادره العميد ضرغام بقول لطيف في محاولة منه لتبديد الوجه الحذر لضيفه:

– ماذا تشرب أستاذ ؟

– شكرا ... أيّ شيء تراه مناسبا .

ابتسم العميد ضرغام بودّ قائلا : قهوة عراقية مناسب لك .؟

يبادله جمال ذات الابتسامة بارتياح كبير: اختيار طيّب جدا.

العميد ضرغام : منذ اتصالك بالدائرة ، وتحويل مطالعتك إلى مكتبي وأنا أراجع أعدادا من جريدة الحريّة .. المقدم شجاع الذي زارك في مقرّ الجريدة قدّم للدائرة تقريرا وافيا عن اختفاء الدكتور سالم ، ومن المؤكّد أن هناك علاقة مباشرة بين الجريدة وبين اختفائه لأنّ الدكتور حجرعثرة أمام مشاريع كثيرة لجهات تريد استغلال أجواء الديمقراطية، والحرية للهيمنة على السلطة ، والتمكّن من رقاب الناس والدولة .. هذا يخدم جهات أجنبية عديدة .

– أستاذ ضرغام .. أنا وكلّ الصحفيين ، قلقون على حياة الدكتور سالم ، ومالنا غير الدولة ومؤسّساتها الأمنية وسيلة للتحرّي عنه وإنقاذه.

العميد ضرغام : لا أخفي عليك إنّي أشاركك القلق تماما لاسيما أنّنا نمتلك معلومات أوّلية عن وجود حراك مشبوه من جهة معيّنة ، وشكاوى من عمليات ابتزاز تقوم بها تجاه عدد من الإعلاميين لشراء أقلامهم ومواقفهم. لقد شكّلتُ فريقا لتحليل كلّ المعطيات ، والتحرّك فورا لعلّنا نحصل على خيط يدلّنا على أوّل الطريق ، وأجدد شكري على المجهود الذي بذلته في التحرّي عن د.سالم ومن ثم إيصال المعلومات إلينا .

– كان هذا جهد المحرّرين أحمد وسعاد ، وكنت معهم عاملا مضافا .

أجابه العميد ضرغام بابتسامة رضا وإعجاب . قاطعا الوعد على العمل فورا ، وبذل كلّ الجهود لإيجاد د. سالم بأسرع وقت ممكن.

عقد العميد ضرغام في دائرة مكافحة جرائم الخطف اجتماعا مع فريقه الأمني المصغّر .. متحدثا أمام ثلاثة معاونين :

– زملائي بعد اطّلاعكم على ملفّ اختفاء الدكتور سالم رئيس تحرير جريدة الحريّة ، وقيامنا بالتحرّك الأوّلي أريد أن أسمع اراءكم واقتراحاتكم.

انبري المقدّم شجاع المعاون الأول ذو الشارب الكثّ ، والوجه الدائري المشوب بصفرة الذي يوحي مظهره بالجدّية دائما انبرى للحديث :

– سيدي علينا أوّلا الاستمرار بمتابعة الحساب الإلكتروني لمدير التحرير ومراقبة هواتف العاملين في الجريدة بصورة سرّية ، ويجب التوجّه إلى لندن ، ومقابلة ابنة الدكتور سالم هناك ، فمن الضروري التعرّف على ماتملكه من معلومات بعد ما أخبرنا به أستاذ جمال مدير تحرير الجريدة.

أومأ العميد ضرغام برأسه موافقا : نعم ، وأيضا لنوفّر لها الحماية المطلوبة ..سأطلب من خلال الوزارة مخاطبة السّفارة العراقية لكي تنسّق مع السّلطات الأمنية البريطانية حتّى توفر حماية كافية لابنة الدكتور سالم على وفق المعلومات والمعطيات التي لدينا .

تنحنح الرائد علي بسحنته التي تميل إلى الطيبة ، وهذا ماشكّل مفارقة ودهشة عند كلّ من يعلم أنّه ضابط شرطة يعمل في مكافحة الإجرام قائلا :

– سيّدي عملية التحرّي التي أجريناها على دار الدكتور سالم وسؤال جيرانه لم يزد عمّا أخبرنا به أستاذ جمال مدير التحرير ، والمقالة الأخيرة بعد الاختفاء أُرسلت من موقع للإنترنت في مكان عامّ ،

والمقالات التي تلتها من مواقع مختلفة في العاصمة ، فمن الصعب علينا تحديد مكان الإرسال.

ثمّ اعتدل بجلسته النقيب مصطفى الشابّ ذو السنوات الثماني والعشرين، والجسد الرياضي بشاربه الأشقر ، وشعره المائل إلى اللون البني الغامق قائلا :

– سيّدي أمامك مجموعة من مقالات د. سالم قبل اختفائه وبضعة منها بعده ، وعندما اطلعنا عليها وجدنا البون شاسعا بينهما في الموضوع والاتجاهات ... الرجل تحت قبضة جهة سياسية تحمل طابع العنف والتشدّد .

وافقه العميد ضرغام في كلامه طالبا من الجميع التركيز على العبارة التي وردت في مقالة د.سالم بعد الاختفاء يقول فيها (فلتتجه أنظارنا إلى (الحزب) الذي يحميكم ويُشبعكم ، ويجعل أطفالكم ينامون في أمن وأمان ...) ، ثمّ أسند صفحة وجهه إلى قبضة يده قائلا :

– لايمكننا أن نضع دائرة حول أيّ جهة سياسية من دون دليل واضح المعالم .. إنّ أيّ اتهام نوجهه من دون أدلّة سيجلب إلينا المتاعب . مجسّاتنا الان تعمل على التقاط أيّ حراك مشبوه وأنا شدّدت على عيوننا في كلّ مكان أن يسجّلوا أيّ حدث مهما كان هامشيا يتعلّق باختفاء الدكتور سالم ، ويبلغوننا إيّاه .. إذن لنواصل العمل.

****

ينفتح المشهد على بيت الروائي صالح أمين من جديد ، فبعد أن وقف فاتك على رأس مثنّى ، وهو يبعث برسالة التحذير إلى موقع وزارة الداخلية الإلكتروني عبر الإنترنت في الجامعة أصرّ فاتك على اصطحاب مثنّى إلى البيت قائلا له: إنّه سيتمكّن من الحديث مع أبيه عبر الهاتف عندما يأتي ليزور بيتهم مع قائد المجموعة المسلحة أبي الأسيد مساء ، وأنّه ممنوع من الخروج من البيت حتى مجيئهم .

في المساء حضر فاتك مع أبي الأسيد ومحمد المسؤول الثقافي لـ(الحزب) ، وحاول محمد وأبو الأسيد إقناع مثنّى بالانضمام إلى (الحزب) لكنّهما فشلا، فأبلغ محمد أبا الأسيد أن لافائدة ترجى من الحديث مع مثنّى في هذا الشأن .. في هذه اللحظة نهض أبو الأسيد من مقعده متّجها إلى أمّ مثنى قائلا لها :

– ستأتين معي أنت ومثنّى لرؤية صالح ، وتطمئنّا عليه حتى لاتبقيا بقلق ، وهو أيضا يريد أن يراكما ويطمئنّ عليكما.

ردّت أمّ مثنى بوجه ممتنّ : ألف شكر أخي .. ألف شكر .. هل نأخذ معنا أشياء معينة قد يحتاجها أبو مثنّى .. ملابس .. طعام .

أجاب أبو الأسيد ضاحكا : لا ليس هناك حاجة ، فكلّ شيء متوفّر لصالح اطمئنّي .

تنطلق سيارة أبي الأسيد ، ومحمد تتبعها سيارة تقلّ أمّ مثنى وولدها .. تدخل السّيارتان منطقة فيها بنايات متفرّقة بدت لمثنّى أنّها لمعامل متروكة ، ثم ولجتا شارعا فرعيّا ، حتى دخلتا في ساحة مليئة بالسيّارات

الخردة. وقفت السّيارتان أمام بناية كبيرة ، وأطلق أبو الأسيد منبّه السيارة ورمّش بإضاءتها ، ففُتح الباب الكبير وسط البناية ، ودخلت السيّارتان ..

بينما مثنّى ووالدته ينظران إلى المكان المليء بقطع غيار السيارات ، وبعيونهم الخوف الشديد.. نزل أبو الأسيد من سيّارته ، وتحت الإضاءة الخافتة اتّجه فجأة إلى مثنّى ، وقام بسحبه من السيارة بقوّة ، وأسقطه على الأرض وسط صراخ أمّه التي عالجها أحد المسلّحين بلكمة أدمت وجهها ، وبدأ مثنّى بالصّراخ ، فاتجهت إليه فوهة مسدّس أبو الأسيد قائلا له :

– اصمت وإلا أفرغتُ هذا المسدّس برأسك ، ورأس أمّك ..

ثم سلّمه هاتفه الذي أخذه منه سابقا ، وطلب منه أن يفتح بريده الإلكتروني. تعرّق جبين مثنّى ، وأخذته الرّعدة محدّثا نفسه:

– لقد تحققت أسوأ مخاوفي .. إنّ فاتك قد لمح موقع وزارة الداخلية على شاشة الحاسوب عندما بعثت برسالتي التحذيرية قبل أن أغلقه .

ثمّ رفع مثنّى رأسه نحو أبي الأسيد متسائلا بيأس :

– لماذا .. لماذا ..؟

فردّ أبو الأسيد بنبرة متوعّدة : لِمَ أنت خائف وترتعش بشدّة. هل في بريدك الإلكتروني شيء تخشى أن نجده فيه ..؟

أجاب مثنّى وهو يمسح عرق جبينه : لا أبدا .. أبدا أنا أخبرتُ فاتك أنّني كنت أراجع مصادر لبحثي العلمي في موقع الإنترنت في الجامعة ... ألم تقولوا إنّنا سنتحدّث مع أبي وسيتّصل بنا ؟

أمسك أبو الأسيد بشعر مثنّى ، وشدّه إليه بقوّة صارخا بوجهه :

– هل مصادر بحثك لها علاقة بموقع وزارة الداخلية .. افتح بريدك الإلكتروني حالا.

يخرّ مثنى على ركبتيه من هول الصدمة ، ويفتح بريده الإلكتروني في هاتفه ليأخذه فاتك ، ويسلّمه إلى أحد رجال أبي الأسيد الذي قلّب رسائل البريد الصادر ليجد رسالة مثنّى التي كتبها إلى وزارة الداخلية عبر موقعها ، فأراها لأبي الأسيد الذي استشاط غضبا شديدا لكن بالكاد كتم بركان هذا الغضب مخاطبا مثنّى :

– هل يعلم أحد بما كتبتَه .. هل أبلغتَ أحدا ما بأمرنا غير هذه الرسالة .. إنْ لم تعترف يامثنّى ، فإنّك سترى هذه السّكين الكبيرة التي بيد فاتك تستقرّ حتما في قلب أمّك .. اعترف .. تحدّث هيّا ..

يرفع مثنّى رأسه ، وهو يحلف بأغلظ الأيمان أنّه لم يتكلّم مع أحد حول الأمر وأنّه فقط كتب هذه الرسالة .. تمتم أبو الأسيد بعد أن أشاح بنظره عنه قائلا له بنبرة فيها الكثير من الغيظ المكتوم :

– هل أنت متأكد ؟

مثنّى : نعم أقسم لك بكلّ الأيمان لم أبلغ أحدا بشيء.

التفت أبو الأسيد نحو مثنّى، وماكان منه إلا أن يوسعه ضربا مبرّحا بمشاركة أفراد المجموعة المسلحة ، وأمّه تنظر إليه ، وعويلها ودموعها يملآن المكان متوسّلة أن يتركوا ابنها حتى عالجها أحدهم بضربة على رأسها من أخمس بندقيته ، فسقطت مغشيّا عليها ..

نظر مثنى إلى أمّه بعينيه المملوأتين بالدّماء الضاجّتين بالعويل الصاخب والألم الممضّي ، وسرعان ما رانَ عليه صمت مخيف .. حتى صمته بدأ يضجّ بالصراخ ، والاحتجاج على ظلم الانسان لأخيه الانسان .. يكاد يشقّ صمته آفاق الكون في سؤال كبير :

– أين عدالة السّماء .؟ كيف ترضى بهذا الظلم والآهات المستديمة التي تخرج من أعماق النفوس الطيّبة الحزينة ، وسرعان ما انفجر صمته صراخا مرعبا مناديا :

– أمّي .. أمّي ..

ثمّ انطفأت عيناه برصاصة أطلقها أبو الأسيد في رأسه ليرنو على المكان الصّمت الثقيل ..التفت أبو الأسيد نحو فاتك ، وأنفاس الغضب لمّا تهدأ فيه قائلا له :

– اقتلوا المرأة ، وتخلّصوا من الجثّتين حالا ، وخذوا حذركم ..هيا انطلقوا .

****

كم هو ضعيف هذا الإنسان إلى درجة وصوله إلى ظلم الآخرين ، واغتصاب حقّ الحياة .. ظلمُ الاخرين فعلٌ يختاره المنتمي إلى المجموعة البشرية ، ويتبنّاه ليخرّب معنى الحياة ، ومؤكد أنه يجد المتعة في ممارسة هذا الفعل ، ولكنّ السؤال الكبير : هل سيدوم هذا الظلم.؟ ، وهل سيفلت الظالم من العقوبة الكونية .؟

قبل حدوث جريمة قتل أمّ مثنى وولدها يهرول النقيب مصطفى إلى غرفة المقدّم شجاع وبيده رسالة مثنّى قائلا له:

– سيدي هذه رسالة حوّلها إلينا موقع الوزارة.. إنّها قضية اختفاء لأديب ، واحتجازه مشابهة لاختفاء الدكتور سالم.

– ماذا .. دعني أرى الرسالة .

يقرأ مقدّم شجاع الرسالة التي وجّهها مثنّى ابن القاص صالح أمين إلى موقع وزارة الداخلية ، وبعد تأمّل بالغ أسرع من فوره إلى العميد ضرغام الذي أخذ بقراءة الرسالة بتمعّن ، وحوله المقدّم شجاع والرائد علي والنقيب مصطفى ، ثم التفت إليهم قائلا :

– الجهة التي خطفت الدكتور سالم هي نفسها التي خطفت الأديب صالح والغرض مشترك هو أن يصادروا إبداعهم لخدمة أغراضهم السياسية الدنيئة وتوجّهاتهم الملعونة .. هاهو الخيط الأوّل يقع بأيدينا.

ووجّه حديثه إلى الرائد علي والنقيب مصطفى :

– اعملا الان على استحصال الموافقات القانونية كي تذهبا إلى كلّية الهندسة وتلتقيا مثنى ، وأخبراه أنّه بأمان وأنّ الداخلية ستنقذ أباه ، وماعليه سوى اتباع تعليماتنا التي نوصلها إليه ، وإن لم تجداه تحت أيّ سبب كان خذا عنوان سكنه من الكلية ، واتصلا بي حتى ننفّذ خطة لمراقبة بيته .

في اليوم التالي حضر الرائد علي ومعه النقيب مصطفى إلى كلية الهندسة ولم يجدا مثنّى فيها ، فأخذا عنوان سكنه ، وانضمّ إليهما المقدّم شجاع واتجهوا نحو بيت القاص صالح أمين ليراقبوا الوضع ويجمعوا المعلومات .. بعد نحو نصف ساعة مرّت سيّارتهم بجانب البيت ، وأخذ الرائد علي بالتقاط صور عديدة له من داخل السيارة ، وبعد وصولهم نهاية الشارع ركَنَ الرائد علي السيّارة جانبا في الشارع العام ، وأخذ الثلاثة يتفحّصون الصور ، وعلّق المقدم شجاع بالقول :

– لا شيء غير اعتيادي يظهر من خارج البيت ..هذه الصور لاتفيدنا بشيء. لقد لمحتُ محلّ تسوّق بجوار البيت سأذهب إليه ، وأحاول أن أجمع بعض المعلومات.. انتظرا هنا .

ذهب المقدّم شجاع ماشيا إلى محل التسوّق ، وبعد وصوله سأل صاحب المحلّ ، وهو رجل ستيني يرتدي دشداشة بيضاء من دون غترة ولاعقال .. بعد أن ألقى المقدّم شجاع التحيّة على صاحب المحل طلب مشروبا غازيا ، ثم فتح حوارا معه مدّعيا أمرا يصلح لفتح هذا الحوار :

– لقد علمتُ ياحاج أنّ البيت الثالث الذي على الجانب الأيسر من محلّك معروض للبيع هل تعلم شيئا عنه.؟

صاحب المحلّ : تقصد بيت أبو مثنّى .. بيت الأديب .

– نعم هو نفسه .

– لا أبدا لم أسمع أنّ أبا مثنّى قد عرضه للبيع .

– لكنّني سمعت أنّه قد عرضه للبيع ..هل هو موجود ، أو أحد من أهل الدّار يمكنني التحدّث معه ؟.

– حسب ما أبلغتني به أمّ مثنّى أنّ الأديب مسافر خارج العراق لحضور مؤتمرات ، وندوات أدبية ولقد مرّ يومان لم أرها ، ولم أر ابنها مثنّى .

– أتقصد أنْ لا أحد في البيت الان .

– ربّما .. لأنّني لم أرَ أحدا منهما .

– طيّب سأذهب ، وأطرق الباب علّي أجد أحدا في الدار .

ضغط المقدم شجاع على زرّ الجرس المثبّت إلى جانب الباب الخارجي لبيت القاص صالح أمين عدّة مرات من دون إجابة ... فرجع إلى صاحب المحل :

– فعلا حاج يبدو أن لا أحد في الدّار ..طيّب ألم تلاحظ حالة ما ، أو أمرا مريبا في الدار ؟.

– ابني هل أتيت لتشتري البيت ، أم تتحرّى عنه ؟.

بَهُتَ المقدّم شجاع من كلام صاحب المحلّ ، وأحسّ أنّه تسرّع في كلامه الأخير، فحاول تدارك الأمر :

– لا أبدا حاج إنّما قصدت أنّك ربّما لاحظت مايدلّ على أنّ صاحب الدار قد عزم على بيعه .

–لا ابني أبدا لم ألاحظ شيئا ، ولم أسمع أنّ أبا مثنّى قد قرّر بيع البيت.

يعود المقدّم شجاع إلى رفيقيه ، ويبلغهما بماتحصّل عليه من معلومات وقرّر إبقاء النقيب مصطفى لمراقبة البيت ، والرّجوع إلى دائرة الأمن ، وتوضيح مجريات الأمور إلى العميد ضرغام الذي أمر بأخذ الموافقات القضائية لإصدار أمر بتفتيش بيت صالح أمين فورا ..

وصلت القوات الأمنية برفقة العميد ضرغام ، وفريقه الأمني مع مختار المنطقة إلى البيت الذي كان خاويا من ساكنيه .. في هذه الأثناء أبلغ أحدُ الفلّاحين السّلطات بعثوره على جثتين مدفونتين في أطراف حقله عندما ضرب معوله تراب الأرض ، فأشاحت الضربة التراب عنهما ، وتمّ إبلاغ السلطات الأمنية.. في صباح اليوم التالي نشر مكتب مكافحة جرائم الخطف بلاغا إلى الجهات الصحية ومراكز الشرطة ،

ومعهد الطب العدلي يتضمن وصفا للهيأة والعمر لأم مثنّى وولدها ، وسرعان ما جاء الخبر الصاعق على العميد ضرغام بوجود جثتين تحملان ذات الوصف الذي عمّمه المكتب في معهد الطب العدلي ، وتمّ التعرّف عليهما من قبل أهالي المنطقة التي يسكن فيها القاص صالح .. إنّهما جثّتا أمّ مثنّى ، وابنها الوحيد الطالب الجامعي مثنّى ..

****

في جانب آخر سمح أبو البراء للشيخ خالد بالعودة إلى منزله ، مبقيا أفراد عائلته قيد الاحتجاز حتى يبقوا ورقة ضغط عليه بعد أن اتفق معه على أن يغيّر من نهج خطبه من على منبر الجمعة ، ويقول في خطبه مايطلبه الحزب من آراء وتوجيهات يبلغه بها أبو البراء ، وأن يخبر أقاربه وجيرانه – إن سألوا عن غيابه – بأنّه كان في زيارة إلى أهل زوجته في ديالى ، وأنّه ترك عائلته هناك كي ترعى زوجتُه والدتَها المريضة ..

يطرقُ المقدّم شجاع يرافقه النقيب مصطفى دار الشيخ خالد بعد أن أبلغ الأهالي سلطات الشرطة بعودته ، وفتح لهما الشيخ خالد الباب ، وبعد أن عرّفا بنفسيهما رحّب بهما ودعاهما للدخول :

بادر المقدّم شجاع بالحديث: حمدا على سلامتك شيخ خالد.

– الله يسلمك .. أنا كنت في زيارة لأهل زوجتي في ديالى ، وعندما عدتُ أخبرني الجيران أنهم اتصلوا بالسّلطات الأمنية متوهّمين أنّي لست على مايرام ، فأعتذر عن إزعاجكم .

بصورة مباشرة يسأله المقدّم شجاع مثّبتا نظراته في عينيّ الشيخ خالد :

– أين عائلتك.؟

ردّ الشيخ خالد بنبرة واهنة بطيئة ، وبعينين لم تستطع أن تثبت أمام عينيّ المقدّم شجاع بأنّ أمّ زوجته مريضة جدا ، فبقيت أمّ فاطمة زوجته لترعاها ، وأبقتْ أطفالها معها.. هنا واجهه المقدم شجاع بسؤال مباشر :

– ماهي معلوماتك عمّا جرى في بيتك يوم الاثنين الساعة الثامنة مساء.؟

بَهُتَ الشيخ خالد ، ثمّ قال في تردّد واضح :

– لاشيء حضرة الضابط ..لا أتذكر أنّ هناك شيئا مهمّا قد حدث في ذلك اليوم .

المقدّم شجاع : لكنّ تحرّياتنا ، والمعلومات التي وصلتنا تقول غير ذلك ... لقد شاهد أحد الجيران مجموعة مسلحة تقتادك وعائلتك في مساء يوم الاثنين قريبا من الساعة الثامنة ، وسمع أصوات صراخ وتعنيف تنطلق من منزلك ، وعندما حضرت الشرطة إلى بيتك ، وجرت عملية التفتيش ذكرَتْ في تقريرها أنّها لاحظت أطباق طعام منقلبة ، وآنية كبيرة منكفأة كأنّها تعرّضت للرّكل ، وأشياء أخرى مبعثرة ، فلماذا تكذب ياشيخ ؟

ينظر المقدّم شجاع إلى النقيب مصطفى الذي بادر الشيخ خالد بنبرة حادّة :

– اسمع .. إنّك تتستّر على عملية خطف لزوجتك وطفلتيك ، وكنت مختطفا معهم ، فأخبرنا بأيّ شيء وعَدوك ، أو على أيّ شيء اتفقت معهم حتى يطلقوا سراحك ، وأين عائلتك الان .؟

هنا أطرق الشيخ خالد برأسه ، وغمامة الحزن تلفّه لفّا عندما ارتسمت صور أطفاله وزوجته في مخيلته كأنّهم ورود في خميلة غنّاء ، ولم تنفع محاولات الضغط التي مورست عليه في استنطاقه وجعله يبوح بالحقيقة ، وكأنّما فقد الإحساس بالعالم الخارجي ، فخاطبه المقدّم شجاع بنبرة حانية محاولا استمالته :

– شيخ خالد أنت رجل فاضل ولقد تحرّينا عنك ، وعلمنا كم أنت إنسان قويم تنشد الخير للناس ، وتعمل على إشاعة روح التسامح والمحبة والوئام في المجتمع من خلال منبرك الديني ، ونعلم أنّ هذا لايروق لكثير من المتاجرين بالأديان.. خذ هذا رقم هاتفي ، فمازال هنالك متّسع من الوقت لتفكّر في إطلاعنا على حقيقة الأمور ، وسنمرّ عليك يوم غد في الجامع لنلتقيك بعد انتهائك من خطبة الجمعة ، أتمنّى حينها أن تكون قد راجعتَ حساباتك جيّدا ، وأذكّرك نحن لن نسامحك لو تستّرت على أيّة معلومة أمنية .

تمضي الساعات سراعا في جامع الشيخ مفيد بإطلالته التراثية القديمة المحبّبة للناظرين .لقد حانت خطبة الجمعة .. يجلس الشيخ خالد على

الكرسيّ في المنبر قبل أن ينهض ليلقي خطبته الثانية بين الناس تصافحهم عيناه المتلألئتان المليئتان بكم هائل من التساؤلات ، والمخاوف مستغرقا بحوار النفس :

– ياترى ماذا سيقولون عنّي إن شعروا بتغيّر نبرة خطابي إليهم .. سيشعرون حتما أنّني أخدعهم .. كنتُ أنمّي الروح الإنسانية فيهم ، أقول لهم إنّ الله هو المحبة .. هو التسامح هو العدل .. كيف لي الان أن أغيّر هذه الصورة الجميلة.. يريدون منّي أن أقول لهم : إنّ الله في ديننا هو المعاقِب هو المنتقم الجبّار يصطفي أناسا من دون غيرهم يكونون أخلّاءه وأحبابه ، ويمنحُهم حقّ التسلط على رقاب عباده .....

بدأ الحاضرون بالهمهمة ، والتساؤل لتأخّر الشيخ خالد عن النهوض لإلقاء الخطبة ، وقد لاحظ الشيخ خالد هذا الأمر ، فتوكّأ على جانبي الكرسي ناهضا ليواجه المصلّين ، فظهر خيال شفيف من خلفهم انبرت فيه ابنته الصغيرة آية طفقت تناديه:

– بابا .. ابقَ نقيّا للأبد .. إنّ الله يحبّك ، فابقَ حبيبا لله .. بابا .. ابق نقيّا للأبد.

(فغر الشيخ خالد فاهه مغالبا دموعه صائحا في قرارة نفسه: يا إلهي..يا إلهي)

هنا يدخل زيد ومعه عبد الرّحمن بين صفوف المصلّين بتكليف من الشيخ أبي البراء لكي يتأكّد من تنفيذ الشيخ خالد لأوامر الحزب بتغيير نهجه وتوجّهاته في الخطبة الدينية ..

أومأ زيد لشخص بعيد عنهم بإشارة معيّنة تحرّك إزاءها ليتخذ مكانا في الجلوس قريبا من منبر الشيخ خالد .

في الوقت نفسه تسلّل المقدّم شجاع ، والرائد علي والنقيب مصطفى بين الصفوف ، فمنذ آخر لقاء أجراه المقدّم شجاع مع الشيخ خالد ، وهم يراقبون هاتفه وكلّ حركاته . إذ باتوا في شبه يقين أنّ عائلته محتجزة لدى جهة ما ، وأنّه يخفي هذا الأمر خوفا على حياة عائلته ، وربّما يكون هو نفسه مستهدفا في أيّة لحظة.

تمالك الشيخ خالد نفسه لينهض متثاقلا كي يبدأ الخطبة الثانية بعد أن لاحظ أنّ الحاضرين استبطؤوه ، وبدأوا الهمهمة بشأنه ، وجال بصره بين الحاضرين وحمد الله وشكره ، ثم قال :

– إنّ الإنسانيّة تواجه اليومَ ظلماً كبيراً ، ظلماً وجبروتا كبيرين، يتسبّب به قومٌ لئام ، أماطت الأحداثُ والوقائع عنهم اللثام ، يجرّون الضغائن، ويزرعون بذور التفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، فرأينا أحداثا تُفتعَل، وأدوارا تُمثَّل وتُنتحَل، إفكا وافتراء، واتِّهاما وادِّعاء ، وغطرسة وغرورا، واستبدادا وفجورا يؤدّي إلى العنف ، وانعدام الأمن وانتشار الخوف واختلال الأوضاع في كثير من الأصقاع والبقاع.

انتبهوا أيّها الحضور إن هناك من يريد أن يتعامل مع الاخرين معاملةَ السيّد للمَسود والقائد للمَقود ، وتفرض سياسة المصالح لا القيم ، سياسة لا تحكم بالسويّة والعدل ، وتستغلّ الدّين واسم الله ، والله منهم براء لفرض الهيمنة على رقابكم بعد أن يفرّقوا بينكم على أساس الدين

والعقيدة ، ويكّفروا أبناء الوطن حتى تتشتّتوا ، ويسهل عليهم فرض القيود ومصادرة حرّية الاختيار التي منحها الله لكم .....

فيما يواصل الشيخ خالد خطبته بدأ زيد بالتململ والتأفّف بشدّة ، وأخذ عبد الرّحمن ينظر إلى زيد بترقّب كمَنْ ينتظر منه أمرا مستعجلا لينفّذه ، وواصل الشيخ خالد الحديث :

– هؤلاء إنّما يريدون إفشاء مشاعر العداوةِ والبغضاء والعنف والتجاهل ، فتراهم مع الأسف يُظهرون ذلك بدافع الجهلِ والتعصّبِ والقسوة ، أو بدافع التفاخرِ وإظهار القوّة ، والنزعة نحو السّلطة ، فتحدث الفُرقة والتنازع بين أسرٍ ومجتمعاتٍ وأوطان.

أقول لكم : إنّ الثبات على المبدأ الإنساني الحقّ في مواجهة الضغوط والصعوبات المختلفة هو الشعار الذي ينبغي أن يتحلّى به الإنسان المؤمن في هذه الحياة ، فالإنسان بطبعه يرتاح لرضا الآخرين الصالحين عنه ، فمتى ما عاش في محيط اجتماعي راضٍ عنه كان ذلك سببا لراحته النفسية .....

هنا علت نبرة الشيخ خالد بصوت التحدّي ، وبالوجه الصارم استأنف حديثه :

– .... وأنا راحتي النفسية في رضا الله ورضاكم ، فمهما ساوموني على الحقّ لن أنثني عنه قيد أنملة ، ولو كان الثمن حياتي.

شعر المقدّم شجاع وزميلاه بهمهمة من هنا وهناك ، وبأجواء بدت أنّها غير مريحة لاسيّما أن كلام الشيخ خالد ينذر بشيء خطير تهامس به المصلّون ، فأخذوا يلتفتون شمالا ويمينا ، وواصل الشيخ خالد الحديث:

– إخوتي وأخواتي أدعوكم للتلاحم والأخوّة والتمسّك بالعروة الوثقى. أقول لكم : المسلم أخ للمسيحي ، واليهودي ، والصّابئي ، وغيرهم من أصحاب العقائد والديانات ، وأخ لمَنْ له دين ومَنْ ليس له دين .. المسلم العربي أخٌ للمسلم الأعجمي ، فكلّ بعنق الله دمه وعرضه وماله .....

(وقبل أن يكمل أخر عبارته نهض أحد الجالسين من رفاق زيد الذي كان في الصفّ الأمامي ، رافعا السلاح الرّشاش بوجه الشيخ خالد صائحا :)

– الله أكبر .. الله أكبر .. خذها لأجل الله ياعدوّ الله.

يطلق الرجل من سلاحه الرّشاش وابلا من الطلقات أصابت الشيخ خالد في مختلف أنحاء جسده ليسقط مضرّجا بدمائه وسط صيحات الحاضرين وهلعهم ، وينهض المقدم شجاع ورفيقاه مهرولين نحو الشخص القاتل شاهرين أسلحتهم وسط الصراخ ، وهروب الناس متفرّقين متدافعين في كلّ جانب ، وواجه المقدّم شجاع القاتل ، وأمره بإلقاء السلاح لكنّه انطلق مهرولا نحوه مبادرا بإطلاق النيران عليه ، فسقط المقدّم شجاع مصابا بكتفه ، وانسحب إلى الحائط الجانبي ، واقترب منه القاتل يريد أن يجهز عليه ، فما كان من النقيب مصطفى

القريب من المقدّم شجاع إلا الردّ على النيران بوابل من الطلقات ، ولكنّه شعر بدفعة قويّة من الخلف أخلّت بتوازنه ، فسقط على الأرض بعد أن أصاب الرجلَ المسلّح بإطلاقة في ذراعه ، واشرأبّ الرائد علي موجّها مسدسه نحو القاتل وأطلق عليه الرّصاص بالوقت نفسه الّذي قام به المقدّم شجاع برفع سلاحه ، وإطلاق النيران على القاتل فأصاباه بإصابات قاتلة ..

ينسحب زيد وعبد الرّحمن من المكان بسرعة، وينهض المقدّم شجاع متحاملا على جراحه ، واتجه مع الرائد علي والنقيب مصطفى نحو الشيخ خالد الذي مازال بأنفاسه الأخيرة ، وهو يلهج بذكر أفراد عائلته:

– أمّ زهراء..زهراء ..آية .. لقد بقيتُ نقيّا كما أرادني الله ، ومثلما أردتموني.

يمسح المقدّم شجاع جبين الشيخ خالد مخاطبا إياه :

– شيخ خالد .. مَنْ أطلق عليك النار .. مَنْ .؟

ردّ الشيخ خالد بصوت وئيد ، وأنفاس متقطّعة وبعينين مغلقتين بالكاد استطاع فتحهما :

– عائلتي .. انقذوا عائلتي .

المقدم شجاع : أين هي عائلتك .. أين هي ، ومن أطلق النار عليك ؟

بالكاد تخرج الحروف من فم الشيخ خالد : اختطفها ... أبو البراء وجماعته ، وهو من أمر بقتلي .

المقدم شجاع : من هو أبو البراء .. أين مكانه .

لم يسمع المقدّم شجاع هذه المرّة ردّا من الشيخ خالد.. لقد أغمض عينيه للأبد.....

أسرع زيد للاتصال بأبي البراء مبلغا إيّاه كلّ التفاصيل ، فأمره بالتخلص من عائلة الشيخ خالد قائلا له :

– اسمع مادام أفراد الأمن كانوا موجودين في الجامع ، وجابهوا شهيدنا بالنيران فإنّ لديهم علما بما تجري عليه الأمور .. من المؤكّد أن خالد قد أبلغهم عنّا ..

زيد : وبِمَ تأمرنا يا شيخي .؟

أبو البراء : قم أنت وعبد الرّحمن بالتخلّص من عائلة الشيخ خالد فورا ، ولاتبقي لهم أثرا ..

(لقد انقلبت آفاق الكون ، وصرخت النجوم ثكلى ، وعصفت الرياح كأنّها براكين مجنونة لتضجّ السّماء حزنا على موت أزهار الياسمين..)

((السّؤال الحقيقيّ ليس ما إذا كانت هناك حياة أخرى بعد الموت ..
السّؤال الحقيقيّ هو: هل كان الميتُ على قيد الحياة قبل الموت؟.))

أوشو (بتصرّف)

الفصل الثالث

صراخُ العدالة

حينما تشتد الأوجاع ، وتتراكم الآلام وتكبر مثل كرات الثلج الضخمة لن نجد أيّ علاج فاعل غير دواء الصبر على الشدائد حتى تعود النفوس من غربتها وشتاتها .. ربما نتفق على أن التعب أخذ منّا مأخذه ، ولم يعد في القلب مكان لجراح جديدة ، ولكنّ الصمود كفيل بأن نعود إلى الميدان عمالقة من جديد.

بعد الجريمة المروّعة التي ارتكبتها مجموعة أبي الأسيد التابعة لـ(الحزب) بقتل أمّ مثنى زوجة القاص صالح أمين ، وابنه الوحيد مثنّى عقد وكيل وزارة الدّاخلية اللواء مازن حميد اجتماعا في مديرية مكافحة الإجرام – مكتب مكافحة جرائم الخطف بمعية العميد ضرغام، وفريقه الأمني بعد أن التحق به ضابط الأمن المقدّم ياسين الرجل الذي قارب الأربعين من العمر بلون وجهه القمحي ، وشاربه الخفيف ، وثبات نظراته الثاقبة التي تطمح في الولوج سريعا في أتّون العمل ..

يجلس المقدّم شجاع بجنب العميد ضرغام ، وقد رُبطت ذراعه اليمنى إلى مستوى كتفه بحمّالة طبية بعد إصابته بطلقة في كتفه في المواجهة التي حدثت بين مجموعته الأمنية ، وبين أحد أفراد مجموعة زيد التابعة لأبي البراء الذي أطلق النار على الشيخ خالد في الجامع وأرداه قتيلا..

لقد أصرّ المقدّم شجاع على العودة إلى مقرّ عمله في وزارة الداخلية رافضا اتمام علاجه ، ولم يقبل أن يأخذ إجازة مرضية لأنّه في سبيل الواجب والمبادئ يضحّي بروحه كما قال أمام وكيل الوزير والعميد ضرغام في مخاطبته إيّاهما بعد أن طلبا منه الانسحاب من الاجتماع ، وأخذ إجازة إجبارية كي يكمل علاجه لاسيّما أنّ المقدّم ياسين قد التحق

بالفريق الأمني بدلا عنه.. إذّاك اقترح العميد ضرغام على وكيل الوزارة أن يبقى المقدّم شجاع في الفريق الأمني على أن يمارس مهاما إدارية تتعلّق بالقضايا الجنائيّة التي يعمل عليها المكتب حتى يمتثل للشفاء التامّ ، وأن يُنسّب المقدّم ياسين للالتحاق بفريقه بعد إطلاعه على تفاصيل القضايا الجنائية التي يتولّى المكتب التحقيق بها من كلّ جوانبها ، فأجابه الوكيل :

– لك هذا عميد ضرغام ، واعلم أنّ كلّ امكانات الوزارة نضعها بين أيديكم ، وملفّ القضايا التي تعملون عليها يتابعها السيد وزير الدّاخلية باهتمام شديد ، وينتظر منكم النتائج السّريعة الفاعلة للقبض على الجناة كائنا من يكونون.

ترتسم في وجوه جميع أفراد الفريق الأمني إمارات العزيمة والإصرار ، والتفت العميد ضرغام مطالعا الوجوه قائلا :

– الان سنتناول آخر ماتوصّلنا إليه من معلومات في القضايا الجنائية التي نعمل عليها ، ونحقّق فيها. ماذا لديكم الان.؟

انبرى المقدم شجاع للحديث : سيّدي بعد أن أخبرنا الشيخ خالد قبل وفاته أنّ الذي خطف عائلته ، وأراد منه أن يتطرّف في خطابه الديني هو أبو البراء ، وكان ثمن رفضه الانصياع لهم هو اغتياله في الجامع ، أتممنا تحضيراتنا ونحن جاهزون للتحرّك وتنفيذ أوامركم ..

التفت العميد ضرغام إلى الوكيل محدّثا إيّاه :

– سيّدي لقد تمّ استحصال الموافقات القضائيّة الأصولية ، وتم تجهيز فريق الاقتحام مثلما أمرتَ ، وسنتحرّك لدهم جامع أبي البراء ، ومقرّه بحثا عن أيّ دلائل تقودنا إلى مصير عائلة الشيخ خالد.

الوكيل : نفّذوا أمر الاقتحام الليلة ، وأطلعوني على التفاصيل والنتائج أوّلا بأوّل . (صمت لبرهة ثم استأنف حديثه :)

– ماذا بخصوص اختطاف القاص صالح ومقتل عائلته.؟

طلب الرائد علي الإذن بالحديث : سيدي لقد تحرّكنا على الأماكن التي كان يحضر فيها القاصّ صالح لاسيّما في مكانه المعهود شارع المتنبي ، وبعض المكتبات ، وعلمنا أنّ هناك رواية حديثة للقاصّ صالح صدرت بعد اختفائه بستة أشهر تقريبا ، وقام النقيب مصطفى بالتحرّي عن هذه الرواية ، وهو سيتحدث عمّا توصّل إليه.

تناول النقيب مصطفى طرف الحديث : لقد استطلعتُ الآراء حول هذه الرّواية من المقرّبين للقاص وكلّهم أجمعوا على غرابة موضوعها ، وأنّ مساراتها ليست من نسيج أفكاره وخطّه المعروف عنه .

العميد ضرغام : تماما مثلما يفعلون مع د.سليم الذي يجبرونه على كتابة مقالات تخدم أغراضهم ، ولاتنتمي إلى أفكاره ومتبنيّاته.

ثمّ وجّه العميد ضرغام كلامه إلى العضو الجديد في الفريق الأمني المقدّم ياسين طالبا منه الوقوف :

– تابعْ مع الفريق الأمني تفاصيل القصّة التي أصدرها القاص صالح ، ومن أيّ دار نشرٍ صدرت ، ومن أوصلها لهذه الدار.؟ ..أريد النتائج خلال ٢٤ ساعة .

يومئ المقدّم ياسين برأسه مع صوت هادر : أمرك سيّدي .

وطلب المقدّم شجاع الكلام : سيّدي فيما يتعلق بقضية د.سالم .. تحرّياتنا مستمرّة وأعيننا منتشرة في كلّ مكان ، ونأمل في الوصول إلى خيط يمكّننا من معرفة مكان احتجازه بأسرع وقت ممكن ..

يتنفّس وكيل الوزارة بعمق وحرارة ، ويتوجه بحديثه نحو العميد ضرغام والفريق الأمني :

– إخواني مقتل الشيخ خالد ، واختطاف عائلته لرفضه الانضمام إلى عصابة الشرّ ، وعدم قبوله بأن يضع يده بيد من يريد خداع الناس بالشّعارات الدّينية للهيمنة على عقولهم ، كذلك تغييب القاص صالح وإجباره على تغيير نهجه القصصي لغسل دماغ الشعب ، وحدوث الجريمة البشعة بمقتل زوجته وابنه ، ومن ثمّ اختطاف الصحفي د.سليم ،واستغلال قلمه في الأغراض الشريرة يفرض علينا التحرّك بسرعة وقوّة.

سرّح وكيل الوزارة بنظره بعيدا وصمتَ قليلا ، ثمّ استرسل في الحديث معربا عن خشيته من وجود مختطفين آخرين ينتمون لمعارف ، وحلقات متقدّمة من الثقافة والعلوم لكن لايعلم عنهم شيئا .. لذلك وجّه بوجوب التأكيد على تنسيق تبادل المعلومات مع كلّ الأجهزة الأمنية في داخل وزارة الداخلية وخارجها ، وأعلن أنّه سيكتب مطالعة إلى وزير الدّاخلية

الذي يتابع العمل عن قرب حتى يكون على اطّلاع تامّ باخر التطوّرات ، ومجريات الأمور .

تحرّك الفريق الأمني بقيادة العميد ضرغام بعد استحصاله على مذكرة إلقاء قبض بحق أبي البراء ، ومذكرة تحرّ عن عائلة الشيخ خالد تصحبه مجموعة الاقتحام الخاصة التي يقودها العقيد (مسلم) الذي تفاجأ عندما علم أنّ الجهة المقصودة بالاقتحام هي جامع أبي البراء مقرّه الأوّل ، والأماكن الملحقة به ، ولم ينتظروا حصولهم على عنوان مقرّه الثاني حيث بيته الفخم في حي العدل ببغداد .

في الطريق نحو الجامع أجرى العقيد مسلم اتّصالا هاتفيا معيّنا ، وبعد وصول فرقة الاقتحام إلى المكان المقصود طلب العقيد مسلم من أفراد فرقته عدم دخول أيّ شخص إلى الجامع كونه مكانا مقدّسا كما رأى ، وتوجّه إلى العميد ضرغام قائلا له :

– سيّدي سأدخل أوّلا إلى الجامع لمقابلة أبي البراء والتفاهم معه . إنّ المكان جامع مقدّس له حرمته ، وأخشى من إثارة الرأي العام.

اعترض العميد ضرغام بشدّة على موقف العقيد مسلم قائلا له :

– الرأي العام .؟ ماذا تقول .؟ إنّ لديّ مذكرة قبض وتحرّ قضائية ، وإنّ عدم اقتحام المكان الان ربّما يؤدي إلى ضياع الأدلّة ، وهروب المطلوب للقضاء ، وهذا عصيان للقانون وانتهاك للعدالة .

– سيّدي لوائح الاقتحام التي زوّدتنا بها وزارة الداخلية صريحة .. يجب عدم التعدّي على الأماكن المقدّسة ، ووجوب احترامها ، وأنت لم تبلغني أنّنا سنقتحم هذا المكان إلا قبل التحرّك من الثكنة بدقائق .

شعر العميد ضرغام بعدم الارتياح للعقيد مسلم ، وردّ عليه بنوع من الحنق والأعصاب المشدودة :

– لا أريد أن أجادلك الان أمام أفراد الأمن ، ولكنّ عدم اقتحامنا المكان الان سيضيّع علينا فرصة المباغتة ، وأنت تعلم هذا جيّدا .

ردّ العقيد مسلم ببرود : أنا لديّ تعليمات بوجوب احترام الأماكن المقدّسة.

العميد ضرغام : أعلمُ بهذه التعليمات لكنّها لم تقل بعدم اقتحام أيّ مكان يوجد فيه مطلوب للقضاء حتى لو كان جامعا .

واقترب منه أكثر مثبّتا عينيه في عيني العقيد مسلم مستأنفا حديثه :

وكم من مسجد أصبح مسجد ضرار(*) .. أنا أحمّلك المسؤولية

(*) المسجد الضرار هو مسجد قد بُني لأبي عامر الذي كان يقال له أبو عامر الراهب ، ولم يُبنَ لأجل فعل ما أمر الله به والنبيّ محمد كما ورد في الرّوايات بل لغير ذلك ، فأمر النبي محمد بهدمه وقد هُدم ، فسمّي كلّ مسجد بُني مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى ، أو بمال غير طيّب مسجد ضرار.

الكاملة بأيّ تلكّؤ في هذه المهمّة .

بان الإحراج والتردّد على العقيد مسلم لكنّه بقي مصمّما على موقفه :

– سيّدي سأدخل أوّلا لأستأذن مسؤول الجامع .

فأجابه العميد ضرغام بحدّة لسان : أنا مسؤول هذه الحملة الأمنية ، وآمرك بتنفيذ أمر الاقتحام فورا أفهمت .؟

يبتعد العقيد مسلم ويتنحّى جانبا ليقوم باتصال هاتفي استمرّ دقائق معدودة . ازداد بعدها حنق العميد ضرغام ، فاتّجه إلى العقيد مسلم قائلا له :

– ماذا تفعل عقيد مسلم بحقّ السّماء .. إنّك تعطّل مجرى العدالة بتصرّفك غير المسؤول . اسمعني جيّدا إنْ لم تنفّذ الأوامر سأتصل بوكيل الوزير ، وأطلب تشكيل مجلس تحقيقي بشأنك.

فجأة يأتي اتصال هاتفي بجهاز النداء إلى العميد ضرغام من مكتب وزير الدّاخلية يطلب منه الانسحاب فورا من المكان بأمر الوزير ، فما كان منه إلا الإنسحاب وسط غضب وذهول كبيرين ، ونظرات يملأها الشرر رمى بها العقيد مسلم ، وهو يمرّ من أمامه .

بعد عودة العميد ضرغام إلى مقرّ مكتب مكافحة جرائم الخطف في وزارة الدّاخلية . شرع بكتابة مطالعة إلى وكيل الوزارة يبيّن بها بالتفصيل ماجرى لفرقة الاقتحام ، وأخذت الشكوك تراوده فيما حصل اليوم، وأخذ يسائل نفسه :

– أيعقل أن يكون الوزير متواطئا مع القتلة .؟

من ثمّ اتصل بوكيل الوزارة طالبا مقابلته ليقدّم المطالعة له رسميّا.

في صباح اليوم التالي .. همّش الوكيل على مطالعة العميد ضرغام بتشكيل مجلس تحقيقي بحق العقيد مسلم قائد فرقة الاقتحام في وزارة الدّاخلية ، ثمّ رفع سماعة الهاتف ليتصل بمكتب وزير الدّاخلية ، ويطلب مقابلة الوزير فورا ، وماهي إلا دقائق حتّى طلب الوكيل من العميد ضرغام الذّهاب معه لمقابلة وزير الدّاخلية ، وهناك استمع الوزير للتفاصيل من وكيل الوزارة ، وقد كان يعلم مسبّقا بتصرّف قائد فرقة الاقتحام ..

رفع الوزير نظّارته ليوجّه الحديث إلى الاثنين :

– لا أخفيكما سرّا لقد اتصلتْ بي جهة سياسية كبيرة ، وقالت إنّ الشيخ أبا البراء رجل معروف بتقواه ومساندته للدولة وله مريدون كثر ، وجامعه يؤمّه الالاف ، وإنّ مسألة القبض عليه ستولّد ردود أفعال خطيرة قد تهدّد السلم الأهلي ، والتهمة الموجّهة إليه كيدية ، حتّى أنّ فرقة الاقتحام ربّما ستُتّهم بانتهاكها لحقوق الإنسان وحرمة الأماكن المقدّسة ، ثمّ ماهو الدّليل الذي استندتم إليه لتوجّهوا التهمة إلى الشيخ أبي البراء .

التفت الوكيل إلى العميد ضرغام طالبا منه بيان الدليل الذي تحصّل عليه مكتب مكافحة جرائم الخطف ، وتمّ تقديمه له في وقت سابق .

العميد ضرغام : سيادة الوزير .. لقد ذكر الشيخ خالد للفريق الأمني قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أنّ أبا البراء هو من أمر بقتله ، وهو من خطف عائلته ، وتمّ تدوين شهادات الضباط قضائيا .

تململ الوزير من ردّ العميد ضرغام رادّا عليه :

– نحن لانعتقل الناس ونتّهمهم من دون أدلّة مادية ، فهل تملك دليلا مادّيا غير كلام الشيخ خالد الذي لاتتضح خلفايته تماما.؟

فأجابه العميد ضرغام : سيادة الوزير إنّ هناك أمرا قضائيا ملزما بالقبض على أبي البراء والتحرّي عن عائلة الشيخ خالد المختطفة.

هنا أخذ الوكيل دفّة الكلام من العميد ضرغام موضّحا للوزير أنّ مواجهة دامية قد حدثت في جامع الشيخ مفيد استشهد فيها الشيخ خالد ، وكانت هناك معلومات غير مؤكّدة عن خطف عائلته ، وسقط على إثر المواجهة المقدّم شجاع من الفريق الأمنيّ لمكتب مكافحة جرائم الخطف جريحا ،وعاد العميد ضرغام ليتسلّم دفّة الحديث مرّة أخرى قائلا :

– إنّ موقف الشيخ خالد المبدئي والوطني لم يرُقْ لأبي البراء ، ومن يقف معه لذلك أمر بقتله ، وهذا المخطّط ينفّذونه مع كلّ المؤثرين في الحياة الاجتماعية ، وأنّ الجهة التي تدخّلت في قضيّة تنفيذ الأمر القضائي بحق أبي البراء هي نفسها التي تقف خلف عمليات الخطف الممنهجة هذه.

اعترض الوزيرعلى هذا الكلام بشدّة ، ونظر شزرا إلى العميد ضرغام طالبا منه ألّا يسير خلف الشائعات والحملات السياسية المغرضة ، وبدأ يُغلظ الكلام له ، ويتهمه بالتقصير في حماية المدنيين ، وتلفيق التهم لهذا الطرف السياسي أو ذاك.. شعر الوكيل بأنّ جوّ النقاش قد احتدم ، وخشي على العميد ضرغام من غضبة الوزير، فتدارك الموقف قائلا :

– سيادة الوزير أرجو أن تعذر حماسة العميد ضرغام فإنّ الرأي العام بدأ باللغط ، وإثارة الاتهامات للوزارة بالتقصير بعد مقتل الشيخ خالد واختفاء عائلته ، ومقتل عائلة القاص صالح أمين ، واختطاف الأستاذ الجامعي والصحفي د. سالم ، وهذا ليس بصالحنا أبدا .

أطرق الوزير برأسه محاولا الابتعاد عن أعين محدّثَيه ، وبعد لحظات صمت مقلقة رفع رأسه مبلغا إياهما بأنّه سيبعد العقيد مسلم من قيادته لفرقة الاقتحام ،وسينقله إلى مكان آخر، ولاداعي لتشكيل مجلس تحقيق بحقه لأنّه نفّذ أوامره وحسب ، وسيعيّن بدله قائدا جديدا .

ارتسمت على وجه العميد ضرغام إمارات الذهول ممّا يسمعه .. إنّ شكوكه بالوزير كانت في محلّها .

((الدنيا مكانٌ جميل يستحقّ القتالَ من أجله.))

أرنست همنغواي

بعد خروج العميد ضرغام، من اللقاء الّذي جمعه بوزير الدّاخلية، أقسم علـى نفسـه تنفيـذ الأمـر القضـائي بإلقـاء القـبض علـى أبـي البـراء ، والتحرّي عن عائلة الشيخ خالد ، وفي مساء اليوم التالي التقى الفريق الأمني المشترك ، وكلّ فرد منهم يستعدّ لاقتحام جامع أبي البراء حيث مقرّه الأول ، وكذلك اقتحام منزلـه الكـائن فـي منطقـة حـيّ العـدل بعـد حصولهم على عنوانه من الجهات السّاندة ..

ارتـدى الجميـع القمصـان الواقيـة مـن الرصـاص والّشـظايا ، وأعـدّوا مسدسـاتهم وبنـادقهم الآليـة لينطلقـوا مـع أفـراد فرقـة الاقتحـام بعـد أن انقسمت الفرقة قسمين الأوّل بإمرة العميد ضرغام ، ومعيّة القائد الجديد للفرقة العقيد أسامة . أمّا القسم الاخر يقوده المقدّم ياسين برفقة نائب قائد الفرقة ، ولم تمض سوى نصف ساعة تقريبا حتى وصل الفريق الأوّل إلى جامع أبي البراء ، وقام عدد من أفراد الفرقة بتطويق الجامع ، ومراقبة مداخله الجانبية ..

في حين وثب عدد آخر بتوجيه من العقيد أسامة ليتسلّقوا سياج الجامع ، ويفتحـوا البوّابـة الرّئيسـة مـن الـدّاخل بعـد أن طلبـوا بهـدير أصـواتهم المرعبة من الحرّاس نزع أسلحتهم ، فدخل الفريق الأمني للعميد ضرغام والعقيد أسامة ، وبقية فرقة الاقتحام الجامع مسرعين شاهرين أسلحتهم ومتوزّعين بين الأروقة ، والممرّات ، وفتحوا كلّ الأبواب المغلقة لمقرّ إقامة أبي البراء الواقع خلف الجامع لينتهي المشهد بالقبض على ثلاثة عشر رجلا كانوا موجودين ، ولم يكن من بينهم أبو البراء.

وقف العميد ضرغام أمام هؤلاء الرجال ، وجال بصره بينهم .. موجّها سؤاله إليهم بنبرة حادّة مع حركة بدرت من يده اليمنى تماهت مع حدّته:

– أين أبو البراء .؟

ردّ الجميع بعدم وجوده في الجامع ، ولم يره أحد منذ مساء أمس حتى نهار اليوم ، وأنّهم حرّاس وموظفون في الجامع ، فأجابهم العميد ضرغام بسؤال اخر :

– من المسؤول عن الجامع .؟

أجابه رجل حليق الذّقن يرتدي بنطال جينس وقميصا أزرق ، بشعر مسرّح ومرتّب ، ومنسدل بالكاد يخفي بقعة مائلة إلى السّواد تتوسّط جبهته :

– أنا سيّدي .

نظر إليه العميد ضرغام بارتياب قائلا : لايوحي شكلك بأنّك مسؤول جامع.؟

فأجاب الرجل : أنا المسؤول الأمني والمدبّر لشؤون الجامع.

– ما اسمك .؟

– عبد الرّحمن .

(نعم إنّه عبد الرّحمن رجل المهمات القذرة التي يعتمد عليه زيد مساعد أبي البراء في تنفيذها ، ولم تتزل عينا الرائد علي من النظر إليه طوال حديثه مع العميد ضرغام .)

– أين أبو البراء .؟ (سأله العميد ضرغام بنفاد صبر)

– الشيخ أبو البراء غير موجود سيّدي منذ يوم أمس .

علّق العميد ضرغام بنبرة تهكّم واضحة : الشيخ .. امممممم .. طيّب ألا تعلم بمكان وجوده الان .. أنت المسؤول الأمني ، ومؤكد لديك علم بوجوده .

– لقد تناهى إلى سمعي أنّه يروم السّفر إلى خارج العراق ، ولا أعلم أسافرَ أم لا .

في هذه الأثناء يأتي اتصال عبر جهاز النداء إلى العميد ضرغام من قبل المقدّم ياسين يبلغه بعدم عثورهم على أبي البراء في مقرّه الثاني بمنزله الكائن في حيّ العدل ، وأنّه وجد بضعة حرّاس فقط في المنزل ، فطلب منه العميد ضرغام القبض على الحرّاس وجلبهم للمديرية والانسحاب بعدها من المكان ، ثمّ التفت إلى فريقه الأمني طالبا منهم إلقاء القبض على الثلاثة عشر رجلا لغرض إجراء التحقيق الأصولي معهم ، ومن ثمّ الانسحاب من المكان ، ومازال الرائد علي بين الفينة والأخرى يرمي عبد الرّحمن بنظرات متسائلة طويلة .

****

ينتقل المشهد إلى غرفة التحقيق الخاصة بمكتب جرائم الخطف التي تتوزّع بين أركانها كاميرات مراقبة واضحة للعين الناظرة ترتبط بشاشة تلفازية موجودة في الغرفة المجاورة لها ، وشاشة تلفازية معلقة على أحد جوانبها.. كما تمتدّ طاولة ممتدّة تتوزّع بينها أربع لاقطات صوت ، وتحيطها أربع كراس صغيرة ، وفي الجانب المقابل للباب حائط يتوسّطه حاجز زجاجي كبير هو مرآة من داخل الغرفة ، ولكن من الجهة الأخرى يفصل غرفة أخرى يُمكّن مَنْ في داخلها من رؤية كلّ مافي غرفة التحقيق من دون أن يشعر بذلك أيّ فرد فيها ماعدا رجال الأمن .

يقطع الرائد علي الغرفة جيئة وذهابا ، والقلق بادٍ عليه .. يقترب منه النقيب مصطفى الّذي لاحظ هذا القلق في محيّاه متسائلا :

– مابك رائد علي .. تبدو على غير مايرام .؟

– أيعقل أن يكون هو .؟

– مَنْ تقصد .؟

– هل تمعّنت في وجه من يقول إنّه المسؤول الأمني والإداري عن جامع أبي البراء .

– تقصد عبد الرّحمن.؟

– نعم هو .

– لقد حقّقنا معه ، ولم نصل إلى شيء ما ، ولم ألحظ مايثير الشكوك فيه .. كما أنّنا حقّقنا مع الجميع ، واليوم انتهينا من آخر وجبة من المحتجزين ، ولم نلحظ شيئا مهما ، ثم إنّك لم تحضر جلسة التحقيق مع عبد الرّحمن بالذات .

– لقد كنتُ في الغرفة الأخرى أرقب كلّ حركاته وسكناته .. إحساسي الأمني يثير الشكّ في نفسي ربّما يكون هو .

النقيب مصطفى : لم أعهدك تحبّ الألغاز.. قل من هو ماذا تقصد.؟

– أشكّ أنّه هو .. لقد كان حاضرا في مسجد الشيخ مفيد عندما تمّ اغتيال الشيخ خالد ..

– ماذا تقول .؟ هذا أمر خطير ...

استرسل الرائد علي في حديثه مستعيدا شريط الحادثة المثير لانفعاله الشديد :

– إنْ كان هو فالأحجية ستكتمل، وتبين الحقيقة ..عندما بدأ اطلاق النار ، ورأيت الشيخ خالد يسقط من على منبره مضرّجا بدمائه هرول المقدّم شجاع نحو القاتل شاهرا مسدّسه ، فلمّا رآه اتجه نحوه مطلقا الرّصاص الغزير، وأصابه بإطلاقة في كتفه ، ولم أستطع الردّ عليه من موقعي مباشرة لأنّني بين الجموع المذعورة ، وخشيتُ من إصابة أحد المصلّين ، وقمتَ أنت بمعالجته ببضع طلقات أصابت واحدة منها ذراعه.

ردّ النقيب مصطفى ممدّا بصره إلى يوم مشهود .. إلى حادثة اغتيال الشيخ خالد قائلا :

– نعم أطلقتُ عليه النار قبل أن أسقط أنا أيضا بسبب دفعي من قبل الناس المذعورة ، لكنّ القاتل استمرّ بتقدّمه ، فلمّا اقترب من المقدّم شجاع أجهز عليه ، وأنت معه بعدّة إطلاقات ناريّة قاتلة .

– أتعلم بمن أشكّ في أنّه تسبّب بدفعك عمدا .؟

ردّ النقيب مصطفى ، وهو ينظر بعينين مندهشتين إلى الرّائد علي:

– أهناك من دفعني عمدا في الحادثة.؟ (ثمّ توقف عن الكلام لثوانٍ معدودة ، بعدها عاد ليستأنف الحديث) :

– لاتقل لي إنّه هذا الرّجل المسمّى عبد الرّحمن .

أجابه الرائد علي : هو بعينه .. أشكّ بأنّه هو من قام بدفعك عن عمد حتّى يحمي القاتل ، لقد وقعت عيناي على عينيه ، وهو يقوم بدفعك عمدا ، وانطبعت صورته في ذهني لكنّني حينها لم أستوعب الأمر ، وظننتُ أنّ الدفع تمّ نتيجة الذّعر الذي أصاب كلّ المصليّن الّذين أخذوا بالتدافع والرّكض في كلّ الاتجاهات .

يدخل العميد ضرغام ، ومعه الفريق الأمني غرفة التحقيق ، ويبدأ الرائد علي الحديث موضحا شكوكه بشخصيّة عبد الرّحمن ، ومسردا التفاصيل التي ذكرها للنقيب مصطفى ، واتفق الجميع على أن يُطلب من عبد الرحمن أن يرتدي الثياب نفسها التي في مخيّلة الرائد علي

وقت حدوث جريمة الاغتيال ، وأمر بتولّي المقدّم ياسين والرائد علي والنقيب مصطفى التحقيق معه .

توجّه العميد ضرغام بحديثه إلى المقدّم شجاع طالبا منه الانضمام إليه في الغرفة المجاورة لمراقبة مجريات التحقيق عبر التلفاز ، والنظر من الحاجز الزّجاجي ، وبعد نحو ساعة من الزّمن تمّ استدعاء عبد الرّحمن إلى غرفة التحقيق ، وقام المقدّم ياسين بإجلاسه على الكرسي منتصف الطاولة ، ثمّ بادرهم عبد الرّحمن بالسؤال :

– ألم تنتهوا من التحقيق معي ، وقلتم إنّكم ستطلقون سراحي.؟

يقرّب المقدّم ياسين فمه من رأس عبد الرّحمن، ويهمس في أذنه :

– لدينا عرض أزياء .؟

التفت عبد الرحمن إلى المقدّم ياسين باستغراب ، ودهشة كبيرة ، ولم ينطق بكلمة ، واستأنف المقدّم ياسين حديثه :

– نعم .. عرض أزياء ستقوم أنت به .

التفت إلى الرائد علي طالبا منه فتح الكيس الذي يمسك به وإخراج محتوياته ، فأخرج منه (دشداشة) ، و(طاقية) رأس بيضاوين ، وكيسا صغيرا فيه لحية اصطناعية، وطلب من عبد الرّحمن ارتداء (الدشداشة) ولبس (الطاقية) وسط اعتراض منه على هذا الطلب :

– هـل تسـتهزئون بـي .. لِـمَ تطلبـون منّـي ارتـداء الـ(دشداشة) و(الطاقية).؟

صرخ المقدّم ياسين بوجه عبد الرّحمن بقوّة ومهدّدا إيّاه :

– اخرس.. ارتدِ هذه ولاتفتح فمك بكلمة.. إنّك لم تر الوجه الاخر لنا أفهمت.؟

يرتدي عبد الرّحمن الـ(دشداشة) والطاقية ، وقد دبّ القلق والاضطراب في أوصاله ، وأخرج المقدّم ياسين من الكيس الصغير الذي يحمله لحية قصيرة اصطناعية ، وعمد إلى لصقها في وجه عبد الرّحمن الذي حاول الاعتراض ، لكنّما وجه المقدّم ياسين الغاضب ، وصرّه على أسنانه منعه من ذلك ، ثمّ التفت إلى الرائد علي قائلا له :

– ما رأيك الان هل عاد إلى هيأته الاولى .؟

ردّ الرائد علي مطلقا ضحكة عالية ، وممسكا برقبة عبد الرّحمن :

– نعم .. تماما . إنّه أنت ياعبد الرحمن لقد عرفتك منذ اللحظة الأولى .

هنا قطع العميد ضرغام عبر جهاز الصوت الداخلي استرسال الرائد علي في حديثه ، وطلب من المحقّقين الحضور إلى الغرفة المجاورة ، فخرجوا وأغلقوا الباب ليبقى عبد الرحمن في حيرة من أمره ، والقلق والخوف يكاد يضجّ من عينيه ، ثمّ وجّه العميد ضرغام كلامه إلى الرائد علي :

– لاتشر إلى عبد الرّحمن أنّك عرفته من خلال رؤيته في الجامع عندما تمّ اغتيال الشيخ خالد لأنّه سينكر حتما ، وهذا الأمر ربّما يفقدنا عنصر الضغط وإجباره على الاعتراف بالحقائق .

الرائد علي : إذن كيف سنوجّه له الاتهام سيّدي .

– يمكن أن نوجّه التهمة له ، ولكن ليس بالضرورة أن نخبره بمشاهدته من قبلنا ، لنقل له إنّنا راجعنا أشرطة الفيديو التي سجّلتها كاميرات المراقبة في الجامع ، وأظهرت وجوده لحظة الاغتيال .

يعود المحقّقون إلى غرفة التحقيق ، ويقترب المقدّم ياسين من عبد الرحمن مسائلا إيّاه :

– من المؤكد أنّك قد عرفتَ لِمَ ألبسناك هذه الثياب .. أليس كذلك .؟

أجاب عبد الرحمن، والحيرة تكادّ تقضّ مضجعه مطرقا برأسه للأسفل:

– لا .. لا سيدي لم أعرف .

هنا وجّه المقدّم ياسين اتهامه لعبد الرحمن بحدّة وقوّة :

– لقد أبلغَنَا الشيخ خالد بكلّ شيء قبل وفاته . إنّك قد شاركت باغتياله بأمر من أبي البراء ، وخطف عائلته وإخفائها ، وكنت موجودا في الجامع، وحاولت حماية القاتل.

صُدم عبد الرحمن ممّا سمعه ، ورفع رأسه نحو المقدّم ياسين ، وعيناه شاخصتان إليه برعب شديد :

– ماذا .. ماهذا الكلام ما شأني أنا بالشيخ خالد وعائلته .. إنّني لم أكن موجودا في الجامع .

ردّ المقدّم ياسين بهدوء مستفزّ: نحن لانوجّه الاتهامات من دون دليل ، ودليلنا يجعلك تذهب وراء الشمس . لدينا أكثر من شريط فيديو من كاميرات المراقبة السرية التي كانت موجودة في الجامع .. (يستدرك مع نفسه أنّ جامع الشيخ مفيد متواضع في بنائه ومظهره ، وربما يعلم عبد الرحمن أنّ الشيخ خالد لايضع كاميرات في المسجد ، فابتسم المقدّم ياسين ، وهو يرقب ملامح عبد الرحمن المضطربة مستأنفا حديثه :)

– تفاجأت أليس كذلك .. لقد وضعنا كاميرات المراقبة في المسجد قبل يوم من خطبة الجمعة لأنّ الشيخ خالد أعلمنا بتهديد أبي البراء له ، وخطف عائلته ، وهذه الكاميرات صوّرتك ، وأنت تقوم بدفع النقيب مصطفى حتى لايصيب القاتل بمسدسه ، وهذه هيأتك نفسها التي كنتَ بها في الجامع .. قل لنا أين عائلة الشيخ خالد تكلّم .. هيّا .

شعرعبد الرحمن بالإعياء والإحباط، وصدّق قصّة كاميرات المراقبة قائلا:

– لا أعلم شيئا .. إنّني لم أقتل ، أو أخطف أحدا .. لم أطلق الرصاص على أحد ، ولم أقصد أن أدفع الضابط بل حصل هذا نتيجة التدافع .

الرائد علي : اسمع ياعبد الرحمن .. كلّ الأدلّة تشير إلى أنّك شاركت باغتيال الشيخ خالد ، وأنّك أحد القتلة المأجورين الذين يعملون لأبي

البراء ، وأنّ مصيرك حبل المشنقة ، فلا فائدة ترجى من إنكارك .. أفلام الفيديو توثّق وجودك في الجامع ، وقيامك بدفع النقيب مصطفى جانبا حتى تحمي القاتل .

المقدّم ياسين موجّها كلامه للرائد علي والنقيب مصطفى بطريقة إيحائية:

– لو تعاون عبد الرحمن في التحقيق وأصبح شاهدا ، واعترف أنّ من وجّه الأمر باغتيال الشيخ خالد ، وخطف عائلته هو أبو البراء ربّما ستخفّف العقوبة عنه أليس كذلك.؟

النقيب مصطفى : نعم سيّدي .. لو تعاون في التحقيقات ، وأقرّ بأنّ المحرّض والموجّه هو أبو البراء ستتحوّل عقوبته من الإعدام إلى السجن المؤبّد .

صرخ عبد الرحمن كَمَن به هستيريا : لم أفعل شيئا .. لم أفعل شيئا .

المقدّم ياسين يجابه صراخ عبد الرحمن بصراخ أقوى منه :

– قل هذا أمام القاضي في المحكمة ولن ينفعك أحد . إنّ أبا البراء فرّ إلى جهة مجهولة ، وتركك تواجهون العقاب بدلا منه لكنّنا سنقبض عليه عاجلا أم آجلا ، ولن تستطيع أيّ جهة سياسية أو غير سياسية حمايته ، وابق أنت وغيرك من المغرّر به كبش فداء له .

عبد الرحمن : إنّي منهار .. أشعر بدوار شديد .. أرجوك يكفي .. يكفي .

النقيب مصطفى موجّها كلامه للمقدّم ياسين بنبرة لؤم واضحة :

– مارأيك سيّدي لو تركنا عبد الرحمن يستريح في غرفة الاحتجاز قليلا ، ونجلب له شيئا من الطعام والشراب ، وندعه يلتقط أنفاسه ويفكّر بمصلحته .. ربّما الان مصلحته غائبة عنه على الرغم أنّ مابينه وبين حبل المشنقة خيط رفيع .

الرائد علي : نعم أوافقك الرأي .. أنا متأكد أنّ عبد الرحمن سيجد مصلحته في الاعتراف بالحقيقة لينقذ رقبته .

المقدّم ياسين : حسنا لكما ذلك ، ولكن ليس أكثر من ساعة واحدة قبل أن نرفع أوراقه للسيّد القاضي .

وماهي إلّا أقل من ساعة حتى طلب عبد الرحمن الإذن بالخروج من الاحتجاز ليقرّ بكلّ مايعرفه ، ويعترف بمحضر رسميّ أنّ أبا البراء هو من أمر باغتيال الشيخ خالد وخطف عائلته ، وقد احتجز العائلة معاونُهُ زيد في إحدى البساتين التي تعود لابن عمّه في منطقة الصويرة .. لكنّ أبا البراء قد أمره بالتخلّص منها ، وحينها أخبره زيد أنّه سيقوم ببيع أمّ زهراء وطفلتيها إلى العصابات التي تتاجر بالأعضاء البشرية ، ولايعلم إن كان زيد قد نفّذ هذا الأمر أم لا .

((القتــالُ أيضــاً حضــارة حــين يكــون ضــدّ الــذين يريــدون هــدم الحضارة..))

حنّا مينا

في فضاء آخر ، وفي ظلّ هذه الأجواء المشحونة ترنو الأنظار إلى بصيص أمل لايفنى ، فالإنسان في دواخله المشحونة بآفاق النور أعظم من أن يتماهى مع خيبة الأمل المتناهية .

يطرق مهنّد الموظّف الشاب في السفارة العراقية بلندن باب الشقة التي تقطن فيها (رؤى) ومعه النقيب مصطفى ، فتخرج أمّ وليد عمّتها التي تسكن معها وقد أوهنها الزمن لكبر سنها ، ووجع قلبها بعد فقد ابنها الوحيد الذي أعدمه النظام الدكتاتوري في بغداد نهاية الثمانينيات .. بادراها بالتحية :

– السلام عليكم ياحاجّة .

حلّقت عينا أمّ وليد نحو الشابّين بتوجس ثم ردّت التحية :

– وعليكما السلام .. أهلا ومرحبا .

مهنّد : أنا موظّف في السفارة العراقية ، وهذا النقيب مصطفى من وزارة الداخلية العراقية يروم التحدث مع رؤى ابنة الدكتور سالم فهلّا سمحت لنا بمقابلتها .

قطّبت أمّ وليد جبينها راسمة علامة استفهام كبيرة على محيّاها، وردّت:

– خيرا ابني .. هل هناك شيء ما .؟

نقيب مصطفى : طيّب ..هل نبقى نتحدّث على الباب يا حاجّة. ؟

– عفوا ابني تفضلا .. تفضلا بالدخول .

بينما يتوجهان إلى صالة البيت تخرج رؤى متجهة نحو عمّتها قائلة لها:

– عمّتي ماذا هناك .. ؟

اقتربت منها عمّتها هامسة بإذنها :

– هذا الرجل يقول إنّه من وزارة الداخلية العراقية ويريد الحديث معك .

ثم تلتفت أمّ وليد نحو الشابّين :

– هذه رؤى ابنة اخي الدكتور سالم .

مهنّد : أهلا بك ست رؤى كيف الحال أنا مهنّد من السفارة العراقية .

رنا النقيب مصطفى إلى رؤى معمّقا النظر بعينيها طويلا قبل أن يُعرّف نفسه لها بارتباك :

– وأنا النقيب مصطفى من وزارة الداخلية .

– أهلا بكما .. تفضّلا بالجلوس .

اقتحم مهنّد جدار الصمت بعد ملاحظته أنّ عيون رؤى ، وعمّتها تكاد تأكله فضولا لمعرفة ماوراءه مبادرا بالحديث معهما:

– في الحقيقة مكتب مكافحة جرائم الخطف في وزارة الداخلية ببغداد بعث إخطارا سرّيا لنا يطلب فيه لقاء عائلة د.سالم والسؤال عنه ، وأخذ المعلومات المتوفّرة عن مكان وجوده .

أمّ وليد : ماذا .. ماذا تقول ؟ .. إنّ أخي في بغداد وقد تكلّم معنا قبل أسبوع عبر الهاتف.

بدأ صوت أمّ وليد بالتحشرج ، وبالكاد أكملت عبارتها :

– ماذا حدث لأخي .؟

ران على وجه رؤى اصفرار ، واضطراب كبيران قائلة لمهند:

– لقد جاء رجل قبل مدّة إلى مبنى الكلية التي أدرس فيها وسألني عن أبي ، وكان يريد مقابلته .

ردّ النقيب مصطفى مستفسرا : طيّب .. على أيّ رقم اتصل بكما د.سالم .. وما اسم هذا الشخص الذي سأل عن أبيك.؟

– أبي دائما يتصل عبر رقمه الشخصي المعتاد ، وهذا الرجل الذى أتى إلى الكلية قال إنّه يريد توجيه دعوة له لحضور ندوة ثقافية في فرنسا ..

هنا وضعت أمّ وليد يدها على قلبها قائلة : ابني هل هناك شيء ما على أخي قل لنا بربّك .؟

النقيب مصطفى : معنى هذا أنّكما لم ترِيا الدكتور .؟

أمّ وليد : لا .. لم نره منذ أربعة أشهر .. إنّما يتصل بنا عبر الهاتف على الدّوام ، وقد اتصل بنا قبل أسبوع تقريبا .

– طيّب .. لن أخفي عليكما أنّ د.سالم قد خُطف من قبل جماعة مجهولة في بغداد قبل أشهر يرجّح أنّها جماعة سياسية.

صرخت أمّ وليد بصوت عالٍ يتهدّج من البكاء :

– يا إلهي ..يا إلهي ..غير معقول .. أخي سالم .

يلاقي بكاء أمّ وليد صدمة رؤى ودموعها التي تلألأت من عينيها الجميلتين ، وعلامة استفهام كبيرة على وجهها قائلة :

– كيف تقولون إنّه خُطف ، ووالدي يتصل بنا ويراسلني عبر الإيميل بين فترة وأخرى حتى أنّه يتحدّث معنا عبر الهاتف أحيانا.

– أرجوكما هدوءا أتوسل إليكما أن تهدءا .. د.سالم بخير مادام أنّه يتصل بكما عبر الهاتف ، وتسمعان صوته.. اسمعاني جيّدا يجب إبقاء هذا الأمر سريّا لايعلم به أحد غيركما حرصا على حياته حتى يتمّ الاستدلال على مكانه وإطلاق سراحه بأسرع وقت ممكن .

أمّ وليد : ابني لو كان مخطوفا لماذا لم يعلن الخاطفون مطالبهم ، ولماذا يسمحون له بالاتصال ، ولماذا لم يشعرنا د.سالم بأنّه مخطوف.

ردّ النقيب مصطفى محاولا امتصاص الصدمة التي رانت على أمّ وليد وابنة أخيها رؤى :

– إنّ مسألة خطف د.سالم حقيقة مؤلمة والأمر معقّد جدّا ، وله أبعاد سياسية كبيرة وستكونون مطلعين على التفاصيل الدقيقة قريبا .. لكنّني

أطلب منكما عدم إفشاء مادار بيننا من حديث إلى أي جهة حتى لأقرب المقرّبين .. لانريد أحدا غيركما يعلم بالأمر .

بعينيها الدّامعتين ردّت عليه رؤى والوهن بادٍ عليها :

– أريد المجيء إلى بغداد لايمكن لي البقاء هنا .. أريد أبي.

أمّ وليد: أرجوك نريد أن نسافر إلى بغداد لايمكننا البقاء هنا.

– حسنا سأتصل بالدائرة الأمنية في وزارة الداخلية وأعلمهم بما جرى بيننا من حوار ، وأكرّر طلبي منكما ألّا تفشيا مادار بيننا من حديث لأيّ من معارفكما حتى نبعد كلّ خطر محتمل ، فربّما الجماعة الخاطفة تراقب تحرّكاتكما وإنْ شعرت هذه الجماعة بأن أمر خطفه قد وصل إلى السلطات الأمنية قد تلجأ إلى خيار ليس في صالح الدكتور سالم .

مرّ يومان على رؤى وعمّتها منذ أن سمعتا بخطف د.سالم ، وغمامة الحزن تجلّل المنزل ، وتكاد الدّموع لاتجفّ ، وهي تحفر بشدّة على وجناتهما .. شرع النقيب مصطفى خلال هذين اليومين بعمل بعض التحرّيات بمساعدة السفارة العراقية ، وأجرى عددا من الاتصالات مع دائرته الأمنية في بغداد ، وفي نهاية اليوم الثاني يُدَقّ جرس الباب في شقة أمّ وليد فتهرع رؤى مهرولة لتفتح الباب ..

إنّه النقيب مصطفى الذي بادرها بالحديث بعد التحية ، وأوضح لها أنه لايريد الوقوف طويلا ، ولا الدخول في البيت ، وأبلغها أنها ستأتي إلى

بغداد وتبقى عمّتها في لندن حتى تكون قرب الهاتف ، وتردّ على الاتصالات بصورة طبيعية .. وفسّر ذلك بقوله :

– لانريد لخاطفي د.سالم أن يشعروا بأيّ شيء ، فوالدك عندما يتصل بك أو بعمّتك يكون الخاطفون بقربه ، ويسمعون حديثكم لهذا لانريد لفت انتباههم حرصا على حياة الدكتور ، وسأتواصل معك عبر الهاتف للتنسيق في مسألة سفرك إلى بغداد ، ولن أقف أكثر من هذا الوقت أمام الباب احترازا من أمور ليست بالحسبان سننقذ أباك إن شاء الله .. مع السلامة .

يغادر النقيب مصطفى المكان ترافقه عينا رؤى الدّامعتان المليئتان بالقلق والخوف وفي قرارة نفسها صوت سؤال يتعاظم : متى أصل إلى بغداد .؟

****

إذا ترك المرءُ وطنَه وخلّف جميع ذكريات الطفولة الأولى ، فهل يجب عليه العودة حتى ولو من أجل الزيارة لُماما لاستنشاق عبير هذه الذكريات .؟ أم أنّ هذا الأمر سيحطّم النفس من هول الآلام التي سيشعر بها.. لكنّ الوطن شيء لايعوّض إنّه باقٍ في فصوص الدماغ إلى أن تفارق الروحُ الجسد ..

وهاهي الطائرة القادمة من لندن تهبط في مطار بغداد قبل الظهر، وتخرج منها رؤى لتصافحها شمس نيسان الحنونة ، وتداعب خصل شعرها بضع دفقات من هواء شفيف .. لقد مرّت سنوات عديدة بعد

فراقها وطنها الغالي ، وتداعت صور المدينة في مخيلتها حيث البيت العتيق الذي تربّت فيه في حيّ أور القريب من منطقة البنوك ، وعندما أصبحت في الصف الرّابع الابتدائي سافرت مع أبيها وأمّها هربا من قمع السّلطات الحاكمة ، وحكم الإعدام الذي صدر لاحقا على أبيها .

بعد بضع سنوات من تركها وطنها العراق ترحل أمّها عن هذه الدنيا حزنا وكمدا على أهلها ، وأهل زوجها الّذين تم الزجّ بهم في السجون ، وغابت أخبارهم في المقابر الجماعية التي اكتُشفت بعد سقوط النظام الفاشي .. ترجّلت رؤى بعينين حائرتين دامعتين ، ومتلهّفتين لعبق بغداد التأريخي ، وبروحها العميقة كأنّ أغوارها البعيدة تناغيها ، وتمدّها بقوّة الكون لتجد أبيها وتنقذه من أيدي خاطفيه الظلاميّين .

ما أن دخلت صالة المطار حتى توجّهت نحوها سعاد المحرّرة في جريدة الحرية برفقة النقيب مصطفى الذي ترك لندن قبل سفر رؤى بأسبوع خشية أن تكون رؤى وعّمتها تحت مراقبة العصابة الخاطفة.. حيّتها سعاد ، ثم عرّفت بنفسها :

– الحمد لله على سلامة الوصول أهلا وسهلا بك في بغداد يارؤى ....أنا سعاد المحرّرة في جريدة الحرية .. مؤكد أنّك تذكرين الرّجل الذي أتاك إلى الكلية في لندن رافعا لافتة باسمك .

– أهلا ومرحبا سعاد .. نعم الشخص الذي كان يحمل اللوحة التي فيها اسمي أذكره بكلّ تأكيد.

– أنا من تواصل معك عبر هذا الرجل .. هو ثامر ابن عمي الذي أتاك إلى الكلية .. لقد كنّا قلقين على حياة الوالد ، وسعينا بكل السّبل لمعرفة شيء عنه من دون أن نثير أيّ نظر حرصا على حياة الدكتور.

أخذ النقيب مصطفى زمام الحديث بعد أن رأى في عيني رؤى تأثرا عميقا متوجّها إليها بالحديث :

– أنقل لك تحيات الفريق الأمني المكلّف بالتحقيق في قضية والدك . أنت في رعايتنا وحمايتنا .

سعاد : أرجو قبولك بأن تكوني ضيفتي هذه الليلة إنّ أمي متشوّقة لرؤيتك. إذ طالما أخبرتها عنك وعن أبيك رجل المبادئ والنّبل والحقّ المحبّ لكلّ الناس والمدافع عنهم .

– أشكرك سعاد أنت فعلا إنسانة رائعة ، وأنا سعيدة جدا بلقائك ، إنّني أشعر بكم تملكون كلّ الطيبة العراقية المعروفة طيبة بلدي وأهلي .

هنا طلب النقيب مصطفى من رؤى أن تستعدّ يوم غد مع سعاد لتأتيا إلى مكتب مكافحة جرائم الخطف ، والتداول في بعض المعلومات ، واللقاء بعدد من المسؤولين هناك ، والاتفاق على الخطوات المقبلة .

اتجهت سعاد بصحبة رؤى إلى بيتها في منطقة الوزيرية . إذ استقبلتها أمّ سعاد ببشاشة وفرح كبيرين ، فشعرت رؤى بروح أمّها تحضر فيها ، وضمّتها بين ذراعيها كأنّما تضمّ والدتها التي فارقتها وهي بعمر صغير

. يجلس الجميع ليتبادلوا الأحاديث الودّية والذّكريات ، والمواقف المختلفة وسط علامات السّعادة التي غمرت الجميع .

في صباح اليوم التالي في مبنى وزارة الداخلية .. تتجه رؤى ، وسعاد ، والنقيب مصطفى إلى مديرية مكافحة الإجرام – مكتب مكافحة جرائم الخطف .. لقد طلب العميد ضرغام من المحرّرة سعاد الانضمام رسميا لفريقه الأمني مبلغا مدير تحرير الجريدة بذلك كونها أصبحت بتماسّ مباشر في القضية ، وهي ترافق رؤى على الدّوام ..

تجلس رؤى وسط خوف وقلق كبيرين في مكتب اجتماعات العميد ضرغام ، الذي يبادر بالحديث :

– أهلا بك رؤى في بلدك .. أنت تحت حمايتنا وضيافتنا ، ونأسف لما حصل لوالدك لكنّنا نأمل أن نصل إلى الخاطفين بأسرع وقت ممكن حتى تكوني إلى جنبه ، وتفرحي بلقائه .

ردّت رؤى بنبرة قلق واضحة : إنّ دموع الخوف على أبي لم تفارقني ، ولم تفارق عمّتي مذ علمنا بالخبر ، وكّلنا أمل بكم في العثور على أبي ، وإنقاذه ، فهو وحيدنا وسندنا في هذه الدنيا .. أنا لم أستطع البقاء في لندن ، وتحمّل القلق والخوف على مصير أبي ومستعدّة للقيام بأيّ شيء يساعدكم في سبيل إنقاذ والدي.

العميد ضرغام : إنّ د.سالم لم ينقطع عن مراسلتك ، والاتصال بك .. أريد أن أسألك هنا هل هناك أيّ شيء لديك يارؤى يمكن أن يلفت أنظار د.سالم من دون أن ينتبه إليه الخاطفون من مثل عبارة ما ، أو

موقف معيّن إن ذكرتيه يلفت انتباه أبيك .. بمعنى كلام منك لايثير شكوك الخاطفين ويلفت انتباه أبيك إلى أنّك على علم بما يحصل له؟.

أطرقت رؤى برأسها متأمّلة ، ومستعيدة شريط الذّكريات حيث صور أبيها وهي معه ، وبضع من الحوارات التي كانت ترسم السعادة والفرح على رؤى ثمّ تذكّرت أنّ هناك مقالة لأبيها تحتفظ بها في مكتبتها ، وكانت دائما تمازحه في عنوانها ، وتذكر له هذا العنوان عندما يداري عنها أشياء ، ولايبوح بها رغم طلبها منه أن يفصح عنها... لقد تأثّرتْ بهذه المقالة جدّا لذلك كانت كثيرا ما تستخدم عنوانها لإخبار أبيها أنّها تعلم مايخفيه عنها . لقد كان عنوان المقالة (الشعبُ يعلمُ الحقيقة)، فأخبرت العميد ضرغام بهذا الأمر.

هنا ابتسم المقدّم ياسين ملتفتا إلى رؤى قائلا :

– كيف تستخدمين هذه العبارة لتُعلميه بما يُخفي عنك . ؟ هل تقصدين أنّ هذه العبارة عندما تذكرينها لأبيك يعلم أنْ لافائدة من إخفاء أيّ شيء عنك .؟

– نعم بالضبط .. في أحد الأيام كان أبي يجهّز لعمل حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلادي ، وبالصدفة رأيتُ هديّتي في دولاب أبي قبل أن يقدّمها لي ساعة الاحتفال ، فلمّا أشعلتْ عمّتي شموع كيكة الميلاد كان أبي يخفي الهدية خلف ظهره قائلا لي : احزري ماذا جلبت لك من هدية فقلت له :

(الشعب يعلم الحقيقة) ، فبَهُتَ ، وقال هذا عنوان لإحدى مقالاتي ، فقلت له ضاحكة : نعم أنا الشعب وأعلم ماهي الهديّة ، فانفجر ضاحكا ومنذ تلك اللحظة كلّما أراد إخفاء شيء عنّي ، وكنت أعرف ماهو أقول له هذه العبارة.

العميد ضرغام : ربّما هذه الصدفة تنقذ أباك يا رؤى .. حسنا سأعمل وإيّاكم على صوغ التعبير المناسب وتضمين هذه العبارة (الشعب يعلم الحقيقة) علّ د.السالم ينتبه إليها .(ثم يلتفت نحو رؤى قائلا لها) :

– سنعدّ رسالة على لسان حالك ، وسنرسلها إلى هاتف أبيك من خلال هاتف منزلكم في لندن .. إنّ مندوبنا في سفارة لندن سيذهب لعمّتك ، ويهدّئ من روعها ويبلغها بما سنعمله ، وأن تكون حذرة ، ويوضّح لها كلّ شيء .حسنا لقد حجزنا لك في فندق ممتاز لتقضي به أيّامك في بغداد .

لكن كان لسعاد رأي اخر : عن إذنك حضرة العميد أنا أدعو رؤى لأن تكوني ضيفتي وتشرّفني بالبقاء معي في البيت حتى يفرج الله عن د.سالم .

رؤى : أشكرك سعاد ..عندما قلت لي إنّ من تحدّث معي قرب باب الجامعة حاملا لوحة تحمل اسمي هو من طرفك ورأيتُ جهودكم في البحث عن أبي أدركت كم أنّ شعبنا العراقي شعب أصيل ويحمل النخوة والطيبة.

يخرج د.سالم من محتجزه إلى الفناء الخارجي – هذه أول مرة يُسمح له بالخروج إلى الهواء الطلق – بصحبة (مجاهد) أحد الأفراد المنضمّين لجماعة جسّار محمود المكلّف بملازمة الدكتور بكلّ تحركاته .. لقد طلب د.سالم منه أن يسمح له باستنشاق الهواء النّقي قائلا له :

– إنّ رئتيّ قد تعبتا من الهواء الرّطب ، وأجواء العتمة التي تملأ غرفتي تسبّب لي الكآبة العميقة ..

كان مجاهد قد بدأ بالتعاطف مع د. سالم فبحكم مرافقته له اطّلع على العديد من مقالاته ، وقرأ الكثير من كتبه ، واستمع إلى العديد من تحليلاته التي كانت تُنقل عبر القنوات الإذاعية والتلفازية.. لم يستطع منع نفسه من التماهي مع أفكار هذا الذي يحرسه ، وشيئا فشيئا شعر بهذا البون الشاسع بين ماتغذّيه ماكنة الحزب في عقله من أفكار منغلقة ، ومتبنّيات اجتماعية وثقافية وسياسية ضيّقة ومتشدّدة ، وبين ماتستلهمه روحه من الغذاء الفكري والمعرفي الذي يطالعه به نتاج د.سالم .

أخذ د.سالم يتمشّى برفقة مجاهد في أروقة الحديقة الواسعة ، وطلب أن يدخل الحمّام الخارجي الواقع في أحد جوانب الحديقة ، وبينما هو في الداخل سمع أحد الحرّاس الذي مرّ من أمام الحمّام صدفة – ولايعلم أنّ د.سالم في داخله (سمعه وهو يتحدّث من هاتفه بصوت مسموع قائلا):

– نعم في شارع فهمي المدرس ..لا لا.. بل في الفرع الجانبي الواقع خلف شارع فهمي المدرّس .. نعم بعد التقاطع ادخل أوّل فرع مؤدٍ إلى

مدرسة البنوك الأهلية (يستفسر منه مَنْ في الطرف الاخر من المكالمة – وهو صاحب مطعم النخلة – إنْ كان البيت هو نفسه الذي كان يرسل الطلبات إليه سابقا) ....نعم هو البيت ذاته هذه أول مرة أرسل هذا الطلب لقد كان ابن عمي من يتصل بكم دائما وهو مسافر الان .. طيّب في الانتظار .

يلتفت مجاهد الذي كان بعيدا عن الحمّام نحو الحارس وهو يتحدّث عبر الهاتف بصوت عالٍ ، ولم يميّز جيدا بِمَ كان يتحدّث طالبا منه أن يوطئ صوته قائلا له :

– ماذا هناك .؟ لِمَ تتكلّم بصوت عالٍ .أمجنون أنت .؟

أجابه الحارس بتلعثم وتردّد معتذرا ، فهو لم ينتبه إلى أنه قد تكلّم مع صاحب المطعم عبر الهاتف بصوت عالٍ ،وطلب منه مجاهد أن لايكرّر هذا الأمر مرّة أخرى ، وإلّا لن يبقى في مكانه هذا .

انطبعت كلمات العنوان في ذهن د.سالم ، وعلائم الدهشة ترتسم عريضة في محيّاه .. إنّه يعرف هذا الشارع جيّدا ، ويعرف مكان إعدادية البنوك الأهلية.. أخذ يكلّم نفسه :

– الأوغاد المجرمون إنّ هذا الشارع يؤدي إلى مسكني القريب من حي البنوك. (حدث هذا الأمر ، ولم ينتبه مجاهد إلى أن د.سالم قد سمع الحارس وهو يصف عنوان البيت لصاحب المطعم عبر الهاتف .)

في مساء اليوم نفسه يفتح مجاهد باب غرفة د.سالم ممسكا بهاتف يلوّح به قائلا له :

– رسالة من ابنتك رؤى دكتور .. رُدّ عليها .

يقرأ د.سالم الرسالة المفترض أنّها من رؤى ابنته بلهفة عارمة، ولكن مَنْ صاغ الرّسالة هو الفريق الأمني :

(صباح الخير أبي العزيز كيف حالك اشتقنا إليك أنا وعمّتي كثيرا .. نتمنّى أن تأتي إلينا في لندن بأسرع وقت..عندما أفتقدك أتذكر مقالتك: – الشعب يعلم الحقيقة – لقد نالت إعجاب كلّ أصدقائي عندما نشرتها .. أريدك أن تطمئنني على نفسك .. ابعث لي برسالة ردّ أرجوك دمتَ بخير بابا واعتنِ بصحتك جيّدا .)

لفت عنوان المقالة نظر د.سالم، وسرح ببالـه نحو صورة ارتسمت في مخيّلته إذ يرى ابنته ، وهي تحاول أن تعرف ما كان يخفيه خلف ظهره قائلة له بضحكة وادعة بابا (الشعب يعرف الحقيقة) إنّها هديّة عيد ميلادي. لطالما كانت رؤى تردّد هذه العبارة عندما تريد أن توحي له بأنها تعرف ما يخفيه عنها ..

أخذ يتساءل مع نفسه ما مناسبة ذكر رؤى لهذه المقالة .؟ هل يعقل أن تكون رؤى على علم بأنّه مخطوف ، ومَنْ أبلغها بذلك ..؟ إن كانت على علم فمن المؤكد أنّ الشرطة تعلم أيضا ، وهي من أبلغتها .. أيعقل أنّهم يعلمون ، ولكن مهلا عليّ ألّا أبالغ في التوقّعات سأردّ عليها

بشـيء لايلفت انتبـاه السّـفلة الـذين يحتجزونـنـي ... طلـب د.سـالم مـن مجاهد أن يردّ على رسالة ابنته:

– لابأس رُدّ عليها حتى لا تكون بقلق ، ودعني أنظر إلى كلّ حرف تكتبه ، ولاتنس إخبارها بأنّك منشغل جدا في العمل ..

يبدأ د.سالم الضغط على مفاتيح الأحرف في الهاتف ليكتب لابنته ردّا وعينا مجاهد من فوقه ترقب كلّ حرف :

(ابنتي رؤى كيف حالك.. أنت دائما في مخيّلتي تحضرني صورتك ، وصورة عمّتك الغالية أمّ وليد مادمتما بخير فأنا بخير ، وفرحت لكون مقالتي (الشعب يعلم الحقيقة) قد نالت رضاك ، وإعجاب أصدقائك.. انتظري منّي عناوين لمقالات جديدة ، وأنا واثق من عقلك النّقدي .. أنا منشغل هذه الأيّام في الجريدة والكلّية ، والتحضير لمؤتمرات مقبلة .. عندما أفرغ سآتي إليكم بأسرع وقت . تعلمين أنّ انشغالاتي أحيانا تمنعني من الاتصال بك ، وبعمّتك عبر الهاتف ..هذا تقصير منّي ، ولكن آمل منك الفهم والعذر .. سلمتِ لأبيك يارؤى ، وسلامي لعمّتك الغالية.)

في وقت لاحق يدخل جسّار محمود بمعيّة معاونه مجاهد غرفة د.سالم الذي كان جالسا خلف المكتب وجلس قبالته ، وبادره بالتحيّة :

– أهلا دكتور ..كيف حالك .(لم يجبه د.سالم بشيء واستأنف جسّار كلامه :)

– أين مقالة اليوم ؟

– تفضّل هذه مقالتي .

فتح جسّار الورقة ناظرا إلى عنوان المقالة ، وبصوت عال أخذ يقرأ :

– (المدرّس شعلة تحترق).. اممم عنوان جيّد .. (استمرّ جسّار بقراءة المقالة وما أن انتهى حتى علّق مبتسما ، وهو يعود إلى التطلّع في المقالة ، وتفحّص سطورها :)

– جميل مقالك، بل هو رائع لاسيّما أنّك ربطت بين عطاء المدرس ، ووجوب تحلّيه بصفات التربية المحافظة ، وإشارتك إلى أنّ طاعة المدرّس هي من طاعة وليّ الأمّر ، وأنّها واجبة حتى تستقيم أخلاق الشباب ، ويبتعدوا عن التفكير بقضايا لاتخدمهم مثل السياسة ، وتقليد صرعات الغرب .

جميل .. جميل جدّا .

– لكنّكم تحشرون الكثير من العبارات حشرا في مقالتي حتى أنّها لاتستقيم في الأسلوب والمعنى .لاتنسوا أنّ القرّاء يعرفون أسلوبي في الكتابة وأيّ تغيير غير منطقي في تراكيب الجمل يرسم علامة استفهام كبيرة لديهم.

(قالها د.سالم معترضا ، فأجابه جسّار:)

– إنّه المدقّق الفكري في الحزب عندما لاتكتب مايريد يضع هو العبارات التي يريدها في مقالتك .. هذه وظيفته ، وهو يستلهم روح الحزب وأفكاره وأهدافه في قراءته للمقالات ..

– مدقّق غير موفق(اختار عبارة – غير موفّق – وفي داخله كلمة أخرى ودّ لو ينطق بها لولا أنّه بين أيدي خاطفيه) .

ضحك جسّار بصوت عالٍ ، وطلب من د.سالم تهيئة مقالة جديدة عن الحالة الاقتصادية ، وكيف أنّ مايتبع اليوم من سياسات اقتصادية ليست على شيء ، ويجب أن تتّبع السياسات الاقتصادية المنبثقة من أفكار (الحزب) ، فهي الحلّ لكلّ مشاكل المجتمع .. ردّ عليه د.سالم طالبا منه أن تبقى عناوين المقالات من اختياره ، فأجابه جسّار بالموافقة.

طاولة الاجتماعات في مكتب مكافحة جرائم الخطف تضمّ العميد ضرغام وفريقه الأمني بينما تجلس رؤى ، وسعاد مقابل العميد ضرغام الذي تتابع عيناه كلّ حرف من رسالة د.سالم في ردّه على ابنته رؤى .... مرّت دقائق صامتة ، ثم رفع العميد ضرغام رأسه مخاطبا فريقه الأمني :

– ماذا لديكم من ملاحظات حول الرسالة :

المقدم شجاع : لانستطيع الجزم أنّ د.سالم قد تنبّه إلى مغزى رسالة رؤى . فردّه لايشي بأيّ انتباه مفترض إلى أن رؤى تعلم بمصيره.

هنا طلبت سعاد من الجميع الانتباه قائلة :

– لو لاحظتم هذه العبارة في رسالة الدكتور (انتظري منّي عناوين لمقالات جديدة تفحّصيها لتجمعي منها رؤية جديدة ، وأنا واثق من عقلك النقدي .) هذه العبارة كأنّها تريد إخبارنا شيئا .

رؤى : نعم .. أنا أشعر بذلك. هو يطلب منّي أن أتفحّص المقالات التي سينشرها ، بل بالأحرى العناوين ، وأجمع منها رؤية جديدة . أي معنى جديد ، فقام العميد ضرغام بتوجيه النقيب مصطفى بتتبّع كلّ ما سيكتبه د.سالم من مقالات بعد رسالته التي ردّ بها على رؤى .

بعد يوم من رسالته إلى ابنته كتب د. سالم مقالة جديدة ، وسرعان ما دخل النقيب مصطفى غرفة الاجتماعات التي ضمّت الفريق نفسه ، وبيده نُسخ من آخر مقالة للدكتور سالم ، وسلّم كلّ فرد جالس نسخة موجّها حديثه للعميد ضرغام :

– سيدي أبلغني أستاذ جمال مدير تحرير جريدة الحريّة أنّ الدكتور الان يكتب مقالة كلّ يومين ، أو ثلاثة أيام في الجريدة بعد أن كان سابقا يكتب مقالة مع كلّ عدد يصدر ، وبعد رسالته التي ردّ بها على رسالة رؤى كتب مقالة واحدة صدرت اليوم.

العميد ضرغام : دعونا نتفحّص المقالة لاسيّما العنوان ركّزوا على كلّ حرف منه ، وسجّلوا ملاحظاتكم ثم نتبادل الآراء .

مرّت دقائق عديدة يشوبها القلق وسط تأمّل الحاضرين في المقالة ، وتركيزهم فيها ليكسر المقدّم شجاع الصّمت قائلا :

– (المدرّس شعلة تحترق) .. إنّه عنوان يشيد بالمدرّس ، وعطائه لايشي بغير هذا بالنسبة لي لغاية الان .

الرائد علي : لا أجد شيئا غير اعتيادي في المقال ، أو العنوان إلّا في بعض الإشارات والعبارات التي من الواضح أنّ الخاطفين أجبروه عليها.

رؤى : نعم ، فوالدي لايتبنّى مثل هكذا عبارات من مثل (علينا تخليص الشباب من الأفكار المستوردة التي تريد التأثير في إيمانه وانتمائه .) إنّ أبي يؤمن بروح التلاقح الفكريّ بين الشعوب ، والامتلاءُ بروح الوطن هو مَنْ يحصّن الشباب من أيّ أفكار سلبيّة .

وعلا صوت سعاد كمن اكتشف شيئا جديدا :

– ألم يقل د.سالم (انتظري منّي عناوين لمقالات جديدة تفحّصيها لتجمعي منها رؤية جديدة ، وأنا واثق من عقلك النقدي .) إذن هو لايدعوك يارؤى لقراءة مقالة واحدة ، بل عدّة مقالات حتى تتضح مقاصده ، فلننتظر المزيد من المقالات ، ونحاول الرّبط بينها إنْ كان د.سالم قد أدرك فعلا أنّنا نعلم بعملية خطفه .

نعود إلى شارع المتنبي وسط بغداد .. هنا عندما تقترب من هذا الشارع تشعر أن الثقافة تستطيع أن تحوّل الإنسان من مجرد كونه مخلوقا على

هذه الأرض إلى التفكّر بوجوده وآفاق وعيه ، وأن الثقافة تشكّل منبع نور يهتدي به بقية الخلق نحو الحرية والحضارة والرقيّ الإنساني ...

أخذ الرائد علي والنقيب مصطفى يجولان بين مكتباته وأروقته ، ويحمل كلّ منهما رواية صالح أمين الأخيرة (الملك والرعيّة) ، ويحاول كلّ منهما عقد حوارات مقصودة مع أصحاب المكتبات،والقرّاء والمرتادين للشارع المهتمّين بتصفّح كتب الأدب ، وشرائها لسؤالهم عن فحوى رواية القاص صالح ، وقيمتها الفنية ، وعن صالح أمين نفسه ، والحادث الإجرامي الذي أصاب عائلته.

أخبرهما أحد أصحاب المكتبات عن الرّكن الجانبي الأيمن في مقهى الشابندر الشعبيّ الذي كان يرتاده دائما القاص صالح مع بضعة رفاق له لاحتساء الشاي، أو شراب الحامض بعد جولة يقومون بها في شارع المتنبي. يتّجه الرائد علي والنقيب مصطفى نحو المقهى . حيث جالت عيناهما فيه لتلتقي عند الركن الجانبي الأيمن ، ووجدا ثلاثة أشخاص يتبادلون الحديث بينهم تارة، ويقلّبون كتابا أو صحيفة تارة أخرى إنّهم رفاق القاص صالح الّذين مافتئوا يلتقون في هذا الركن الأثير..

يتجه الاثنان نحوهم ، وبيد كلّ منهما رواية (الملك والرعية) لصالح أمين ، وبعد إفشاء التحيّة والسلام يطرح الرائد علي السؤال عن القاص صالح. رحّب بهما دلشاد بعد أن نزع نظّارته المعلّقة حول رقبته بسلسلة فضية رفيعة متطلّعا إليهما بشغف :

– أهلا بكما تفضّلا ..(ينادي على عامل المقهى لجلب قدحي شاي للضيفين)

ورحّب بهما عدنان وعمّار كذلك ، وبادرعدنان بسؤالهما :

– هل أنتما من الصّحافة أو الإعلام .

ردّ الرائد عليّ بهدوء : أستاذ أنا ، ورفيقي – يشير إلى النقيب مصطفى الذي يومئ برأسه قليلا للإشارة إلى نوع من الاهتمام بحديثه والموافقة عليه – مهتمّان بالأدب والشعر العراقي لاسيّما بالرّاويات والقصص ، وقرأنا هذه الرواية

(يرفع كلّ منهما نسخته من الرواية) ، ووجدناها لاتمتّ بصلة إلى نهج القاص صالح .

ينبري النقيب مصطفى للتعليق : نعم ، ولا تمتّ بصلة إلى أفكاره على الرّغم من أنّها مكتوبة بأسلوبه القصصيّ المعروف.

وافقهما عدنان الرأي وهو يومئ برأسه : تماما لقد قلت ذات الرّأي عند قراءتي للرّواية . إنّ أسلوبه في الكتابة نفسه لكنّ الاتجاهات الفكرية للرواية ، ورؤاها الخاصّة ليست له .

وتداخل عمّار منفعلا : أنا قلت بعد قراءتي للرّواية إنّ القرّاء اللذين يتابعون صالح أمين ، ويقرأون رواياته سيُصدمون تماما عندما يقرأونها.

ثمّ انبرى دلشاد متسائلا : نعم .. هل تصدّقان أنّ قاصّا وروائيّا مثل صالح أمين من الممكن أن يغيّر نهجه بمثل هذه الطريقة .؟ هل سمعتما أنّ باولو كويلو، أو ماركيز، أو دوستويفسكي قد انقلبوا على أفكارهم ونهجهم الفكري في رواياتهم .؟

ثمّ توجّه إليهما عدنان بالسؤال : هل تعتقدان أنّ ليو تولستوي عندما قال في روايته (آنا كارنينا) "ومتى تعلّق إنسان بإنسان آخر فهو لا يرى فيه إلا حسناته وخيره"، هل تعتقدان أنّه من الممكن أن يقول في رواية أخرى : ومتى تعلّق إنسان بإنسان آخر فهو لا يرى فيه إلاّ سيّئاته وشرّه .؟

يطرق الرائد علي والنقيب مصطفى برأسيهما ، فهما لم يسمعا بهذه الأسماء إلا الان وأحسّا بحرج شديد ، وشعرا أنّهما قد تورّطا ورطة كبيرة عندما ادّعيا أنّهما من المهتمّين بالأدب والشعر.. لذا فقد اكتفيا بالإيماءات من رأسيهما ، أو يديهما ، تارة من الرائد علي ، وأخرى من النقيب مصطفى الذي حاول الخروج من الحرج مسائلا الحضور عن سبب هذا التغيّر الذي لوحظ في أفكار القاص صالح أمين من خلال روايته الأخيرة، فأجاب عمّار:

– إنّه تغيير جذري ، وأرى أنّ في الأمر خطبا كبيرا ربّما له علاقة بالحادثة المروّعة التي أصابت عائلته ، ولا أصدّق فرضية أنّ القاص صالح قد كتب الرّواية قصد التكسّب المالي لإرضاء دار النشر التي صدّرت الرّواية.

فردّ عليه النقيب مصطفى : أنا سألت بعض المكتبات عن الجهة التي جلبت لهم نسخ الرواية ، فقالوا إنهم أفراد مجهولون يدّعون أنّهم يعملون لدى دار (إيلاف) للطباعة والنشر .

الرائد علي : نعم دار النشر هذه .. هل تعلمون أين مقرّها.؟

دلشاد : لم نسمع بمثل هذه الدّار من قبل .. فجأة خرجت لنا بهذه الرّواية التي تمّ توزيعها بإفراط في كلّ المكتبات حتى أنّ سعرها زهيد قياسا إلى اسم القاص صالح ونوعية الطباعة الفاخرة.

عدنان : أنا أرى أنّ هذه الدّار قد خدعت القاص صالح ، وأرغمته على كتابة هذه الرّواية لغرض غير معلوم .

عمّار : بل معلوم ياعدنان .. إنّها عملية زرع أفكار جديدة تقود الرأي العامّ لاسيّما الشباب نحو زاوية معيّنة لاتنتمي إلّا للفكر التقليدي والرجعي المتحجّر وعملية غسيل دماغ فظيعة مستغلّة اسم القاص صالح ومكانته الأدبية ، وحبّ الشباب المثقف لنتاجه الأدبي .

عدنان : لو كان صالح بيننا لفهمنا منه ما الذي يجري .

دلشاد : لقد زرت عائلة القاص صالح قبل أن تحدث لهما هذه الكارثة البشعة للسؤال عنه ، فأجابتني أمّ مثنى أنّه مسافر ، ولن يعود إلّا بعد ستة أشهر لحضور احتفاليات، ومعارض كتب في الخارج.. حينها أحسست بوجود شيء غير طبيعي ، وشككت في الأمر، وإلا ماتفسيركم لقتل عائلة القاص صالح واختفائه عن الساحة.؟

عمّار : أين الدّولة ممّا يجري .. أين أجهزة الأمن للان لم تكشف شيئا عن هذه الجريمة المروّعة ، إنّ أجهزة الشرطة اليوم في المحك ، فعليها أن تثبت وجودها الفعلي في الميدان لكي يطمئنّ الشعب لأدائها.

سمع الرائد علي والنقيب مصطفى هذا الكلام ، وشعرا بالحرج الشديد . إذ تخيّلا أنّهما هما المستهدفان من هذا الكلام، وكأنّ الجميع عرف شخصيّتهما..

رفع عدنان صوته عاليا كأنما يخطب في ميدان عام :

– الدّولة تنهض بمثقّفيها، وأدبائها ، وعلمائها .. إن تمّ استهداف هذه العلامات الثقافية بالشرّ، فمن المؤكد أنّ الدولة ستكون بخطر كبير ، والشعب بدوره سيتعرّض لهزّات عنيفة ، فهو المستهدف الأوّل في كلّ مايجري .

ردّ النقيب مصطفى مستفسرا : هل من وسيلة للاستدلال على صاحب دار النشر، أو موقع مطبعته.؟

دلشاد : بالتأكيد.. إنّ دار الكتب والوثائق الوطنية التي أعطت رقما ، وموافقة على الاصدار تملك معلومات كاملة عن صاحب دار النشر ومكان طباعة الرّواية ، ونحن عزمنا على الذّهاب إلى الدّار من أجل معرفة من هو صاحب دار النشر المسمّاة بـ(إيلاف) .

يشكر الرائد علي والنقيب مصطفى رفاق القاص صالح ، ويغادران المكان وسط نظراتهم العميقة المتسائلة التي لاحقتهما .

****

وفي يوم جديد يتجه الرّائد علي إلى مبنى دار الكتب والوثائق الوطنية (*)، ويطلب من خلال كتاب رسمي من وزارة الدّاخلية معلومات كاملة عن رواية القاص صالح أمين الجديدة (الملك والرّعية) ، فقام الموظف المختصّ بتزويده بكامل المعلومات عن دار النشر (إيلاف) ، وظهر أنّ صاحبها محمد جابر ، (وهو المسؤول الثقافي للحزب) ، ولكن لا دلالة على مكان هذه الدار، وموقع مطبعتها .

يعود الرائد علي إلى مقرّ الدائرة في وزارة الدّاخلية ويجتمع بالمقدّم شجاع والمقدّم ياسين والنقيب مصطفى، وتداولوا المعلومات المتحصّلة وقدّموها إلى العميد ضرغام الذي قرّر مخاطبة القضاء لإصدار مذكرة قبض وتحرّ بحق صاحب دار إيلاف للنشر والتوزيع محمد جابر .

وصلت المعلومات بأنّ محمّد جابر مجهول الإقامة ، وقد كانت له نشاطات ثقافية قليلة لمدّة معيّنة ، لكنّه اختفى من الساحة الثقافية بعد نشره مقالا على صفحته الشخصية في الفيس بوك يشتم فيه القامات

(*) هي أقدم مكتبة عامة في العراق الحديث ، وكانت تسمى سابقا بالمكتبة الوطنية ومركز الإيداع في العراق. تشكّلت في ١٩٨٧ نتيجة قرار دمج المكتبة الوطنية مع المركز الوطني للوثائق . تعود المكتبة الوطنية السابقة (المكتبة العامة) إلى مكتبة السلام التي افتتحت في ١٩٢٠التي تعدّ مرجعا لآلاف الباحثين العراقيين ، ومركزا يحظى باهتمام حكومي كبير.

الثقافية المعروفة في البلد متّهما إيّاهم بالتحيّز لمن يواليهم بالأفكار والرؤى ، ومحاربة مَنْ يخالفهم بالرّأي ، ومن ينافسهم في العطاء الأدبي ، وقد رفض الأدباء مقاله واتّهموه بالاختلال النفسي ، وعدّوا هجومه نوعا من التعويض عن النقص في موهبته الأدبية ، ومحاولة لتبرير ضعف إمكاناته وأدواته في التأليف الأدبي .

استطاع فريق التحرّي الحصول على صورة لمحمد جابر المسؤول الثقافي لـ(الحزب) من خلال قاعدة المعلومات الوطنية ، فأمر العميد ضرغام أن تنشر صورة محمد جابر في مراكز الشرطة ومكاتب الأمن في المستشفيات ، وفي الدّوائر الأمنية والاستخباراتية حصرا ، علّها تزوّدهم بمعلومات عنه ، وفي الوقت نفسه التقليل من فرص معرفة الجهة الخاطفة أنّ الشرطة تتقصّى خطى محمد جابر، وأمر بمراقبة مكتبات النشر الكبرى من خلال الخلايا الاستخبارية المنضوية تحت قيادات الشرطة في الوزارة ، وحتّى معارض الكتب المختلفة التي تفتح أبوابها في مختلف أوقات السنة لاسيّما في الجامعات والمعاهد ، ومعارض الكتب الكبرى السنويّة ..

إنّ محمد جابر سيحاول تسويق روايات صالح ، وضخّها بكميّات كبيرة في سوق القراءة لتصل إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور ، فهذا هو هدفهم : القيام بأوسع حملة لغسيل الدماغ .

يذرع القاص صالح الغرفة المحتجز بها جيئة وذهابا ، ويكاد القلق على زوجته وابنه يفتك به ، وأخذ يحدّث نفسه بصوت مسموع ، ولسان مرتجف :

– يا إلهي لقد غزاني الخوف على أمّ مثنّى وولدي .. غابت أخبارهم عنّي لأسابيع ، والسفلة لايريدون أن أتحدث إليهما ، وأطمئنّ عليهما .. آه .. لقد دخل ضباب القلق في رئتيّ ، واستولى على كل خليّة منّي .

وبينما هو على هذه الحال يدخل أبو الأسيد ومن خلفه فاتك غرفة الاحتجاز ، ويطلب أبو الأسيد من القاص صالح الجلوس على الكرسي المكسور الذراع قرب سريره قائلا له :

– مابك ياصالح .. يقول الحرّاس إنّك أزعجتهم بكثرة طلباتك لمقابلتي.

– لِمَ قطعتم عنّي أخبار زوجتي وابني مثنّى .. لقد مضى شهر ولم أسمع صوتهما ولم أسمع خبرا عنهما ، ألَمْ أنفّذ ما أردتموه منّي ، وأنجزت الرواية التي طلبتم .؟

ردّ أبو الأسيد ملتفتا نحو فاتك بنبرة لئيمة : أحقّا مايقوله صالح.؟

– أمّ مثنى وابنها بخير .. لكنّ صالح لم يتعاون معنا .

– امممم .. أرأيت يا صالح هما بخير لاتخف .. لكنك تذكر جيّدا إلا أنْ أصابك الزهايمر بصورة مفاجئة أنّنا طلبنا منك إنجاز رواية ثانية تبيّن فيها أنّ ماتسمّى بالمدنية والعلمانية داء وبيل ، وخطر على البنية المجتمعيّة المحافظة ، وهي من متبنيّات الاستعمار والغرب الكافر لتفتيت بنيان هذه الأمّة ..

تأفّف صالح طويلا قائلا :

– إنّ ماتريده أبا الأسيد يمكن تقديمه على شكل مقال في صحيفة ، أو رأي في لقاء تلفازي أو محاضرة ، ولكن من الصعب تجسيده في رواية.

– هذا ليس من شأني . إنّها أوامر (القائد) .

همهم صالح بصوت خفيض : قائدك غبيّ ، وأنت أغبى منه .

ردّ أبو الأسيد مستشعرا هذه الهمهمة : إنّك لم تتخلَّ عن هذه الهمهمة التي تشتمني فيها .. أنا متأكّد من ذلك إنّك تشتمني فيها ، ولولا أوامر القائد بالمحافظة على حياتك لكنتَ ممزّقا أشلاء .

– امممم .. شكرا لقائدك .

– اسمع ياهذا .. لم يعد في القوس من منزع ، ولا تراهن على صبري .. تريد الاطمئنان على زوجتك وولدك ابدأ بكتابة الرواية ، وأعدك أنّك ما أن تنتهي من كتابة الرواية سأجلب لك زوجتك وابنك إلى غرفتك هذه ، وليس فقط سماع صوتهما عبر الهاتف .. هذا وعد منّي .

– إنّك تمسكني من يدي التي تؤلمني .. إنّك تهدّدني بسبب بقائي في هذه الدنيا .. زوجتي وولدي الوحيد .

– نعلم هذا ، وقلت لك إنّهما بأمان وصحّة جيّدة ، وتوّاقان لرؤيتك فقط ابدأ بكتابة الرواية الجديدة .

– أتعلم يا أبا الأسيد ، إنّني أشفق عليكما أنت وفاتك .

انفجر فاتك بضحكة مجلجلة : هذه أوّل مرّة يشفق بها عليّ إنسان .

اقترب أبو الأسيد من رأس صالح قائلا : لمَ يا صالح تشفق علينا.؟

– إنّكما تسيران في طريق مجهولة ، والنهاية ربّما تكون كارثيّة . الشعب الان لم يعد تنطلي عليه الشعارات الزائفة ، والمغامرات غير محسوبة النتائج . لقد سئم المتاجرين بمشاعره وروحه الوطنيّة .. دائما ما تكون نتائج اللعب بمصائر الشعوب لصالح فئات نفعية محدّدة ، وأحيانا تتحوّل لصالح فئات عائلية . أمّا أنتم فمخدوعون يتسلّق غيركم على أكتافكم لينالوا السلطة ، ومن ثمّ يمنحونكم من فتات موائدهم الشيء القليل .

شعر أبو الأسيد بالدم يفور في رأسه : أتعلم ياصالح .. إذا كان هناك رجل أتمنى قتله في هذه الدنيا فسيكون أنت . أشعر أنّ لوقع كلماتك أثر السّهام التي تصيب القلوب .. تبّا لك .

ردّ صالح بنبرة هادئة : توقّعت منك هذا الردّ ، لأنّ كلماتي تمسّ جانبا خفيّا من شخصيّتك تحاول إخفاءه . إنّها تمسّ بذور الخيّر من تركيبة شخصيّتك . إذ لايولد الانسان وكلّ تربته تنبت شرّا ، فالمجتمع والتربية الاجتماعية والأسرية تسهم في إسقاء هذه التربة إمّا بماء الاعتدال والخير والعطاء ، وإمّا بماء الشرّ والخديعة والعداء.

انتفض أبو الأسيد بشدّة ملوّحا بيده نحو القاص صالح :

– كفى .. كفى .. إنّك شيطان مريد . اسمع تريد أن ترى عائلتك تبدأ بكتابة الرواية الجديدة وفق شروطنا .. هذا آخر ما لديّ . أمامك ساعتان حتى أفول الشمس ، وهذا فاتك سيبلغني بردّك .

مضت خيول الزمن في سباقها غير المنتهي ليحلّ غبارها في غرفته الموحشة ، وفي عتمة الليل الذي تخترقه عنوة شآبيب ضوء القمر الساطع .. تصرخ الآلام في مداخل الروح النقيّة للقاص صالح الذي اعتاد أن يناجي نفسه ، ويأخذ بها لأنوار الإنسانية :

– أنا لا أفهم كيف رأى الفيلسوف (أوسكار هامر شترين) أنّه رجل سعيد ، لمجرد أنّه أيقن بأن الحياة قائمة على الصراع بين الخير والشر ، وأن في هذا العالم وجوه نقص كامنة فيه ..لو يعلم كم أكل هذا الصراع من جُرفِي حتى شارفتُ على الهلاك ..

لقد أحببتُ الخير كلّه ، وكرهتُ الشرّ كلّه لأنّني إنسان صاحب قيمة عليا من بين مخلوقات هذا الكون الغامض السحيق . كيف لي أن أتعاون مع الشرّ ، وأتماهى معه لايمكن هذا حتّى لو قطّعوني إربا ... لكنّهم يهدّدونني برحيق العمر ، وبمن جعل وجودي في هذه الحياة عطرا رائع الشذا .. يهدّدونني بزوجتي الغالية ، مَنْ كابدتْ وعانت الليالي الطوال وشاركتني بحمل المعاناة القاسية .. يهدّدوني بولدي الوحيد مثنّى . آهٍ عليك ياولدي ماذا تفعل الان .. هل تقرأ استعدادا للامتحانات حتى تبقى متفوّقا كما أنت دائما ، وتحقّق حلمك الذي لم ينفكّ عن مرافقتك أينما حللتَ بإكمال دراستك العليا في الماجستير والدكتوراه .. كنتَ تحلم في أن تساهم في بناء وطنك الغالي لن أنسى يوم قلت لي : (أبي أتعلم أنّني حين أقوم بالعمل التطوّعي في تنظيف الشوارع والأزقة ، أو أساهم في أعمال بناء المساكن للفقراء أشعر أنّني رجل مهم جدّا ، بل أهمّ رجل في العالم .) لهفي عليك يا بابا ..

لقد قالها أفلاطون قبل آلاف السنين :

((أكبرُ شرّ عدا الظلم هو أن لا يدفع الظالمُ ثمنَ ظلمه .))

الفصل الرابع

شآبيبُ الربيع

سلسلة جبال ممتدّة على طول مرمى البصر .. جبال ليست بذات الارتفاع العالي ، وسفوحها الصخرية تتخلّلها الشجيرات الصغيرة ، وبين مفاوزها تجري المياه الضحلة الباردة بتؤدة من خلال الصخور .. في ظهيرة يوم ربيعي مشمس تحاول أربعة خيول شقّ طريقها بجنب سفح لأحد جبال هندرين في شماليّ العراق محاولة الالتفاف نحو يساره ، وراكب الحصان الأوّل الذي يقود البقيّة ينتقل بخفّة تدلّ على مهارة ومعرفة بالطريق ، وهو في كلّ مرة يرفع سلاحه ليشير إلى جهة معيّنة ويوجّه إليهم التعليمات ، ويحاول أن يجنّبهم الأرض الوعرة جدا .

بعد قطع مسافة طويلة داخل تخوم الجبال يتراءى من بعيد على الفضاء المفتوح أمام أعين ركّاب الأحصنة الأربعة شارع معبّد يرسم خطّا رماديّا في سفح الجبل الممتدّ .. هنا صاح الراكب الأخير الذي أرهق حصانه لعدم مهارته في امتطاء الخيول :

– لِمَ جعلتمونا نقطع هذه المسافة على ظهور الأحصنة بين الصخور في هذه الأرض الوعرة ، وكان بالإمكان قيادة السيارة على ذلك الشارع في الأقل للوصول إلى أقرب نقطة يمكن أن توصلنا إليها السيّارة .؟

يجيبه قائد الركب المكلّف بإيصالهم إلى المكان المنشود :

– شيخ إنّ ذلك الشارع تمرّ به أحيانا دوريات للشرطة توقف السيّارات وتتحقّق من ركّابها ، وأنت صادرة بحقّك مذكرة إلقاء قبض وتحرّ .. أتريد لفت أنظار الأمن إلى مكان وجود (القائد).؟

إنّ هذا الشيخ الذي يخاطبه قائد الركب ماهو إلا (أبو البراء) الذي لاذ بالصمت المطبق بعد هذا الكلام ، ثمّ التفت إليه زيد ، وهو الراكب الثاني بعد قائد الركب قائلا له :

– جماعة القائد لايفوتهم شيء شيخي .

يوافقه القول الراكب الثالث بعد زيد. إنّه (أبو الخَنْزَب) الذي أعجب بردّ قائد ركبهم :

– شيخي نحن أمانة في رقبة (القائد) ، فبارك الله به .

يستأنف الجميع السير بمحاذاة السفح ، وبعد نصف ساعة وقفوا أمام ملتقى جبلين صغيرين ، ولا مجال لمسير الأحصنة على سفحهما ، فقال أبو البراء:

– هل أخطأنا الطريق أم ماذا .؟

ينزل الرجل المسلّح الذي يقود الرّكب من على صهوة حصانه بخفّة ورشاقة ، ويتوجّه إلى مجموعة كثيفة من الأشجار ، فدخل فيها ، وما هي إلا دقائق معدودة حتّى سمع الجميع صوت تشغيل لمركبة ضخمة ، ومن حيث لايشعرون خرجت من بين هذه الأشجار الكثيفة رافعة شوكية كبيرة يقودها قائد الرّكب ، واتجه بها نحو حافة الجبل ، ومدّ لساني الرافعة نحو الأسفل ووضعهما تحت صخرة كبيرة تتوسط الجبلين الصغيرين ، وضغط على عتلة الرفع لترتفع مع اللسانين الصخرة الكبيرة التي تلتصق بحافتها العليا أغصان أشجار اصطناعية ..

فانكشف مدخل لنفق واسع داخل الجبل وسط دهشة أبي البراء وصاحبيه ، واستمرّت مشاعر الاندهاش بضجيجها في وجوه الثلاثة ، وهم يسيرون داخل النفق بأحصنتهم ملتفتين يمينا وشمالا ..

ما أن وصلوا إلى نهاية النفق حتّى رشق النور المشوب بحمرة الغسق بأسهمه على وجوههم ، وظهر أمام أنظارهم قصر كبير منيف ، والمسلحون ينتشرون في كل بقعة وزاوية يرونها ، واستمرّ مسيرهم لبضع دقائق حتى طلب منهم قائد الركب النزول ، وسرعان ما أتت سيّارتان مظلّلتان لتقلّ أبا البراء وزيدا وأبا الخنزب ، وتنطلق بهم إلى داخل القصر حيث استقبلهم قائد (الحزب) هذا الرجل الستيني ضخم الجثة كثيف الشارب والحاجبين يرتدي ملابس عسكرية من دون رتبة ولا غطاء رأس.

رحّب بهم (القائد) كثيرا، وطلب منهم الانضمام إلى رفاقهم في القاعة الكبرى. هناك وجدوا أبا الأسيد وفاتكا ، وجسّار محمود ومجاهدا ، وغيرهم من رجال الحزب وقادته ..استمرّ دخول بعض الرجال بهيئاتهم المختلفة من بينهم مَنْ يرتدي الزيّ العربي والزيّ الكرديّ المميّزَين ، وبعد برهة من الزمن يدخل (القائد) ، وعلى يمينه وشماليّه حارسان طويلا القامة مدجّجان بالسلاح .. وقف الجميع مصفّقين له ومحيّينه بحرارة وسط هتافات حماسية ملتهبة ..

بعد أن توسّط القائد الجميع جلس على كرسيّ مُذهّب بمساند تنتهي بمقابض على شكل كفّي (القائد) الذي طلب من الجميع الجلوس، ابتدأ

حديثه بالترحيب بهم والإشادة بحضورهم ، وبعد إدامة النظر في الوجوه الحاضرة رفع صوته القويّ النبرة قائلا :

– إخواني في الكفاح والنضال أحيّيكم على إنجازاتكم في أرض الميدان .. لقد حقّقتم خطوات مهمة في سبيل تحقيق أهدافنا في السيطرة على زمام الأمور في هذا البلد، والتمكّن من السلطة لإنقاذ شعبنا من التمزّق والتشرذم، والقضاء على مهازل ماتسمّى بالديمقراطية والحريّات المنفلتة ، والمضيّ بهذا الشعب نحو تحقيق طموحاته في العلوّ بين الأمم .. لكنّ هذه الأهداف كما تعرفون بدأت تعاني العراقيل ، وبدأنا نواجه استهدافا حقيقيا من السلطة الحاكمة ، بل تم استهداف عدد من عناصرنا المخلصة ، والان تطارد السلطة عددا من القياديين الكبار في (الحزب) ..

هذا الأمر يهدّدنا في الصميم ، ويجب أن نردّ بقوة وحزم على كلّ من يحاول تقويض حزبنا ، وتهديم بنيان أحلامنا. الان أريد أن أسمع منكم كلّ التفاصيل التي ذكرتموها لي سابقا ، وتلك التي استجدّت لكم حتى يطّلع الجميع على الأحداث ، وأريد أن أسمع آراءكم التي تساهم في تعضيد كياننا ، وردّ الأعداء عنّا ..

هنا انبرى أبو البراء للحديث بعد أن سحب زيد – الذي يجلس إلى جانبه – ، سحب جسده منه بمسافة قصيرة لكي يترك له المجال لتحريك ذراعيه بحرّية. لأنّ أبا البراء معتاد على أن ينشر ذراعيه ويحرّكهما في كلّ اتجاه أثناء الحديث ، وكأنه يلقي خطبة في الجامع

.. بدأ أبو البراء حديثه ، وقد كان مليئا بالحنق من تحرّك القوات الأمنية ضدّه ، وسعيها إلى إلقاء القبض عليه :

– قائدي المبجّل .. لقد حقّقنا خطوات متقدّمة ، بل جبّارة في نشر أفكارنا وآرائنا ، وبدأنا بكسب تعاطف عدد من الشباب ، ولمسنا ميولهم الحقيقية إلى أفكار (الحزب) ومنطلقاته ، ولكنّني أقولها بصراحة إن لم نقض على قيادات مكتب مكافحة جرائم الخطف في وزارة الداخلية ، فإنّ وجودنا ومستقبلنا في خطر كبير.. يجب أن نضع حدّا لهم حتى تستقيم أمورنا ، وتمضي أهدافنا نحو التحقّق والصيرورة.

يطلب أبو الأسيد الإذن بالحديث ، وقد التفت إليه فاتك ، ونظر إليه بكلّ إمارات الإعجاب :

– قائدي المفدّى إنّ خطتنا تمضي على مايرام ، وقد أنجزنا أوّل رواية لصالح بعد أن اطلعتم عليها ونالت رضاكم ، وتمّ توزيعها بين المكتبات والمنتديات ، ونحن الان قد كلّفنا صالح بكتابة الرواية الثانية بحسب الموضوع الذي أمرتم به ، ولدينا طرقنا الخاصة لإرغامه على كتابة الرواية الثانية على الرغم من مقتل زوجته وابنه الذي بدأت صحف ، وقنوات إعلامية عديدة بتناوله ، وعمل تحقيقات استقصائية في تداعياته .

قائدي المفدّى لقد تناهى إلى أسماعنا من خلال مجسّاتنا المنتشرة أنّ هناك من يسأل عن الأستاذ محمد جابر ويبحث عن مكان سكنه ، أو

الأماكن التي يرتادها ، وبعد التحرّي عن الاشخاص الذين يسألون عنه أميل إلى الاعتقاد أنّهم من ضباط العميد ضرغام .

القائد : مؤكد أنّ لديهم خيطا ما عن عملية قتل زوجة صالح وابنه بعد أن كشفت وزارة الداخلية أمر خطفهم .

محمد : أرجّح هذا ياقائدي ، وأنا أعتقد أنّهم يتتبّعون أثر مطبعتنا (إيلاف) التي طبعت الرواية .

– خذ حذرك منهم تماما يامحمد ، وقلّل من تحرّكاتك ، وأمّن أماكن وجودك ، وسوف لن يصلوا إلى (إيلاف). إذ لاعنوان ولامكان لها على خريطة دور النشر والطباعة .

ثم التفت (القائد) إلى جسّار محمود قائلا : وأنت ياجسّار .. هل هناك من تطوّرات غير ما أبلغتني إياه قبل مدّة .؟

جسّار : قائدي المفدّى إنّ خطتنا تمضي على أحسن وجه ، ولم نتعرض إلى أيّ تهديد أمني يذكر ، ومقالات د.سالم تتواصل في النشر بعد تغيير نهج الجريدة على وفق إرادتنا والموضوعات التي تأمر بها ، وحسب مجسّاتنا فإنّ هذه المقالات ، ونهج الجريدة المتغيّر بدأ يولّد ردود أفعال جديدة بين القرّاء ... أُصْدقك القول الكثير من قرّاء د.سالم رفضوا مضمون مقالاته وشكّكوا فيها ، وبعضهم اتّهمه بأنه قد باع نفسه ومبادئه لأجل المال ، ولكن هناك من تعاطف مع مضمون مقالاته الجديدة ، وبدأ يغيّر من قناعاته ، وهناك عدد من الصحف

بدأت تشير إلى هذا التحوّل في نهج د.سالم من خلال نشرها مقالات ، وتحقيقات صحفية بهذا الشأن .

ردّ (القائد) بابتسامة علت وجهه الدائري جعلت خطوط تجاعيد الوجه تتجمّع مع بعضها باتساع :

– هذا شيء إيجابيّ كبير.. أتعلم حتى مَنْ يتهم د .سالم بأنه باع قلمه ونفسه في سبيل المال ، فإنّه يخدمنا من حيث لايشعر.

جسّار : كيف يخدمنا يا قائدي المفدّى .

القائد: إنّهم سيقولون هذه هي أخلاق العلمانيين، ومايسمّون أنفسهم بالمتنوّرين والمثقفين .. انظروا في أيّ لحظة يمكن أن يغيّروا مبادئهم ويبيعون ولاءهم لأجل المكاسب الشخصيّة .. أنت تعلم أنّهم يُشهّرون بالإسلاميين في كلّ محفل ويصفون شعاراتهم وآراءهم بالرجعية ، وأنّهم مخادعون ، ويستغلّون الدين لكسب المال الحرام ويسرقون قوت الشعب ، فليذوقوا جرعة من الكأس التي يذيقوننا منها .

ساد صمت قصير في القاعة ، وجالت عيون (القائد) بين الحاضرين ، ثمّ نظر إلى أبي البراء وزيد ، وأبي الأسيد وفاتك ، وجسّار ومجاهد قائلا :

– يجب أن نغتال العميد ضرغام ، وكلّ ضابط مشارك معه في التحقيقات التي تخصّكم بأسرع وقت .. سأجعلكم تنسّقون مع عناصرنا

الخفيّة التي تعمل في وزارة الداخلية لترتيب خطة محكمة للقضاء على ضرغام وجماعته .

ثمّ صاح الجميع بصوت واحد :

– عاش القائد .. عاش القائد .

معلنين ولاءهم المطلق له ، وأنّهم مشروع فداء ، ومنبع وفاء لـ(الحزب) لاينقطع جريانه حتى تفيض أرواحهم في عليّين .

غالبا ما يكون طريق الكتابة هو الطريق إلى الشعور بالحرية ، ولكنّ هذه الطريق محفوفة بالمخاطر، وتجلّلها في أحايين كثيرة غيوم الخوف ممّن يضع العراقيل فيها، ويحمل أداة القمع بوجه الكاتب .. هنا يسمو قلم التحدّي وتتجلّى عظمة الصمود .. لقد قالها شكسبير قبلا : (مداد قلم الكاتب مقدّس مثل دم الشهيد) .. هذا ماكان يدور في مخيلة د.سالم الذي يقف لأوّل مرة مبتسما ، قبل أن يسلّم جسّار مقالته الجديدة قائلا له :

– تفضّل مقالة اليوم كتبتها في ضوء ما أشرْتَ إليه ، وطلبتَه منّي في وجوب أن نتّبع السياسات الاقتصادية المنبثقة من (الحزب) ، فهي الحلّ لكلّ مشاكل المجتمع .. طبعا وفق وجهة نظركم لا من وجهة نظري .

ردّ جسّار مبتسما : أتمنّى أن تتوافق وجهة نظرنا مع وجهة نظرك.. ما الذي يمنعك من أنْ تصبح في صفّنا .. مؤكّد أنّ الحزب سيضعك في

مكانة عالية ، وربّما منحناك منصبا كبيرا في الدولة إنْ قيّض الله لنا أن نحكم البلاد .

– أعتقد أنّنا تناقشنا في هذا الأمر أكثر من مرّة ، وتعلم موقفي من هذا الموضوع .. لستُ للبيع ياجسّار ، ولا أحبّ المناصب المغمّسة بالدماء القائمة على قهر الشعب ، ومصادرة حرّياته.

– هات المقالة واخرس ..

ردّ د.سالم بنبرة هادئة وواثقة من نفسها :

– دائما لا تقبلون الرأي الاخر.. تثورون لمجرّد مخالفتكم في وجهة النظر ، وتهدّدون بالويل والثبور .. أتساءل إنْ حكمتم كيف ستعاملون الشعب.؟هل تكرّرون أخطاء من سبقكم بذات النّهج، والعقلية الرجعية.؟

اقترب جسّار منه ، ونظر إليه مليّا قائلا :

– أنت لاتستطيع رؤية ناموس الحياة .. إنّ الدنيا تستجيب لمن له السّطوة والجبروت ، والشعب يتوق للقويّ كي يحكمه .. أقول لك : لئن فشل غيرُنا لحماقته ، فإنّ لنا توجّها مختلفا يقتنع به الشعب ، ونصلح من وجهة نظره لحكمه.

أجابه د.سالم مثبّتا نظره بعينيه : القويّ العادل الشّريف والنّزيه ، الذي يأتي بالإرادة الحرّة في انتخابات نزيهة عادلة هو من يبحث عنه الشّعب ، وليس القويّ المتغطرس النّزق الأحمق مثلما كان رأس النظام السابق.

(يغير د.سالم مسار الحديث فجأة مستأنفا كلامه :)

– قد وضعت للمقالة عنوانا مباشرا فما رأيك به ؟

يقرأ جسّار العنوان ، وهو ضجر وحانق . إذ هكذا تكون حاله بعد كلّ نقاش مع د.سالم لاسيّما بعد عباراته الأخيرة لكنّه حاول جاهدا كتم ثورة غضبه :

– (البنوك الأهلية بين الواقع والطموح) ... اممم عنوان جيّد أتمنى أن يكون في المسار الاقتصادي الذي يدعو إليه الحزب.. سأطّلع على المقالة جيّدا ، ومن ثمّ أرسلها للمدقّق الفكري .. واصل نشاطك دكتور وهيّئ لنا مقالة جديدة .. نريدها هذه المرة عن الآيديولوجيات المستوردة ، وتأثيرها السّلبي في عقول الشباب وبناء المجتمع ، والمقاصد السّيئة لمروّجيها ..أفهمت دكتورنا العزيز .. ألتقيك بعد غد .

((المصيبة ليستْ في ظلم الأشرار، بل في صمت الأخيار.))

مارتن لوثر كينج

يمسك كلّ من العميد ضرغام وطاقمه الأمني ، ومعهم رؤى وسعاد جريدته متمعّنا بمقالة د.سالم الجديدة (البنوك الأهلية بين الواقع والطموح)... مضت الدقائق بطيئة ، وكلّ منهم حائر بين الكلمات والحروف مغرقين في صمت مطبق حتى رفع العميد ضرغام وجهه عن الجريدة مبصرا من حوله ، وهم مطرقو الرّؤوس يتفحّصون حروف المقالة قائلا :

– هل لاحظتم شيئا ما في عنوان المقالة، أو في موضوعها.

أجاب الجميع بعدم قدرتهم على الوصول إلى شيء ما يمكن أن يمنحه إيّاهم عنوان المقالة ، فاقترحت سعاد إرسال رسالة مرّة أخرى إلى د.سالم تكون أكثر وضوحا في معطاها ، وتبيّن أنّ الشرطة تعلم بخطفه بشرط عدم إثارتها للشكوك ، فوافقها العميد ضرغام على أن يتم إدخال عنوان مقالة الدكتور نفسه (الشعب يعلم الحقيقة) لأنّه الوحيد الذي يمكن أن يثير انتباه الدكتور.

التفت النقيب مصطفى إلى رؤى بذات الحنوّ والاهتمام الذي اعتادت أن تشعر به عندما يحدّثها في كلّ مرّة :

– هل هناك شيء آخر ربّما كان عالقا بينك وبين والدك غير عنوان المقالة هذا ، ومن الممكن أن تشدّ انتباهه .؟

بعد وقفة تأمّل قصيرة بدأت الدموع تزحف لعيني رؤى قائلة:

– لا أتذكر مايفيدنا في هذا الأمر غير عنوان المقالة أنا آسفة .

****

مرّ الوقت بطيئا على رؤى حتى تمّ بعث الرسالة المتفق عليها إلى أبيها.. يقترب مجاهد من د.سالم حاملا هاتفه ، وبابتسامة مصطنعة وتندّر ثقيل قال له:

– يبدو أنّ ابنتك تسوّق بصورة جيدة مقالاتك في الخارج فها هي تعيد إشادتها بمقالتك التي ذكرَتها في الرسالة السابقة (الشعب يعلم الحقيقة).

صمت لسان د.سالم تماما لكنّما وجهه كان يضجّ بحديث القلق والحيرة ، وبالكاد أسعفه لسانه قائلا له :

– نعم .. ابنتي دائما تنقل لي إعجاب زملائها ، وأصدقائها بمقالاتي .

– تفضّل دكتور رُدّ على رسالتها.

وماكاد د.سالم يمدّ يده لأخذ الهاتف حتى أحسّ بيد غليظة خشنة الملمس تمسك رسغ ساعده ، وتبعدها جانبا .. إنّها يد جسّار الذي دخل فجأة وسبقت يد الدكتور ، ومن ثم خطفت الهاتف من يدي مجاهد ، وأخذ يقلّب رسائل الهاتف ويمعن النظر فيها برهة من الوقت، ثم رفع رأسه نحو د.سالم قائلا:

– ابنتك رؤى تفتقدك كثيرا يادكتور ..

لاحت في عيني د.سالم شآبيب دموع تريد التحرّر ، والانفلات من عقالها لكنّه تمالك نفسه ، وصرّ على أسنانه ، وزمّ شفتيه متمتما :

– وأنا أفتقدها كثيرا كثيرا .

جسّار : شوّقتْني ابنتك إلى أن أقرأ مقالتك هذه التي اسمها (الشعب يعلم الحقيقة) إنها تذكرها مرّة أخرى في رسالتها هذه .

صمت د.سالم ، والقلق يكاد يخطف قلبه خشية أن يكون في رسالة ابنته شيء يثير انتباه الخاطفين ، لكنّ جسّارا بدّد شيئا من غيوم هذا القلق قائلا له :

– خذ الهاتف ، واقرأ الرسالة.. بعد ذلك أريد أن أقرأ مقالتك (الشعب يعلم الحقيقة) . لقد شوّقتني ابنتك لقراءتها .

وبدأ د.سالم يطالع حروف الرسالة المفترض أنها من ابنته ، ولكنّ من كتبها العميد ضرغام وفريقه الأمني :

– (بابا كيف هي أحوالك أتمنّى أن تكون بألف خير .. لماذا لا تتصل بنا اشتقنا لسماع صوتك .لقد جرّبتُ أن أتصل بك أكثر من مرّة على الرغم من أنّك نبّهتني إلى عدم الاتصال بك ، وأجد هاتفك مغلقا أو يرنّ ولاجواب .. أتعلم يا أبي إنّ مقالتك (الشعب يعلم الحقيقة) تنال الإعجاب أينما أنشرها ، وكأنّني لست لوحدي من يعلم الحقيقة. أرجو أن تتصل كي أطمئنّ عليك هل فهمتني . إنّني قلقة عليك .. مع السلامة بابا.)

تقافزت إلى ذهن د.سالم الذي سرح بعيدا شُعَلُ الأسئلة الحائرة :

– هل تريد رؤى بإعادتها ذكر عنوان مقالتي (الشعب يعلم الحقيقة) أنْ تؤكد علمها بأمر خطفي ، وعلم الشرطة كذلك .؟ لماذا لم تشر إلى أنّها فهمت مايشي به عنوانا المقالتين الأخيرتين اللتين نشرتهما ، وقد طلبتُ منها التمعّن في العناوين ، واستخراج مكنونها.؟ ربما لم تستطع استخراج الرسالة الخفيّة في عنوانَي المقالتين .... يقاطع جسّار كمّ الأسئلة التي تطوف في مخيلة د.سالم المتعبة ليقول له :

– مابك إلى أين سرحت .. هيا أعطني الهاتف .؟

– ألا أستطيع الردّ على رسالة ابنتي ..أرجوك دعني أردّ عليها .؟

– لا ليس هذه المرّة .

– ولكن إن لم أردّ عليها ستقلق ، وربما ستكسر كلامي ، وتتصل بي عن طريق هاتفي .

– أنت من سيتصل بها دكتور .

– حقّا ماتقول .. متى .؟

– قريبا .. قريبا جدا.. إذ إنّنا لانريد جلب أيّ شكوك لعائلتك حول وضعك معنا .

قال هذه الكلمات بنبرة توحي أنّه منزعج من شيء ما بعد اطلاعه على رسالتَي رؤى ، وجواب د.سالم على الرسالة الأولى لها .

الدنوّ من مرابع عشناها في الطفولة بعد غياب طويل يُبهج الوجوه ، ويُسرّ الوجدان .. لن تخطئ العينان في رصد شفيف من السعادة على محيّا رؤى ، وهي ترى بغداد. لكنّ هذا المحيّا مشوبٌ بغابات من الهلع والخوف على مصير أبيها ..

هاهي تجلس مقابل المحرّرة سعاد في بيتها ، وهي لم تنفكّ تُبدي الحفاوة ، والترحيب بها رغم مضي أيّام عديدة على سكنها معها ، وكأنّها قد وصلت توّا إلى البيت .. تقترب من سعاد لتحدّثها :

– أتعلمين ياسعاد كم اشتقتُ لرؤية بيتنا في بغداد .. لقد قضيتُ فيه طفولتي الأولى .. لقد كنتُ في الصفّ الرابع الابتدائي حينما أخرجَنا أبي من البيت سرّا ، وهرب بنا إلى خارج العراق لأنّه كان مطلوبا لجهات الأمن القمعية في النظام الدكتاتوري السابق .

– نعم لقد زرتُ بيت د.سالم مرات عديدة مع زملائي في الجريدة لقد شعرت أن بيتكم كان مليئا بالحنان ، والدفء والمحبة.

ردّت رؤى بنبرة ملؤها الحنين : هل أستطيع زيارة المنزل. ؟

– لا .. لايمكنك ذلك إطلاقا فهو مراقب من الخاطفين .

رؤى : مازلت أتذكر ملامح كثيرة من البيت لكنّني أجهل مكانه الان. أتعلمين أنّني لم آتِ إلى بغداد مذ كنت طفلة في الرابع ابتدائي على الرغم من عودة أبي بعد سقوط النظام القمعي مباشرة ؟

– حقّا ؟.. طيّب لماذا لم يأت بك د. سالم لتعيشي معه هنا أنت ، وعمّتك.

– كان أبي شديد الخوف عليّ ، وعلى عمّتي بسبب الأحداث الأمنية الخطيرة التي كانت تجابه بغداد ، ولكنّ أبي بعد استقرار الأوضاع الأمنية وعدني بإعادتنا إلى بغداد ، والسكن فيها حال إكمال دراستي الجامعية العليا في لندن.

ابتسمت سعاد بعمق لتقول لها :

– أتعلمين يارؤى.. إنّ بيتكم لايبعد كثيرا عن بيتنا.

فأجابتها بلهفة عارمة : هل يمكن أن نمرّ عليه فقط .. أرجوك دعيني أراه ولو من بعيد.

ابتسمت سعاد مذعنة : حسنا سأطلب الإذن من النقيب مصطفى لأنّه أوصاني بإبلاغه عن أيّ تحرّك تقومين به لأجل تأمين سلامتك .

نهضت سعاد لتجري اتصالا هاتفيا بالنقيب مصطفى ، وطلبت الإذن منه بإلحاح لغرض زيارة بيت د. سالم ، فأجابها بالموافقة بشرط المرور من أمام البيت سريعا من دون أيّ توقف في المنطقة ، وأنّه سيتبعهما بسيّارته الخاصة من دون أن يشعرا بذلك فشكرته كثيرا ، وهرولت نحو رؤى لتبلغها :

– رؤى سننتظر غياب خيوط الشمس وسآخذك في جولة مسائية في بغداد ، ونمرّ ولو من بعيد ببيتكم . إنّ الاحتراز واجب كما قال لي النقيب مصطفى الذي أشعر أنّه يخاف عليك كثيرا .

أعقبت سعاد كلماتها الأخيرة بضحكة موحية، فأجابتها رؤى بابتسامة خجولة:

– إنّه طيّب القلب ، ومخلص في عمله .

– حسنا .. هيّا معي نستعدّ لهذه الجولة .

في مساء اليوم نفسه تتوجّه سيارة سعاد بصحبة رؤى نحو دار د.سالم في حي أور .. بعد نحو عشر دقائق من السير تنعطف سعاد لتخرج عن طريق شارع القناة وتدخل المنطقة ، ويتبعها النقيب مصطفى من دون أن تلحظ سيّارته .. تُمعن رؤى النظر في جانبي الشارع حيث المحالّ التجارية والأسواق الكبرى بإضاءتها الوهّاجة ، والمتعدّدة الأشكال .. جال نظرها في وجوه المارّة والمتبضّعين ، والتفتت نحو سعاد التي تمسك بمقود السيارة بحذر كعادتها دائما لتسألها :

– ما اسم هذا الشارع ياسعاد ؟

– إنّه شارع فهمي المدرس ؟

– فهمي المدرس .. نعم هو الكاتب العراقي الراحل المتميّز بأدب المقالة.

– تماما رؤى .. كان والدك متأثرا به جدّا ، لقد نسج كثيرا من مقالاته على وهج مقالات فهمي المدرس .

– وما اسم هذه المنطقة .؟ هل بيتنا يقع فيها.؟

– لا .. بيتكم قريب من هذه المنطقة إنّه في حيّ أور .

– إذن ما اسم هذا الحيّ .

– هذه المنطقة اسمها البنوك، وبعدها مباشرة ندخل حيّ أور منطقة بيتكم.

تبتسم رؤى قائلة : البنوك ؟ يبدو أنّها مليئة بالبنوك .

تجيبها سعاد ضاحكة : كلّا .. بل هذه المنطقة تم توزيعها بين موظفي البنوك في السابق لذا سميت بحيّ البنوك .

تتوقّف سيارة سعاد بعد أن توهّجت الإشارة الضوئية الحمراء في التقاطع الأول داخل شارع فهمي المدرس ، شيء ما جعل رؤى تتلفّت حول المكان .. مدّت يدها لتجسّ موضع قلبها إذ شعرت بنبضه يتسارع فجأة .. تنبّهت إليها سعاد فحدثتها لتطمئنّ عليها :

– مابك رؤى ؟.

– لاأدري فجأة شعرت بنبضي يتسارع وضاقت أنفاسي .

– أتريدين العودة للبيت ؟.

– لا .. لاعليك إنّي بخير ... أتعلمين ياسعاد لقد شعرتُ كأنّ عبق والدي يدور في هذا المكان.

في هذه اللحظة كان د.سالم يكتب مقالته الجديدة ، وقد سرّح ببصره متصفّحا أفق السماء من الشبّاك الواسع حيث تتعشّقه بعض الخصل من الأشجار الطويلة ، وتشوب الأفق حمرة خفيفة قد نُسجت حول القمر ، وشعر أنّ قلبه تتراقص فيه نبضات الأمل والحنوّ البالغين ، فاستغرب كثيرا هذا الشعور المفاجئ الذي رمى بثقله ليمزّق قضبان الاحتجاز ، وينيرغرفته الكئيبة.

التفتت سعاد مخاطبة رؤى بعد أن لاحظت أنّ الحنين والألم قد ارتسما في مقلتيها :

– سنصل إلى بيتكم بعد قليل مؤكّد أنّ هذه مشاعر الحنين إلى الماضي .حيث طفولتك البريئة ، وأنت بين يديّ والدك يمسح على شعرك ، ويغنّي لك أغنيات الأطفال .

سالت الدموع من عيني رؤى ، وهي تستحضر ذكرياتها الجميلة في البيت مع أبيها ، ثم التفتت إلى سعاد قائلة :

– كم بقي للوصول إلى بيتنا ؟

– ما أن ننتهي من هذا الشارع حتى ندخل منطقتكم ؟

تنفتح الإشارة الضوئية الخضراء لتنطلق سعاد بسيارتها ، وتتجاوز الشارع الجانبي الأول بعد التقاطع ، وماهي إلا دقائق معدودة في هذا

الشارع حتى انعطفت بسيارتها لتدخل منطقة حي أور وتجتاز عدّة أزقة فيها لتصل في النهاية إلى قرب منزل د.سالم ، وسيّارة النقيب مصطفى تتبعهما كظلّهما الذي لايبرحهما ، وتتوقف سعاد قائلة لرؤى:

– البيت في ذلك الزقاق الواقع على الجهة اليمنى .. سندخل فيه بشكل اعتيادي ، وسنمرّ على بيتكم وهو البيت الثالث على جهة اليسار لكن من دون التوقف أمامه حسب تعليمات النقيب مصطفى .

– حسنا سعاد .

تمرّ السيارة بجانب البيت المظلم بيت أبيها د.سالم ذي الأشجار المتدلّية أغصانها على سياجه ، وتصافحه عينا رؤى بدموع تترقرق على خدّيها ، وتلمع تحت الإضاءة الخاطفة للمصابيح المعلّقة في أعمدة الكهرباء ، وكأنّها تسحب معها ذكريات مضى عليها ستة عشر عاما من الفقد والاشتياق .

في جانب آخر يجهّز المقدّم ياسين قوّة مسلّحة كبيرة ، ويتّجه برفقة الرائد علي والنقيب مصطفى إلى قرية صغيرة منزوية في منطقة نائية من ضواحي مدينة الصويرة يمرّ بها جدول مائي متعرّج ، وتنتشر في أرجائها المساحات الزراعية المزروعة بمحصول الذرة .. تتّجه القوّة نحو بضعة بيوت متفرّقة ، بعضها مبني من (اللبِن) والطين ، وقامت بتطويق هذه البيوت ، ثمّ دهمتها لتلقي القبض على حسّان ابن عمّ زيد ، وتحت فوّهات بنادق القوة المسلّحة يطلب منه المقدّم ياسين أن يدلّه على عائلة الشيخ خالد التي أمره زيد أن يحتجزها في القرية ، ومن دون

أيّ مقاومة تذكر يبدي حسّان المرتجف حتّى أخمص قدميه تعاونه الكامل للمقدّم ياسين قائلا :

– سيّدي إنّ ابن عمّي زيد طلب منّي أن أُسكن هذه العائلة .. عائلة أمّ زهراء قربنا ، وتولّي شؤونها لأنّها عائلة فقيرة من دون معيل ففعلت هذا ، وكان يرسل لي ببعض المال لإنفاقها على المرأة ، وابنتيها قربة إلى الله تعالى .

المقدّم ياسين : أين هي هذه المرأة ، وأين الطفلتان .؟

حسّان : سيّدي في ذلك البيت الطيني المحاصر من قبل الجنود .. على يميننا.

يتّجه المقدّم ياسين ، والرائد علي ، والنقيب مصطفى ، وبعض أفراد القوّة نحو البيت ، ومعهم حسّان ، وعند وصولهم إلى الباب طلب المقدّم ياسين من الجميع الحذر ، وأخذ ينادي بمكبّر الصوت :

– أمّ زهراء.. يا أمّ زهراء.. اخرجي .. نحن من القوات الأمنية لاتخافي أنت بأمان الان .. (يكرّر المقدّم ياسين نداءه أكثر من مرّة .. وماهي إلا دقائق حتى خرجت أمّ زهراء التي حفر الحزن أخاديده على وجهها محتضنة ابنتها آية ، وقد تغيّرت ملامحها كثيرا ، ثمّ تبعتها ابنتها زهراء بملابسها الرثّة ، وعينيها الدامعتين المتوسّلتين رحمة العيون وعطفها . يبادرها الرائد علي :)

– أمّ زهراء أنت في أمان الان .. أنت في حمى الدولة .

ينظر إليها النقيب مصطفى ، وقد عصرالألم قلبه إزاء حالة أمّ زهراء وابنتيها قائلا :

– زهراء.. ستعودين للمدرسة. ستعودين إلى أصحابك، وإلى السبورة وأقلام التلوين والكتابة، وستشمّين من جديد رائحة الأوراق والحقائب المدرسية .

بعد أن حدّقت أمّ زهراء بين الوجوه أنزلت طفلتها إلى الأرض ، وقد أعلمها قلبها بأنّ رياح الألم والحزن ستهبّ في أرجائها أكثر ممّا مرّت به طوال وجودها في هذه القرية .. أطلقت هذا السؤال الذي كان يخشى منه المقدّم ياسين والرائد علي والنقيب مصطفى:

– أين الشيخ خالد.؟ أين زوجي .؟ أين أبو زهراء .؟

حلّ الصمت المطبق على الجميع حتى آفاق السماء كأنّها أصيبت بالخرس فلاتجيب .

ننتقل معا إلى غرفة التحقيق في مكتب مكافحة جرائم الخطف .. يطوّق كلّ من المقدّم ياسين والمقدّم شجاع والرائد علي والنقيب مصطفى حسّان ابن عمّ زيد ، والعميد ضرغام يرقب المشهد من خلال الحائط الزجاجي ، وبادر المقدّم شجاع مبتدأ التحقيق مع حسّان :

– اسمع إنّ جريمتك المثبتة الان هي الاشتراك بخطف عائلة الشيخ خالد ، ومحاولة بيع أفرادها إلى العصابات الإرهابية للاتجار بالأعضاء البشرية.

يقاطعه حسّان ، وإمارات الرعب والقلق تكاد تقطّع أنفاسه :

– سيّدي أقسم لك بأغلظ الأيمان إنّني لم أفعل ما تقول .. إنّني ضيّفت عائلة أمّ زهراء عندي لقاء المكسب المالي فقط من ابن عمّي زيد ، ولاعلم لي بأيّ شيء اخر .

– إذن تعاون معنا حتّى تكون شاهد إثبات ، وسيأخذ القاضي تعاونك بنظر الاعتبار ، ومن المؤكد أنّ أم زهراء ستقف إلى جانبك إن كنت عاملتها وطفلتيها بخير .

– عاملتهم بكلّ خير صدّقني ..(ثمّ استدرك متلعثما :) أ. أ. أعترف لك لقد كنت مقصّرا معهم في الملبس والمأكل .. نعم كنت أحتفظ لنفسي بمعظم المال المخصص لهم من قبل زيد ، ولكنّني أبدا لم أوجّه إلى أمّ زهراء وأيّ من طفلتيها إساءة ما ، أو تعاملا مهينا غير التقصير في الملبس والمأكل ، وأنا أعتذر لأمّ زهراء بشدّة ، وأرجو أن تسامحني على ذلك .

– طيّب .. متى رأيت زيدا آخر مرّة ، وأين هو الان .؟

– آخر مرّة رأيت فيها زيدا عندما أتاني بعائلة أمّ زهراء قبل شهر تقريبا ، وأظنّه الان في بيته ببغداد في الجناح الملحق بجامع أبي البراء .

– لا .. إنّه ليس هناك . قل لي عن مكانه الآخر .

– لا أعرف سيّدي .

تناول المقدّم ياسين زمام التحقيق ، وقد زمّ على شفتيه :

– امممم .. بدأنا بالمراوغة ياحسّان .

– سيّدي أقسم لك بأغلظ الأيمان إنّني لم أر زيدا منذ أن جاءني بعائلة أمّ زهراء ، ولا علم لي أنّ له مكانا آخر غير جامع أبي البراء .

– حسنا .. متى اتصل بك هاتفيا اخر مرّة .؟

– قبل ثلاثة ايّام اتصل بي ليطمئنّ على عائلة أمّ زهراء .

– بماذا أخبرك .. تكلّم بصدق من دون مراوغة وإلا سترى وجها آخر منّي لن تتوقّعه أبدا .؟

يرتجف لسان حسّان، وهو يقول: أخبرَني حينها أنّه قد يزورني بعد اسبوعين ، ولم يحدّد يوما معيّنا ، وأنّه عندما يأتي ربّما سيأخذ أمّ زهراء وطفلتيها إلى مكان آخر.

يلتفت المقدّم شجاع ، والمقدّم ياسين إلى بعضهما بنوع من الفضول ، وكذلك فعل الرائد علي مع النقيب مصطفى .

المقدّم شجاع : إلى مكان آخر .؟

حسّان : نعم .. هكذا أخبرني أنّه سيأخذ عائلة أمّ زهراء إلى مكان آخر .. هذا كلّ ما أعرفه صدّقوني .

غادر جميع الضباط غرفة التحقيق متّجهين إلى العميد ضرغام في الغرفة المجاورة ، فأخبرهم العميد ضرغام بضرورة عمل خطة محكمة لإلقاء القبض على زيد من خلال الإفادة من هذه المكالمة الهاتفية ، وبضرورة أن يعود حسّان إلى بيته في القرية ، وأن يتمّ توصيته بعدم إخبار أيّ شخص عن التحقيق معه ، ومجيئه إلى هنا ، وإنْ زاره أقرباؤه ، والقريبون من بيته في القرية وسألوه عمّا جرى ، يخبرهم بوجود تشابه في الأسماء ، وأنّ الجهات الأمنية تحقّقت منه ، وعرفتْ أنّه ليس هو المقصود ، وتبليغه أنّ مصيره معلّق بالتعاون معنا ، وسيكون شاهد إثبات ، وستقف أمّ زهراء إلى جانبه في الشهادة أمام القاضي ، وسنضمن له الخروج بالبراءة من هذه القضيّة ، بل ربّما ينال مكافأة مالية كبيرة جدا تفوق ما كان يعطيه زيد بكثير.

تداخل المقدّم شجاع مع توصيات العميد ضرغام بقوله :

– نعم سيّدي ، وسنتحصّل على الموافقات الأصولية المطلوبة للقيام بمراقبة هاتفه الشخصيّ.

فأجابه العميد ضرغام بالموافقة : نعم ، وزوّدوه بهاتفنا الخاص ، واطلبوا منه أن يعلمنا من خلاله حالما يتصل به زيد ، وأن يخبرنا عن أيّ معلومات تتحصّل لديه مع قيامكم طبعا بمراقبة هاتف حسّان أربعا وعشرين ساعة ، وضعوا نقاط مراقبة سريّة دائمة في مداخل الطرق المؤدية إلى بيته... حسنا .. انطلقوا .

وبعد مضي أقلّ من أسبوعين على آخر اتصال بين زيد وابن عمّه حسّان ، وبينما ينشغل حسّان في رزم محصول الذرة يرنّ عليه الهاتف الذي قد كان وضعه في جيب (الدشداشة) الطويل ، ونظر إلى شاشته فإذا هو زيد يتصل به ، ومن فرط ارتباكه وقع منه الهاتف لكنّه استمرّ بالرنين ، فتناول الجهاز الخاص الصغير الذي زوّده به المقدّم شجاع ، وكان قد وضعه في جيب (الدشداشة) الثاني وضغط على الزر المثبّت فيه ليتوهّج الزر الأحمر وينطلق صوت التنبيه في مكتب العميد ضرغام ، ومكتب المقدّم شجاع والمقدّم ياسين ، كما انطلق صوت التنبيه في جهاز يضعه كلّ من الرائد علي والنقيب مصطفى علي جنبيهما معلّقا في حزام البنطال ، فيهرعان إلى مكتب العميد ضرغام ، وأبلغهما السكرتير أنّ العميد في غرفة التنصّت الخاصّة ، فأسرعا إليها ودخلا بهدوء من دون أن يظهرا أيّ صوت عالٍ ، ووجدا كلّا من العميد ضرغام والمقدّم شجاع والمقدّم ياسين يضع سمّاعة الصوت على جانبي رأسه ، وماهي إلا لحظات حتى نزعوا السمّاعات ، وبادر العميد ضرغام بالحديث معهم :

– لقد تمّ تسجيل المكالمة ، وسمعنا مادار من حديث بين زيد وحسّان .. إنّه سيأتي إلى بيته قبل ظهر يوم غد .. هلمّوا معي إلى مكتبي لوضع الخطة المناسبة كي نقبض على هذا المجرم الخطير.

في اليوم التالي تمّ تجهيز قوّة من فرقة الاقتحام بإمرة العقيد أسامة ، ورفقة المقدّم ياسين ، والرائد علي والنقيب مصطفى ، وتوثّبوا بانتظار أمر التوجّه إلى مكان وجود بيت حسّان في الصويرة ، والعميد ضرغام

بجنبه المقدّم شجاع يجلسان في غرفة التنصّت الخاص بانتظار إشارة من حسّان ، وماهي إلا دقائق مرّت على هذا المشهد حتى رنّ صوت جهاز التنبيه بيد كلّ من العميد ضرغام والمقدّم شجاع فوضع كلّ منهما السماعة على أذنه :

تحدّث حسّان والارتباك بادٍ عليه : ألوو .. أهلا زيد كيف حالك أهلا بك.

– أهلا بك حسّان .. مابك أشعر أنّ صوتك مرتجف هل هناك شيء .. حتى في مكالمتي إيّاك يوم أمس كنت بهذه الحال مابك قل لي .

هنا شعر العميد ضرغام ، والمقدّم شجاع بالقلق والتوجّس الشديدين .. لقد خشيا من أن يشعر زيد بشيء ما.

حسّان : لا .. ليس هناك شيء .. لكنّني أشعر بالبرد .

زيد : لكنّ الجوّ شبه حار بل سنغادر الربيع بعد أيّام مابك .

ردّ حسّان ، وبالكاد تمالك نفسه : أنا مصاب بالزكام ، والصداع من يوم أمس .. لقد خرجتُ من الحمّام ونمتُ من دون غطاء .

– حسنا .. عندما أصل فقط لاتقترب منّي كثيرا حتى لاتصيبني بالعدوى ، وأحضر لي طعام الغداء أنا في طريقي إليك .. سأصل في أقلّ من ساعة من الان.

– حسنا .. حسنا ابن عمّي مع السلامة .

يجري العميد ضرغام اتصالا بوحدة طائرات الشرطة المروحية ، ويزوّدهم بمصدر الذبذبات ، والتردّدات الخاصة بهاتف زيد ، ويطلب منهم تخصيص مروحية فورا لتتبّع مصدر التردّد ، ويعطي الإذن لوحدة الاقتحام بالتحرّك بعد نصف ساعة نحو الهدف حتى يسمحوا لزيد بالدخول في نطاق المنطقة من دون أن يلحظ سيّارات الشرطة ، ويتوجّس منها .

بعد مضيّ أقل من عشرين دقيقة أتى إشعار إلى مكتب العميد ضرغام برصد سيارة بيضاء عالية من نوع تويوتا ينطلق منها تردّد رقم الهاتف المطلوب ، وتمّ الطلب من قائد المروحية تتبّع السيّارة ، وإعطاء الإحداثيات بسير تنقّلها ، وكان العميد ضرغام بدوره ينقل هذه الإحداثيات إلى المقدّم ياسين وفريقه الأمني ، وإلى نقاط المراقبة السرية .. وصل زيد إلى المنطقة الزراعية المفتوحة ، وأبلغت نقاط المراقبة السريّة الفريق الأمني بدخول السيارة المبلّغ عنها الشارع المؤدّي الى القرية ، وبعد وصول زيد إلى بيت حسّان طرق الباب كثيرا إلا أنّ حسّان لم يفتح الباب ، فبدأ زيد بكيل الشتائم والألفاظ البذيئة بحقه حتى خرج له ، وهو مضطرب لايلوي على شيء ، فبادره زيد :

– مابك أيّها الأحمق .. لِمَ لم تفتح لي الباب .. هل جننت .؟

لم ينبِسْ حسّان ببنت شفة ، ولمّا دخل زيد البيت أخذ حسّان بالتلفّت يمينا وشمالا وهو في غاية الاضطراب ، وأثار منظره شكوك زيد فقال له :

– إنّ وضعك غير مريح .. ماذا فعلتَ أخبرني .

واندفع باتجاه حسّان شاهرا مسدسه ، وأمسكه بعنف من رقبته صارخا بوجهه:

– قل لي ما الذي يجري .. ماذا فعلت .. تكلّم وإلا أفرغتُ هذا المسدّس في رأسك العفن .؟ (حينها صرخ حسّان بهستيريا :)

– لاتقتلني .. لاتقتلني .. إنّهم أجبروني على ذلك .

ردّ زيد بغضب بالغ : من هم تكلّم ماذا فعلت .؟

بينما هو في هذه الحال تناهى إلى سمعه صوت الطائرة المروحية التي اقتربت من البيت وقامت بالتحليق فوقه ، ثمّ صوت حركة السيارات الخاصة بفريق الاقتحام ، وهنا صرخ زيد بوجه حسّان:

– لقد فعلتها ياخائن .. غدرت بي عليك لعائن الله .

أجاب حسّان بذعر وتوسل : لم أغدر بك .. هم أجبروني على ذلك أقسم بالله .

زيد : أنت لا تستحقّ منّي غير الموت .

أطلق زيد عدّة عيارات نارية من مسدسه على حسّان فأرداه قتيلا في الحال ، وحاول الهرب من خلف المنزل إلا أنّ القوّة الأمنية قد طوّقت المكان ، ولم يعد للخلاص من طريق ، فألقى سلاحه ، وتمّ إلقاء القبض عليه ..

في الوقت نفسه الذي بدأت فيه عملية إلقاء القبض على زيد .. يدخل مبنى وزارة الداخلية رجل يرتدي بدلة رسمية من دون ربطة عنق ، ويحمل طردا كبيرا ، وأبرز هويّته الخاصة ، وورقة تحمل ختما رسميا إلى مسؤول الحرّاس في بوّابة الوزارة الذي يوجّهه إلى قاعة صغيرة تقع في نهاية الممرّ قبل البوّابة المؤّدية إلى مداخل الوزارة الرئيسة .. يتوجّه الرجل ماشيا بثقة وبخطى منتظمة ، وعيناه ترصدان الغرفة التي يتّجه إليها كأنّها فريسة وحيدة في غابة موحشة ، وحالما فتح باب غرفة القاعة أوقفه الشرطيّ الجالس على طاولة بجنب الباب ، فيبادره الرجل بالتحية :

– صباح الخير أنا من دائرة الاستخبارات في الأمن الوطني ، وأحمل هذا الطرد إلى العميد ضرغام مدير مكتب مكافحة جرائم الخطف ، ويجب أن يتسلّمه شخصيّا حسب الأمر الموجود في هذا الكتاب الرسمي .

أبرز له الكتاب الصادر من دائرة الاستخبارات في الأمن الوطني ، وقام الشرطيّ بتسجيل البيانات الموجودة فيه ، ثمّ قام بالتوقيع عليه وختمه ، وطلب منه إبراز هويّته ليقوم بتفحّصها ، ثمّ تسلّم منه الطرد ، فاستشعر بثقله نوعا ما فقال للرجل :

– ماهذا الطرد .؟

ردّ الرجل بنبرة واثقة : إنّه مليء بالوثائق والمبرّزات الجنائية كما هو مذكور في الكتاب الرسمي .

الشرطي : حسنا ادخل الباب الذي على يساري وسّلم الطرد والكتاب إلى الشرطي المسؤول عن فحص الطّرود بالجهاز الإلكتروني .

اتّجه الرجل إلى الشرطي المسؤول عن الجهاز ، وألقى التحيّة عليه فالتقت عيون تشترك في إبداء مشاعر التوجّس والقلق ، ومن دون أن يردّ عليه التحيّة يأخذ الطرد والكتاب الرسمي منه ويضعهما جانبا ، ثمّ قام بوضع طرد مشابه لشكل الطرد الذي تسلّمه من الرجل في جهاز الفحص الإلكتروني ، ومرّره عبر الشاشة والمجسّ الحراري ، ثمّ قام بوضع الختم الذي يؤيد سلامة الفحص على الطرد الأصلي الذي لم يمرّره في الجهاز أصلا ، وسلّمه إلى الرجل قائلا :

– خذ الطرد واتّجه به إلى مكتب مكافحة جرائم الخطف في الطبقة الثالثة من مبنى الوزارة ، وسلّمْه إلى سكرتير مدير المكتب سأتصل به حالا، وأعلمه بقدومك إليه.

حمل الرجل الطرد ، واتجه به إلى مكتب العميد ضرغام ، وقد بدأت يداه بالارتجاف ، ثمّ سلّمه إلى السكرتير الذي تأمّل في سحنته ، ونظر إلى الختم الموجود على الطرد ثمّ قال :

– سأوصل الطرد إلى سيادة العميد .

– حسنا .. أشكرك .. إلى اللقاء .

– إلى أين .؟ (أحسّ الرجل بنبضات قلبه تكاد تشقّ السماء ثم استأنف السكرتير كلامه :)

– لقد نسيتَ أن توقّع على سجل التسلّم والتسليم ..

بعد مضي دقائق معدودة يدخل السكرتيرغرفة العميد ضرغام الذي أغلق هاتفه للتوّ ، وقد كان متهلّلا لإبلاغه بإلقاء القبض على زيد ، وسلّمه الطرد مع الكتاب الرسمي المصاحب له قائلا :

– سيّدي إنّه من دائرة الاستخبارات في الأمن الوطني سرّي ومباشر لحضرتك ، وقد تمّ فحصه بحسب الاجراءات الأصولية المتبعة .

العميد : طيب .. أشكرك ابني .

أعطاه السكرتير الطرد وانصرف إلى مكتبه ، وما أن فتح العميد ضرغام الطرد حتّى دوّى انفجار كبير حوّل غرفته إلى كرة لهب حمراء لتفارق روح العميد ضرغام جسده ، وتعلن سقوط النجم الساطع .

أخذ الناس يعلنون احتجاجهم العلني على خطف القامات الأدبية والعلمية المثقفة ، وعلى قتل الأبرياء ، وبين يوم واخر تتجمّع الجماهير هنا أو هناك للتعبير عن احتجاجهم وسخطهم ممّا يجري ، وأخذت الصحف والقنوات المرئية ، والمسموعة تنشر المقالات ، والتحقيقات والمقابلات التلفازية التي تتناول قضايا الفساد ، والتراجع في الملف الأمني..

في ظلّ هذه الأجواء دخل مدير مكتب وزير الداخلية غرفة الوزير ، وبيده رزمة من الصحف ، وضرب الأرض برجله مؤديا التحية قائلا :

– سيّدي هذا عدد من صحف اليوم ، وفيها تأكيد لما وصلك من خبر حول نشر ادعاءات واتهامات موجهة لحضرتك .(تناول الوزير رزمة الصحف وأخذ بتقليب عدد منها وقراءة بعض عناوينها الرئيسة :)

– (اختراق العصابات الإرهابية لوزارة الداخلية ، والفساد فيها يوديان بحياة مدير مكتب مكافحة جرائم الخطف.....) ، (تفجير مكتب مدير مكافحة جرائم الخطف بسبب اكتشاف مؤامرة من جهة سياسية يتستّر عليها الوزير) ، (عَقْدٌ تشوبه رائحة الفساد لشراء سيارات دفع رباعي لوزارة الداخلية لاتتمتع بالمواصفات المطلوبة بتواطئ من وزير الداخلية..)، (اكتشاف ١٠٠٠ شرطي وهمي ليس لديهم وجود حقيقي في الوزارة ، ومن وقّع على تعيينهم وصرف رواتبهم وزير الداخلية نفسه...)

تنتفخ أوداج الوزير ، ووقف غير مصدّق لما يقرأ صارخا :

– ما هذا الهراء .!؟ اسمع حرّك دعاوى قضائية على هذه الصحف ، ووجّه بإجراء تحقيق عن خلفيات هذا الهراء ، والتسقيط الرخيص .

****

في عصر يوم مضطرب تتلألأ ساحة الاحتفالات الكبرى في بغداد . حيث الحضور الكثيف لوسائل الإعلام بكاميراتها المختلفة الأحجام ، ولاقطات الصوت التي تتنقّل هنا وهناك بيد المراسلين الخبريين .. يصطف في الساحة جنود بملابس المراسيم الخاصة بحرس الشرف الجمهوري ، ويرتدي بعضهم خوذا يعلوها ريش أبيض ..

أخذ الجنود شكل صفّين جانبيّين تتوسّطهم مركبة رئاسية سوداء بحوض خلفي يحتضن جنازة العميد ضرغام محمود الذي استشهد ظهر يوم أمس بانفجار قنبلة مركّبة في طرد ملغّم استطاع (الحزب) إيصاله إليه عن طريق أحد عناصره بكتاب مزوّر عن استخبارات الأمن الوطني ، وتواطئ من قبل الشرطي المكلّف بتفتيش الطرود الذي اختفى عن الأنظار ، وهرب إلى خارج العراق مساء اليوم نفسه .

يحيط بالمركبة السوداء ثلّة من المسؤولين ، وأمام المركبة يقف المسؤولون الكبار في الدولة يلوح بينهم رئيس الوزراء ، ووزير الداخلية ببدلات سود وأربطة سود ، ومن خلفهم يتحشّد ذوو الفقيد ومحبّوه من نساء ورجال ، وتبين سعاد ورؤى بملابسهما السوداء من بين الحضور ، ويتقدّم الجميع قادة كبار ، وضباط ومنتسبون من وزارة الداخلية ،

والعديد من منتسبي مكتب مكافحة الإجرام يتوسّطهم الفريق الأمني الذي عمل مع الفقيد.

من ثمّ تقف ثلاثة صفوف من جنود مراسيم الشرف يحملون بنادقهم بطريقة معكوسة (مُنكّسة) حيث تبدو فوّهات البنادق متجهة للأسفل دلالة على المسير التأبيني ، واعتلى المركبة أربعة جنود من مراسيم الحرس الجمهوري ، اثنان واقفان في مقدّمة التابوت المغطّى بالعلم العراقي تتوسّطهما صورة للعميد ضرغام ، واثنان من خلفه ، وتتقدّم الجميع الفرقة الموسيقية التي يأمر قائدها بعزف الموسيقي التأبينية معلنا بدأ مراسيم التشييع الرسمية . حيث يسير أفراد القوى العسكرية بمشية خاصة تميل إلى اتساع الخطى وانحرافها تارة إلى اليمين ، وأخرى إلى اليسار صانعة جوّا مهولا من المهابة مقرونا بالحزن الشفيف .. أثناء المسير يلتفت رئيس الوزراء إلى وزير الداخلية قائلا له :

– اسمع أريدك اليوم الساعة الثامنة مساء مع مجموعة المرحوم العميد ضرغام في اجتماع خاص في مكتبي الرئاسي جالبا معك كلّ الوثائق والأدلّة، والمعلومات المتحصّلة عن القضيّة التي قُتل بسببها العميد ..

****

تلوح في الأفق المنطقة الخضراء ببغداد .. حيث تزدان بالقصر الجمهوري العتيد بطرازه الفريد الذي يجمع بين التراث والحداثة ، وفيه مكتب رئيس الوزراء .. دخل وزير الداخلية الذي يتأبط عددا من الملفّات ، والصحف يصحبه وكيله برفقة الفريق الأمني الذي كان يرأسه

العميد ضرغام القصر الجمهوري ، ودلفوا إلى مكتب رئيس الوزراء الذي رحّب بهم ودعاهم إلى الجلوس ، وبعد تقديم الضيافة لهم طلب من وزير الداخلية شرح الموقف الأمني المتعلق بتداعيات مقتل العميد ضرغام .

قدّم وزير الداخلية وثائق القضايا المتعلّقة بمقتل الشيخ خالد وتحرير عائلته من قبضة الخاطفين ، وخطف القاص صالح ومقتل عائلته ، وخطف الأكاديمي والإعلامي د.سالم مرفقة بأقراص مدمجة تتضمّن تسجيلات مصوّرة لاعترافات من ألقي القبض عليهم ، وبعد أن أنهى رئيس الوزراء مطالعة سريعة لعدد من الوثائق ، وبعد سماعه للاعترافات لاسيّما القرص المدمج الذي يعترف فيه زيد بمسؤوليته عن اغتيال الشيخ خالد وخطف عائلته ، وسعيه لبيعهم لعصابات تتاجر بالأعضاء البشرية ، وأنّه ينتمي إلى (الحزب) الذي يسعى للاستيلاء على السلطة .. طلب رئيس الوزراء إعادة تشغيل القرص من لحظة ذكر زيد لـ(الحزب) :

(صوت زيد جوابا على سؤال المقدّم شجاع) : سيّدي .. إنّنا نتلقّى الأوامر والتوجيهات من الشيخ أبي البراء الذي ينطلق في توجّهاته من (القائد) .

(صوت المقدّم شجاع) : من هو (القائد) وضّح لنا بالتفصيل لاسيّما أنّك كنت تلتقيه مع أبي البراء بين فترة وأخرى ، وآخر مرّة التقيتَه فيها قبل أن نلقي عليك القبض بأيّام حسب اعترافات عبد الرحمن . ؟

(صوت زيد) : (القائد) شخصية عظيمة كنا متأثرين به جدا. إذ إنّ لديه شخصية قيادية ساحرة يستطيع أن يوجّهنا من خلالها لأي شيء يريده .. كنّا نخضع له بطريقة عجيبة .

(صوت المقدّم ياسين الذي ردّ بحنق واضح) : لأنّ شخصيّتك ، وشخصيّة أمثالك إجرامية تكون ضعيفة أمام من يتسم بروح إجرامية أكبر منها .

(صوت المقدّم شجاع) : من هو (القائد) ما اسمه .؟

(ردّ عليه زيد بهدوء) : .إنّه ..... !!!!

(صوت المقدّم ياسين الذي بادر بسؤاله) : أين يقيم هذا (القائد) .؟

(ويردّ عليه زيد بتفاصيل المكان الذي يسكن فيه(القائد)): إنّه في.....!!!

(انتهى التسجيل) .

التفت رئيس الوزراء محدّقا بوزير الداخلية، ووكيله والفريق الأمني قائلا:

– إنّ فقدنا للعميد ضرغام ، والقضايا الإجرامية التي عُرِضتْ تفاصيلها الان ، وربّما هناك الكثير من مثلها غير ظاهر للسطح ولم يُكتشف ، يشير إلى خلل كبير في عمل وزارة الداخلية .

طلب وكيل الوزارة الإذن بالكلام ، ووضّح له أنّ (الحزب) حقيقة واقعة، وأنّ (القائد) قد شارك في الانتخابات قبل الماضية تحت مسمّى كيان

سياسي معيّن ،وكان له عدد من النواب في البرلمان معروفين بآرائهم المتشدّدة والمتطرّفة، وأنّ له أتباعا وعيونا في كلّ مفاصل الدولة .. لهذا سَهُلَ عليهم اختراق مبنى وزارة الداخلية ، وتنفيذ جريمتهم الجبانة.

أخذ رئيس الوزراء بتوزيع نظراته الحائرة بين الحاضرين ، ثمّ شكر الجميع وأذن لهم بالمغادرة إلا وزير الداخلية فقد طلب منه البقاء ، وبعد خروجهم التفت إلى وزير الداخلية قائلا له:

– سيصلك قرار إعفائك من منصبك يوم غد ..

شكّل هذا الكلام صدمة قوية بحق الوزير الذي ردّ ممتعضا بشدّة:

– سيادة رئيس الوزراء لاتتسرّع إنّ ماتسمعه ، وتقرأه في بعض الصحف عنّي ماهو إلا مؤامرة تسقيطية من قبل الحاقدين ، والجهة السياسية التي أنتمي إليها متمسّكة بي على رأس وزارة الداخلية .

فأجابه رئيس الوزراء مصمّما : لابدّ لي من إعفائك ، إنْ لم أفعل فإنّ جماهير الشعب ستقتحم عليّ القصر الجمهوري نفسه ، ولن يبقى لا أنا ، ولا جهتك السياسية في المشهد .

****

توسّط وكيل الوزارة الفريق الأمني لمكتب مكافحة جرائم الخطف . إذ تولّى قيادة المكتب بعد وفاة العميد ضرغام بحضور رؤى والمحرّرة سعاد ، متفحّصا وجوه الجميع .. وبعد برهة صمت توجّه للحديث إليهم:

– سيوزّع بينكم العدد الجديد من جريدة الحريّة التي نشرت مقالة جديدة للدكتور سالم .. أرجو تفحّص كلّ حرف منها ، وبعدها نجمع كلّ عناوين المقالات التي نشرها الدكتور لندرسها جيّدا ، ونحاول استخراج شيء منها .

تسلّم كلّ واحد منهم نسخة من الجريدة ، وبدأوا الإمعان في القراءة والتأمّل الطويل في المقالة .. مرّت الدقائق في صمت مطبق للحاضرين ، واستأنف وكيل الوزارة كلامه :

– عنوان المقالة الجديد مثلما ترون هو: (لننظر في ماضينا ، ونصوغ منه حاضرنا) ، فما هي انطباعاتكم عن عنوان المقالة .؟

المقدّم شجاع : يبدو أنّ د.سالم في وادٍ ونحن في وادٍ آخر .. أشعر كأنّه لم يتنبّه إلى أيّ إشارة منّا.

الرائد علي: (المدرّس شعلة تحترق)، ثمّ (البنوك الأهلية بين الواقع والطموح) والان(لننظر في ماضينا، ونصوغ منه حاضرنا) أيّ ربط بين هذه العناوين.؟

طلبت رؤى الإذن بالحديث : أعتقد أن عنوان المقالة الأخيرة يشير إلى التمعّن بعنواني المقالتين السابقتين ، والنظر فيهما جيّدا.

وماهي إلا لحظات ، وفي آن واحد تلتفت رؤى وسعاد إلى بعضهما فاغرتين فاههما ، وبدأتا تتمتمان :

– المدرّس .... فهمي المدرّس ... البنوك الأهلية ....منطقة البنوك .

علا صراخهما بجنون وهما تصيحان :

– وجدناها وجدناها .

أشرق وجه الوكيل صائحا : ماذا ...ماذا وجدتما .؟

قالت رؤى باندهاش وحماس شديدين : إنّ المقالتين تحملان عنوانا لمنطقة سكنية .

المقدم شجاع : أيّ عنوان ؟ وعنوان مَنْ ؟

التفتت إليه سعاد قائلة : إنّ المقالتين الأوليين تشيران إلى منطقة البنوك التي يقع فيها شارع فهمي المدرس .

ردّ الوكيل بحماس : إنّه يشير إلى مكان احتجازه .. الأوغاد احتجزوه قرب منطقته حتى يسرعوا بإخفائه ، ولايتعرّضوا إلى مخاطر التنقّل .أحسنتما رؤى وسعاد .

ثمّ جال وكيل الوزارة في وجوه الجميع ، وبوجه يضجّ بالحماس والانفعال أخبرهم بوجوب عمل خطة للتواصل مع د. سالم ، وإعلامه أنّهم قد فهموا مايريد إيصاله بوساطة عناوين مقالاته ، ولكنّ الخطوة الأولى تكمن بزرع مخبرين سرّيين في العديد من الأمكنة داخل منطقة البنوك ، وطلب من المقدم شجاع استحصال الموافقات الأصولية لوضع جميع خطوط الهاتف والإنترنت في هذه المنطقة تحت المراقبة السريّة على مدار اليوم ، ثم التفت إلى المقدّم ياسين ، وطلب منه أن

يقوم بنشر المخبرين بين المطاعم التي تتوفّر على خدمة نقل الطعام إلى الزبائن في البيوت وأماكن العمل ، فربّما زوّد هذا الأمر الفريق الأمني بمعلومات ما .

((الألمُ مخيفٌ عندما يكشف عن وجهه الحقيقى ، لكنّه ساحر عندما يكون تعبيرآ عن التضحية أو التخلّى عن الذات .))

باولو كويلو (بتصرّف)

مرّ شهر على آخر رسالة تلقّتها رؤى من أبيها ، ولم تسفر عمليات البحث والتحرّي عن شيء يساهم في تقدّم مجريات التحقيق في اختطاف أبيها والاستدلال على مكان وجوده ، وفي عصر يوم هادئ لاتشوبه سوى زقزقة العصافير حيث مكان احتجاز د.سالم في منطقة البنوك جالسا أمام الشباك الضخم المحكم الإغلاق بقضبانه المزخرفة ، وزجاجه المعتم ، وبعد أن تعرّف على مكان احتجازه من خلال الاتصال الهاتفي الذي أجراه أحد الحرّاس مع المطعم القريب من الدار معطيا إيّاه العنوان لإيصال الطعام إليه ، وكان هذا الحارس لايعلم أنّ د.سالم يستمع إليه .. في عصر هذا اليوم الهادئ سائل د.سالم نفسه بحماس وانفعال :

– كيف أستطيع أن أخبر رؤى عن مكاني ..

متوسّلا بكثير من الأفكار لعلّه يجد فكرة ما يستطيع من خلالها إيصال عنوان احتجازه في منطقة البنوك من دون إثارة الشكوك لأنّه يخشى أن يلفت أنظار خاطفيه ، وفي الوقت الذي كان فيه د. سالم يفكّر في إيجاد وسيلة لإبلاغ ابنته عن مكان احتجازه كان الفريق الأمني برئاسة وكيل الوزارة منشغلا بصورة كبيرة في بحثه عن وسيلة ما يتمكن من خلالها من العثور أيضا على مكان احتجاز د. سالم ..

ما أن انتظم الفريق الأمني بحضور سعاد ورؤى أخبرهم الوكيل بالحاجة إلى إرسال رسالة أخرى إلى د.سالم عن طريق رؤى يتمّ إخباره فيها بطريقة خفية أنّ الشرطة تمكنت من معرفة منطقة احتجازه من خلال جمع عناوين مقالاته ، ولكنها تحتاج إلى الاستدلال ولو إلى الشارع

المؤدّي إلى مكان الاحتجاز ، أو أيّ معلومات من الممكن أن يزوّدها بها .

اقترح المقدم شجاع اللجوء إلى أمّ وليد عمّة رؤى هذه المرة حتى تقلّ فرص إثارة الشكوك لدى الخاطفين ، فمن خلال هاتفها يمكن بعث رسالة ما تنبّه د. سالم إلى أنّنا ننتظر المزيد من المعلومات لاسيّما مكانه ، ولوعلى سبيل التقريب.

أمرالوكيل بإعداد صياغة الرسالة ، واتفقوا على هذه الصيغة التي بدأ بقراءتها أمام الفريق الأمني :

– (أخي أبو رؤى العزيز كيف الأحوال.. متى ستأتي إلى لندن اشتقت لرؤيتك إنّ صحتي ليست على مايرام. لقد طلب مني الطبيب الانتقال إلى المستشفى لعمل فحوصات مختبرية وشعاعية كاملة أرجوك اتصل بي .. إنّي بحاجة إليك .)

ثمّ توجّه الوكيل بكلامه إلى رؤى : نحن نتوقّع أن تسمح العصابة لأبيك بالاتصال والاطمئنان على عمّتك حتى تبعد أيّ شكّ عن أحواله ، وعندما يتمّ الاتصال ستقول أمّ وليد بعد تبادل التحايا بينهما الكلام الاتي (يستأنف الوكيل القراءة من الورقة نفسها :)

– (لقد ذهبتُ إلى المستشفى ، وأجروا لي الفحوصات اللازمة ، وأنا بانتظار التشخيص النهائي لحالتي الصحية ، وحالتي الان مستقرّة نوعا ما .)

وبعد أن يطمئنّ والدك على أحوال عمّتك ، وقبل أن تودّعه عليها أن تقول الآتي :

(على فكرة إنّ رؤى قد أعجبت بمقالاتك الأخيرة كثيرا. إذ تقرأها من العنوان الموحي إلى آخر النصّ ، وتقول إنّ أصدقاءها يريدون منك التواصل في مثل هكذا معلومات بعناوين مؤثّرة حتى يستدلّوا أكثر على الطريق المؤدّي إلى نقطة الارتكاز في المقالات بعد أن استوعبوا جيدا مقالاتك السابقة من العنوان إلى كامل النص .)

بعدها فلتتحدّث عمّتك بما تشاء، ولكن تكون ردودها حذرة جدا.

طلبت رؤى توضيحا أكثرعن هذا الأمر ، وكيفية أدائه بصورة لاتثير أيّ شك لدى الخاطفين ، وهنا قال لها الوكيل إنّه سيكلّف النقيب مصطفى بالسفر معها إلى لندن للاجتماع بعمّتها ، وترتيب هذا الأمر بكلّ حرفية ، وسيكون موعد السفر خلال يومين ، فشعرت رؤى بفورة من الأدرينالين تسري في عروقها . إذ تخيلت أنّها شرطيّة ، وتنتمي فعلا لفريق التحقيق بمكتب مكافحة جرائم الخطف .

****

تأخذنا مجريات الأحداث إلى معرض أربيل الدولي للكتاب .. إذ يدخل محمد جابر المسؤول الثقافي لـ(الحزب) المعرض متجوّلا بين أروقته قبل يوم من افتتاحه الرسمي ، وبيده رواية القاص صالح (الملك والرعيّة) ، يقف في أكثر من دار نشر عراقي وعربي متحدّثا مع مندوبي هذه الدور عارضا عليهم تأجير مساحات معينة من واجهات

عرض كتبهم للجمهور في المعرض لقاء مبالغ مالية مغرية، والغرض من ذلك ضخ مئات النسخ من رواية (الملك والرعية) أمام الجمهور.

يوافق عدد كبير من دور النشر على هذا العرض . إذ اعتقدوا أنّ تخصيص مساحة صغيرة في واجهات عرض الكتب بدور النشر الخاصّة بهم سوف لن يؤثر في هدف الترويج لكتبهم ، وسيكسبون لقاء ذلك مبالغ مغرية . في اليوم التالي الساعة الرابعة عصرا بدأ افتتاح فعّاليات معرض الكتاب الدولي في أربيل وسط حضور فاعل لوسائل الإعلام العراقيّة والعالميّة التي بثّ بعضها فعّاليات الافتتاح على الهواء مباشرة .

كما حضر الجمهور العراقي بكثافة لافتة ، وحتّى الجمهور العربي. إذ حضر مئات المهتمّين بالأدب والمعارف من الدول العربية للاطلاع على هذا المعرض ، فدائما ما تثير معارض الكتب العراقية اهتماما واسعا لجودة المعروض من فنون المعرفة المختلفة.

تجوّل الجمهور بين دور النشر مقلّبين أنواع الكتب المختلفة في مشاربها وأجناسها ، ومالفت الحاضرين أنّهم يصادفون رواية (الملك والرعية) في العديد من مساحات العرض لدور النشر. كما ازدانت العديد من آلات التصوير الخاصة بالقنوات الفضائية ، وهي تتجوّل في المعرض بصور الرواية ، وماهي إلا ساعة واحدة مرّت على افتتاح المعرض حتّى وصلت هذه الصور إلى مكتب مكافحة جرائم الخطف، وطلب الوكيل من الفريق الأمني أن يجتمع بعجالة ، وتباحثوا أمر وصول الرواية بهذه الأعداد الكبيرة حسب توضيح الخلية الاستخباراتية

الموجودة هناك ، وطلب الوكيل من المقدّم ياسين والرائد علي التوجّه فورا إلى أربيل لتقصّي الحقائق وجمع المعلومات المطلوبة ، ولم تمض سوى خمس ساعات حتى دخل الاثنان المعرض في الساعة العاشرة مساء تقريبا في وقت بدأ روّاده بالخروج منه .

توجّه الاثنان نحو دور النشر التي أجّرت جزءا من واجهات عرض الكتب لرواية صالح (الملك والرعيّة) ، وبدءا بجمع المعلومات عن الرواية ومن أيّ طريق حصلوا عليها ، وكان الجواب واحدا أنّهم أجّروها استجابة لطلب شخص مجهول ، ولم يروا أنّ عملهم هذا فيه تجاوز على قوانين المعرض وتعليماته ، وكان الضابطان بعد نهاية كلّ حوار مع مسؤول لدار نشر يُخرجان الصورة الوحيدة التي تحصّلوا عليها التي تعود لمحمد جابر ، وكانت الإجابة واحدة : نعم إنّه الشخص نفسه الذي قدّم لهم عرض تأجير مساحة صغيرة لعرض الرواية ، واتفقوا معه.

يتصل الضابطان بمقرّهم ، وأعطوا ماتحصّلوا عليه من معلومات إلى الفريق الأمني.

رفع الوكيل هاتفه متصلا بوزير الداخلية الجديد مفصّلا له القول عن المستجدات التي توصّل إليها الفريق الأمني ، فبدأ الوزير من فوره اتصالاته المتعدّدة بالجهات الأمنية في أربيل ، وزوّدهم بكلّ المعلومات المتحصّلة لدى مكتب مكافحة جرائم الخطف ، وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريبا تمّ إبلاغ الفريق الأمني برئاسة الوكيل بالتوجّه إلى السليمانية بطائرة مروحية تابعة لوزارة الداخلية ، ففي انتظارهم فرقة

المهمّات الخاصة التي حدّدت مكان سكن محمد جابر في مجمع جافي لاند .

دقّ جرس شقة واسعة في مجمع (جافي لاند) السكني في السليمانية ، تكرّر دقّ الجرس مرّة ثانية وثالثة ، وفي الدقّة الأخيرة فتح ساكن الشقّة الباب بتثاقل ، وما ان أكمل فتح الباب حتى انفجرت قنبلة دخانية قريبا منه ، واقتحمت الشقة مجموعة من الجنود الذين يرتدون أقنعة واقية من الغاز ودروعا ضدّ الرصاص شاهرين أسلحتهم ، وهم يصرخون :

– انبطح .. انبطح أرضا .. انبطح أرضا .

بدأ دخان قنبلة الغاز يخفّ شيئا فشيئا .. بعدها دخل الوكيل وفريقه الأمني الشقة ، وأمسك الوكيل بكتف الرجل صاحب الشقّة ، وهو ممدّد والرعب يكاد يقتله ، وأداره على ظهره ليقابل وجهه قائلا :

– لقد وصلنا إليك محمد جابر . أيّها الأديب الفاشل .

طلب الوكيل من المسؤول الأمني في السليمانية أن يحتجز محمد جابر في أحد مراكز الشرطة، والتفت إلى المقدّم شجاع طالبا منه الذهاب إلى المعرض الدولي للكتاب صباحا مع أحد أفراد الأمن في أربيل لكي يطلب من مسؤولي دور النشر الّذين يعرضون رواية صالح أمين في مساحاتهم المخصصة للعرض أن يحضروا إلى مركز الشرطة ليتعرّفوا على محمد جابر ، ويشهدوا أنّه هو من طلب منهم تخصيص أمكنة في واجهات العرض للرواية ، وتصديق أقوالهم قضائيا طالبا بإبقاء نسخ رواية صالح بمكانها في مساحات عرض الكتب حتّى لايثيروا

الانتباه ، ويعرّضوا حياة القاص صالح للخطر، وقبل أن يغادر المكان التفت إلى المسؤول الأمني لمدينة أربيل قائلا :

– هل معرض الكتاب مغطّى بكاميرات مراقبة من الداخل والخارج .؟

فأجابه المسؤول الأمني : نعم سيّدي مراقب من مداخله الخارجية ، كذلك نصبنا كاميرات مراقبة في أروقة المعرض الداخلية .

يبتسم الوكيل، والارتياح الكبير قد غلب على وجهه قائلا له: سيرافقك المقدّم شجاع من فريقي الأمني لجلب شرائط فيديو المراقبة الموجودة قرب أمكنة عرض دور النشر من أول يوم بدأت التصوير فيه.

****

غرفة التحقيق في مكتب مكافحة جرائم الخطف .. يقف المقدّم ياسين على رأس محمد جابر قائلا له :

– الان بعد عرض كلّ هذه الأدلة لامجال للإنكار .. أنت متهم بخطف القاص صالح ، وقتل ولده وزوجته .. أي أنّ حبل المشنقة في انتظارك عاجلا وليس آجلا ... دلّنا الان على مكان احتجاز القاص صالح ، وإلّا ستجد منّي يا فاشل ما لايسرّك .

فأجابه محمد جابر والإعياء بادٍ عليه : إنّه محتجز في إحدى البنايات القديمة المعزولة التي يؤدي إليها ممرّ ترابي ينسدل من الشارع الرئيس الممتدّ لإحدى الضواحي شمالي بغداد.. هذا المكان يعود إلى فاتك ذراع أبي الأسيد الأيمن..

وتداخل المقدّم شجاع الذي كان بجوار المقدّم ياسين في الحديث:

– كيف جرت عملية قتل عائلة القاص صالح .؟

محمد جابر : لقد أقررتُ لكم أنّ أبا الأسيد وجماعته هم من احتجز زوجة صالح أمين وابنه ، وقلت لك إنّني كنت موجودا ساعة اقتحام البيت وخطفهما ، وعلمتُ بعد حين أنّ فاتك قد اكتشف أنّ مثنّى يراسل وزارة الداخلية سرّا ، فقام مع أبي الأسيد وجماعته بقتله مع أمّه في مخزن متروك يعود إلى أبي الأسيد ، ولم أشارك على الإطلاق بهذه الجريمة المروّعة ، ولم أكن معهم .

ردّ عليه المقدّم ياسين بنفاد صبر :

– الان تعترف أنّها مروّعة .. ماذا تظنّ أنّ (الحزب) فاعل لبلوغ أهدافه القذرة .. لقد وضعتَ يدك بيد القتلة والسفّاحين ، وأنت كنت مدركا أنّ هؤلاء لايتورّعون عن ارتكاب أيّ شيء يخدم مخطّطاتهم المشبوهة ... الان لنعد إلى حوارنا الأوّل هل أنت مستعدّ للاتصال بأبي الأسيد كي نوقع به في مكان احتجاز القاص صالح .؟

تأخر محمد جابر في الإجابة ، ولاحظه المقدّم شجاع كأنّه في لحظات ذهول وغير مستوعب مايحصل له فهمس بأذنه:

– لاتنسَ يامحمد أنّ تعاونك الكامل معنا سينظر إليه قاضي المحكمة بعين الرعاية والاهتمام .

يرفع محمد جابر نظره إلى المقدّم شجاع بعينين خاويتين يائستين كأنّه يقول متمنّيا : (أرجوك لاتدع القاضي يرحمني في العقوبة .. فلْيأمر بإنهاء حياتي بأسرع مايمكنه) ، وردّ بنبرة يُشمّ منها الصدق :

– لايسمح أبو الأسيد بالاتصال به أبدا ، فإن قمتُ الان بإجراء اتصال معه حتما سيشكّ في الأمر لاسيّما أنّ (الحزب) يعلم بأنّكم كنتم تتابعونني وتجمعون المعلومات عنّي ، وتبحثون عن الأماكن التي من الممكن أن أكون موجودا فيها ... نفسه القائد حذّرني من هذه المتابعة.

يغادر الضابطان غرفة التحقيق ، ويجتمع الفريق الأمني في مكتب الوكيل الذي بادرهم بالقول :

– يجب الإسراع اليوم برسم خطة اقتحام مكان احتجاز القاص صالح أمين .. إنّ أيّ تأخير من شأنه أن يشكّل خطرا على حياة الأديب .. سيلاحظون اختفاء محمد جابر المسؤول الثقافي للحزب .

يسرع الفريق الأمني للتنسيق مع الجهات الأمنية الأخرى لغرض الاستعداد لاقتحام مكان احتجاز القاص صالح أمين ، وتم الاتفاق على ساعة الصفر ، وبعد تهيئة كلّ المستلزمات الاستخبارية قامت قوّة الاقتحام الخاصة بوزارة الداخلية ترافقها مروحيتان قتاليّتان بالهجوم على مكان احتجاز القاص صالح ، وبعد انفجارات لقنابل دخانية ، ومواجهة نارية اقتحم الجنود أروقة المكان بصيحات مدوّية ، وما أن انجلى الدخان من الموقع حتى خرج بضعة جنود مسرعين ، وهم يمسكون بالقاص صالح واضعين القناع الواقي من الغازات في رأسه ، وسحبه

منهم اللواء مازن حميد وكيل الوزارة والمقدّم شجاع ، وأدخلوه سيّارة الاسعاف التي كانت واقفة قرب البيت ..

انتهت العملية بمقتل أحد الخاطفين وإلقاء القبض على اثنين ليس منهما أبو الأسيد ولا معاونه فاتك .. انطلقت سيّارة الإسعاف متوجّهة إلى المستشفى برفقة المقدّم ياسين والرائد علي ، وقد تغيّرت ملامح القاص صالح وفقد من وزنه الكثير، ورانت على وجهه إمارات الذهول والحزن والألم ، ثم لملم شتاته قائلا :

– أين زوجتي أمّ مثنّى ، وولدي مثنّى .. أريد أن أراهما الان أرجوكما.

أخذ المقدّم ياسين والرائد علي ينظران لبعضهما .. يبدو أنّهما لم يتوقّعا أن يتم سؤالهما هذا السؤال على الإطلاق ، فبقيا مبهوتين لايلويان على شيء ... كرّر القاص صالح سؤاله بنبرة قلق واضحة :

– أرجوكما.. أريد أن أرى عائلتي.. أريد أن أتصل بهما.. أن أسمع صوتهما.. هجم الصمت المطبق الذي ران على المقدّم ياسين والرائد علي .. هجم بقوّة على قلب وعيني القاص صالح .. شعر أنّ السماء تتلبّد بغيوم سود ، وأنّ الكون قد حمل مطرقة ثقيلة يريد أن يهوي بها على رأسه ، فصرخ عاليا بوجع السنين وآهات النقاء ليصافح صراخه آفاق السماء احتجاجا بقدر أوجاع المظلومين .

أعلن مذياع مطار بغداد عن ضرورة توجّه ركاب رحلة الخطوط الجوية العراقية المتوجّهة إلى لندن نحو المنفذ استعدادا لركوب الطائرة .. يتوجّه النقيب مصطفى الذي غادر بغداد في ليلة اقتحام البيت الذي كان محتجزا به القاص صالح مصطحبا معه رؤى نحو المنفذ المخصص للرحلة ، لاتخطئ العينان مشاعر الارتياح التي تطغى على الأوّل ، في حين مشاعر القلق والوجوم تلفّ الثاني .. حاول النقيب مصطفى تبديد حالة الترقّب والقلق لدى رؤى قائلا لها :

– رؤى أنا متفائل بالخير بقرب قدرتنا على تحرير أبيك من أيدي خاطفيه ، وأعاهدك على بذل ما أستطيع أنا ، وإخوتي في الفريق الأمني لتحقيق هذا الأمر بأسرع وقت ممكن .

تبتسم رؤى بخجل قائلة : أنا واثقة من ذلك .. لقد وجدتك رجلا مخلصا ، ومحبّا لوطنك وشعبك.

شعر النقيب مصطفى لأوّل مرّة بالنشوة والفخر والفرح بكلام رؤى ، ووجد نفسه منقادا إليها بشكل لايقاوم ، فقال لها :

– أتعلمين يارؤى أشعر أنّك تمثلين الفتاة العراقية السومريّة التي ملأت التأريخ بجمالها وإبداعها وتألّقها .

بهتَت رؤى عندما سمعت كلام النقيب مصطفى ، وشعرت بالإحراج وتلعثمت ، فلم تجد شيئا لتقوله سوى هذه الكلمات:

– شكرا لك .. أنا لا أستحق كلّ هذا الوصف .

ردّ النقيب مصطفى : بالعكس يارؤى أنت فعلا تمثلين المرأة العراقية الرائعة ، ولم يؤثر عيشك بلندن في طبائعك العراقية الأصيلة ..

لاذت رؤى بصمت مطبق أجبر النقيب مصطفى على عدم مواصلة الحوار ، وصعد الاثنان على متن الطائرة واتخذا مقعديهما ، وسرعان ما أعلن قائد الطائرة عن وجوب ربط الأحزمة استعدادا للتحليق في الأجواء نحو مطار هيثرو في لندن.

خلال تحليق الطائرة في الأجواء .. لاحظ الاثنان نوعا من الاحتدام الصوتي بين رجل وامرأة تحتضن طفلا بعمر السنتين تقريبا يجلسان بعدهما بثلاثة مقاعد اتضح أنّهما زوجان بريطانيّان من لكنتهما. إذ عنّفت المرأة زوجها بسبب عدم مساعدته لها في رعاية الطفل ، فعلّق النقيب مصطفى مستهجنا تصرّف المرأة .. هنا ردّت رؤى بنبرة هادئة :

– المرأة عاطفية بطبيعتها لذلك يمكن لمشاعر الحزن أو التذمّر أن تطفو فى وقت ما في حياتها من دون وجود سبب واضح ، فتصل فى مشاعرها السلبيّة لأقصاها ، وربّما يصل بها الأمر إلى البكاء ، قد يكون ذلك مربكاً للرجل لأنّه لا يفهم ما يضايقها ويظنّ أنّه السبب ، وعندما يقدّم لها النصيحة ولا يجد تحسّنا يشعر بالفشل ، وفى هذا الوقت يجب أن يكون الرجل قريبا من المرأة ، ويهتم بها ويستمع لما ستقول ويحترم مشاعرها ، ولا يتّهمها بأنّها تجلب النكد للبيت وماشابه ذلك .

ينظر النقيب مصطفى إلى رؤى وعلائم الإعجاب تكاد تضجّ في تعبيرات وجهه ، وحاول مجاراتها في الكلام قائلا :

– نعم .. كلامك صحيح .. ربّما مادار بين الاثنين يعود لوجود اختلاف ما بينهما.

رؤى : الاختلاف بين المرأة والرجل في الرأي يعتقد الكثير أنّه سبب للصدام والمشاكل ، ولكن فى الواقع هو سبب للوئام والتكامل ، وليس للصراع والمشاكل ، والكثير من الأزواج والزوجات يريدون من الطرف الآخر أن يفكّر بالطريقة نفسها التى يفكّر بها ، وأن تكون مشاعره التي يعبّر بها هي بالأسلوب نفسه التي عند الطرف الآخر، وهذا صعب تحقيقه .

شعر النقيب مصطفى بقوّة منطق رؤى وثقافتها الواسعة ، فتهيّب من هذا الحوار وخرجت كلمات عفوية منه إلى رؤى:

– أحيانا بعض الرجال لايملك ثقافة واسعة بقدر ما تملكه امرأة معيّنة مثلا ، أليس من الممكن حينها أن تنظر هذه المرأة بعين صغيرة لهذا النوع من الرجال .؟

أجابت رؤى وقد شعرت بما يقصده النقيب مصطفى قائلة :

– المرأة الذكيّة بفهمها للرجل تستطيع أن تستوعب مشاعره ، وتمدّ له جسرا ليكون مثلها ، وهي تعرف متى يكون الرجل محتاجاً للمساعدة ، ومن ثم تقدّمها له من دون أن تعطيه إحساساً أنّها الأفضل أو الأذكى.

فرح النقيب مصطفى بما قالته رؤى ، وأراد بثّ أجواء من الفكاهة واللطافة على الحوار مستذكرا حوارا قرأه في إحدى المجلات :

– كان أبي يقول لأمّي نحن الرجال نجدّ ونجتهد ، ونعمل في الحياة ونعارك مشاقّها ونصارع متاعبها ، ونعود إلى المنزل متعبين ننتظر كلمة حبّ وفاء وحنان فلا نجد ذلك .

ردّت رؤى بابتسامة وتحدّ : وكانت عمّتي تقول ردّا على كلام مشابه لما يقوله أبوك لأمّك .. نحن النساء ندبّر شؤون المنزل ونربّي أطفالكم ونصنع غذاءكم فلا نرى منكم إلا الجحود والنكران .

وردّ النقيب مصطفى مقهقها : ولكنّ المرأة كتلة من الحنان والحبّ ، وهي مصدر للحياة والأمل . لذلك نحن نأمل منكنّ الحبّ والحنان حتّى يذهب تعب الحياة وشقاها.

– تقول عمّتي كيف يريد الرجل من المرأة الحبّ والحنان ، وهي لاتحظى به ، ولاتنهل من مائه عندما يبخل الرجل به . (أجابته رؤى التي تحمّست للحوار واستأنفت القول :)

– أنتم تعلمون أنّ الزوجة تسعدها الكلمة الحلوة وتشرق وجهها لمسة حبّ صادقة.

ردّ النقيب مصطفى وإمارات الحبور تملأه : يعني الرجال يهرولون في الحياة لتوفير حياة كريمة للمرأة ، وللأطفال إن حلّوا ضيوفا في الأسرة ، وربّما لا يجدون وقتا لمشاعر الحبّ والغزل .

– امممم .. أتعلم أنّ المرأة لاتحتاج إلى مال الرجل إلا بقدر الكفاف لكنّها تحتاج إلى اهتمامه وحنوّه ، وعاطفته الإنسانية أكثر بكثير فكما يقولون:

(المرأة زهرة من الحنان تحيا بقطرة من حبّ.)

علّق النقيب مصطفى مبتسما : سوف أطرح الأمر على أبناء جنسي وأقنعهم بذلك لننعم بلذّة الحياة.

أجابت رؤى بضحكة واسعة شاركها النقيب مصطفى الضحكة بحماس حتى أنّ القريبين منهما من ركّاب الطائرة التفتوا إليهما بعيون مستغربة جدّا.

وصلت رؤى برفقة النقيب مصطفى بيت أبيها في لندن ، واستقبلتها عمّتها بلهفة بالغة ، وبعد استراحة قصيرة شرح النقيب مصطفى لأمّ وليد ماتمّ الاتفاق عليه في مكتب مكافحة جرائم الخطف في بغداد ، وساهمت رؤى بتهدئة عمّتها وتوصيل ما أراد النقيب مصطفى من تعليمات لعمّتها ، وبعد الاستيعاب الكامل لما يجب أن تفعله تناولت أمّ وليد الهاتف ، وكتبت هذه الرسالة لأخيها د. سالم

– (أخي أبو رؤى العزيز كيف الأحوال .. متى ستأتي إلى لندن اشتقت لرؤيتك .. إنّ صحّتي ليست على مايرام ، ولقد طلب منّي الطبيب الانتقال إلى المستشفى لعمل فحوصات مختبرية ، وشعاعية كاملة أرجوك اتصل بي ..إنّي بحاجة إليك .)

في مساء اليوم نفسه يدخل جسّار برفقة مجاهد غرفة د.سالم ، ويعطيه الهاتف مبلّغا إيّاه بوجود رسالة مقلقة من أخته أمّ وليد في لندن .. ترتبك كفّ د.سالم وهو يمسك الهاتف ويقرأ الرسالة ، ثمّ التفت إلى جسّار راجيا منه الموافقة على الاتصال بأخته فالأمر مقلق ، وبعد برهة من التفكير يوافق جسّار حتّى لاتثار أسئلة ما عند أمّ وليد عن مصير أخيها ، وأحواله تماما مثلما توقّع وكيل وزارة الداخلية ..

عند الساعة الثامنة والنصف مساء تقريبا يرنّ هاتف أمّ وليد في لندن.. إنّه د.سالم ، فشعر جميع من في الصالة بالقلق ، والتوتر حينها اقترب النقيب مصطفى ورؤى من أمّ وليد ، وهما يذكّرانها بما يجب أن تقوله عندما تردّ على اتصال أخيها .. مرّت ثوانٍ على أمّ وليد ، وبعد غابة من الأدعية والابتهالات تضغط على زرّ السمّاعة الأخضر في الهاتف:

– ألوو أخي سالم .. أبو رؤى (تنفجر أمّ وليد بالبكاء ولم تسيطر على أعصابها ، وكاد النقيب مصطفى يغمى عليه من الهلع والتوجّس ، وأخذ هو ورؤى بالإيماءات والإشارات محاولين تهدئتها ، وبثّ رباطة الجأش في قلبها من جديد .. تمالكت أمّ وليد أعصابها نوعا ما بعد صراخ أخيها في الجانب الآخر من الهاتف :)

– ألووو أمّ وليد .. أمّ وليد مابك .. أمّ وليد ردّي عليّ .؟

أجابت بصوت متحشرج من البكاء :

– أخي أبو رؤى كيف هي أحوالك .. اعذرني لبكائي ، فلقد مرّت أيّام عديدة لم أسمع فيها صوتك (ثمّ تداركت الموقف لتقول لأخيها ماتمّ الاتفاق عليه في الورقة المكتوبة التي تمسك بها :)

– لقد ذهبتُ إلى المستشفى وأجروا لي الفحوصات اللازمة ، وأنا بانتظار التشخيص النهائي لحالتي الصحية ، وحالتي الان مستقرّة نوعا ما .

أجابها د.سالم مضطربا : بماذا شخّصوا حالتك يا أختي الغالية طمّنيني عليك أرجوك .

– سيبلغونني بحالتي الصحيّة بعد انتهاء الفحوصات المخبرية وفحص الرنين المغناطيسي .. إنّ حالتي مستقرّة الان لاتقلق أخي العزيز ..

– إنّي أخشى من كتمانك أمرا يتعلّق بحالتك الصحيّة عزيزتي .

ردّت أمّ وليد مغالبة دموعها ، وهي تنظر إلى الورقة المكتوبة التي تمسكها بيد راجفة :

– اطمئن أبو رؤى أهمّ شيء حالك أنت (هنا يؤشّر النقيب مصطفى محذّرا أمّ وليد من هكذا كلمات ، فأومأت برأسها مستجيبة له ، ثمّ استأنفت كلامها وهي تقرأ من الورقة :)

– (على فكرة إنّ رؤى قد أعجبت بمقالاتك الأخيرة كثيرا. إذ تقرأها من العنوان الموحي إلى آخر النصّ ، وتقول إنّ أصدقاءها يريدون منك التواصل في مثل هكذا معلومات بعناوين مؤثّرة حتى يستدلّوا أكثر على

الطريق المؤدّي إلى نقطة الارتكاز في المقالات بعد أن استوعبوا جيدا مقالاتك السابقة من العنوان إلى كامل النص .)

بَهُتَ د.سالم وهو يسمع هذه الكلمات ، وأخذ يكلّم نفسه .. أيعقل هذا .. أنّ أمّ وليد تريد أن تنقل لي رسالة ما .. أصدقاء رؤى يريدون التواصل بعناوين مؤثرة ليستدلّوا على الطريق ... أي أنّ الجهات الحكومية تريد معرفة مكان احتجازي بالضبط .. أيعقل هذا ، ثمّ انتبه إلى نفسه ، وتدارك الموقف فأجاب أخته بنبرة قلقلة ، وخائفة نوعا ما :

– نعم سأتواصل بعناوين مؤثرة لكي يستدلّوا على طريق الارتكاز في المقالات.

بعد يومين من الاتصال الذي جرى بين أمّ وليد ، وأخيها د.سالم .. يجتمع الفريق الأمني لمكتب مكافحة جرائم الخطف برئاسة الوكيل ، وقد انضمّت إليهم سعاد في حين غاب النقيب مصطفى، ورؤى الّذين يستعجلان أقرب طائرة للعودة إلى العراق.

كلّ فرد من الحاضرين يمسك بنسخة من جريدة الحرية ، وهو يتعمّق في قراءة عنوان مقالة د.سالم الجديدة (مدرسة الإسلام ، والتقاطع مع الرغبات الاستعمارية) عنوان تحمّس له جسّار محمود كثيرا ، فهو يشير كما جاء في المقالة إلى أنّ الإسلام مدرسة تتقاطع مع رغبات الدول الاستعمارية العدوانية في الهيمنة على الآفاق التعليمية ، والمناهج التربوية للبلدان العربية والمسلمة .. مرّت دقائق قليلة ، ثمّ

تعالى الهمس بين الحضور لتقفز كلمات(مدرسة ، تقاطع) حينها صرخ الوكيل :

– إنّه يقصد مدرسة ما في منطقة البنوك تقع قرب تقاطع معيّن فيها ..

علا صوت الحاضرين موافقينه الرأي .. فتلقّوا أوامر التحرّك الفوري نحو المنطقة ، والكشف عن أيّ مدرسة تقع قرب أيّ تقاطع فيها ، ولم تمرّ سوى ساعتين حتّى تمّ العثور على المدرسة والتقاطع .. إنّها إعدادية الرافدين الأهلية التي تقع في نهاية الشارع الممتدّ من أوّل تقاطع يقع في مدخل البنوك من جهة شارع القناة.

قرّر الفريق الأمني وضع خطة محكمة للعثور على مكان احتجاز د.سالم . إذ اقترح المقدّم شجاع وضع الرائد علي معه في نقطة مراقبة في التقاطع المؤدّي إلى المدرسة متنكّرَين بصاحبَي عربة لبيع العصائر، وسيقوم المقدّم ياسين والنقيب مصطفى – الذي اتصل هاتفيا مخبرا المكتب عن وصول طائرته إلى بغداد صباح يوم غد – بالمرابطة في الشارع الرئيس قرب المطاعم التي لديها خدمة توصيل الطعام للزبائن لتتبّع وجهة المجهّزين للطلبات فيما إذا كان أيّ منهم يتجّه نحو التقاطع المؤدّي إلى مدرسة البنوك الأهلية وصولا إلى تحديد الدار التي طلبت الطعام الجاهز .

عند الساعة الواحدة ظهرا خرج سائق دراجة من أحد المطاعم ، وقد كتب على درّاجته اسم المطعم ورقم هاتفه ، ووضع كيسا كبيرا يضمّ طعاما جاهزا في الصندوق الخلفي من الدرّاجة وانطلق ، تحرّكت خلفه

سيّارة المقدّم ياسين والنقيب مصطفى الذي التحق بالفريق الأمني ما أن وصل صباحا إلى مطار بغداد ، وشعر الاثنان بفورة الأدرينالين برأسيهما بعد أن دخل سائق الدرّاجة التقاطع المؤدّي إلى المدرسة فتبعاه بحذر ، واجتازت الدراجة البيت المحتجز فيه د. سالم لتدخل الفرع المجاور له حتى وقفت أمام بيت صغير من طبقتين.

نزل سائق الدراجة ودقّ جرس الباب وماهي إلى ثوان حتى فتح الباب رجل مسنّ يتكأ على عصا ويمسك بيد طفلة صغيرة ، وتكلّم معه بضع ثوان ثمّ سلّمه مبلغا من المال ، وأخذ منه كيس الطعام الجاهز وغادر قافلا إلى المطعم .

أوقف المقدّم ياسين سيّارته قرب هذا البيت فاتحا غطاء المحرّك ليوهم من يراه أنّه يعمل على إصلاح السيّارة ، وذهب النقيب مصطفى إلى البيت ، وبيده عبوة بلاستيكية فارغة ، وطرق بابه بحجّة الاحتياج إلى ملئه بالماء ، ورمق البيت بنظرات متفحّصة من الخارج وحفظ في ذاكرته رقم الدار المثبّت على الحائط ، وماهي إلا لحظات حتى خرج له الرجل المسنّ وهو يتوكّأ على عصاه ، وبعد أن ألقى التحيّة رجا منه ملأ العبوة بالماء لتبريد السيّارة الواقفة بالقرب من البيت ، فرحّب الرجل المسنّ به ، وعاد بعد دقائق مالئا له العبوة البلاستيكية ، فشكره النقيب مصطفى وعاد إلى السيّارة وقال للمقدّم ياسين :

– لاشيء غير اعتيادي في هذا البيت . لقد حفظت رقم الدار .

المقدّم ياسين : اتصل بمديرية مكافحة الإجرام ، واطلب منهم الاتصال بمكتب المعلومات الخاص بهذه المنطقة ليزوّدونا بتفاصيل عن سكنة هذه الدار.

بينما يتحاور الاثنان يرد اتصال هاتفي من قبل المقدّم شجاع المرابط قرب عربة بيع العصائر ، ويبلغ المقدّم ياسين بدخول درّاجة تعود لأحد المطاعم التقاطع ، وتوجّهها نحو الشارع المؤدّي إلى إعدادية الرافدين الأهلية .. يسرع المقدّم ياسين والنقيب مصطفى للّحاق بالدرّاجة ، وما أن خرجا من الشارع حتّى رأيا الدرّاجة المقصودة تتّجه إلى الفرع الجانبي الأوّل في نهاية الشارع الممتدّ من التقاطع ، ولحقا بها ، وسرعان ماوقف صاحب الدرّاجة أمام دار واسعة، وفخمة تتوزّع فيها أغصان الأشجار المصفوفة خارج الجدار الأمامي للبيت .. بعد برهة من الزمن خرج رجل ضخم الجثّة حليق الرأس واسع العنق ، وتسلّم الطعام الجاهز منه .

اتصل المقدّم ياسين بالمقدّم شجاع ليبلغه برصده الدرّاجة والبيت الذي قصده صاحب الدرّاجة ، ثمّ اتفق مع النقيب مصطفى على تكرار مافعلاه من إيقاف سيّارتهما ، والتوجّه إلى البيت لطلب ملء العبوة البلاستيكية بالماء ، وماهي إلا دقائق حتى طرق النقيب مصطفى باب الدار متمعّنا بأجوائه الخارجية ومركّزا النظر على رقم الدار وحفظها تماما ، وفاجأه صوت من الحاكية المثبّتة إلى جوار الباب :

– تفضّل أخي ماذا تريد .؟

ردّ النقيب مصطفى بكلّ هدوء :

– عفوا .. إنّ سيّارتي حرارة محرّكها عالية ، وأحتاج إلى ملأ العبوة البلاستيكية بالماء .

– حسنا .. انتظر سنخرج لك خرطوم المياه .

بعد برهة لاحظ النقيب مصطفى خروج خرطوم الماء من تحت الباب الخارجي فتناوله وملأ العبوة ، وبداخله توجّس بدأ يثب إليه شيئا فشيئا ، وما أن انتهى حتّى عاد مسرعا إلى السيّارة ، وأبلغ المقدّم ياسين بمشاعر عدم الارتياح اتجاه هذا البيت ، وأنّه قد حفظ رقم الدار ، فركب الاثنان السيّارة عائدين إلى الشارع الرئيس لحيّ البنوك ، ونزل المقدّم ياسين متوجّها إلى عربة العصائر حيث يقف المقدّم شجاع والرائد علي بوصفهما بائعي عصائر متجوّلين ، وأبلغهما ، وهو يشرب كوبا من العصير بما شعر به النقيب مصطفى من عدم ارتياح حول البيت الذي تسلّم الطعام الجاهز .

في منتصف الليل اجتمع الفريق الأمني في مكتب مكافحة جرائم الخطف ليتفحّص تقرير مكتب المعلومات والمختار حول البيت الذي اتضح أنّه مؤجر لصالح شخص اسمه جسّار محمود عمله (كاسب) أي ليس موظّفا في دوائر الدولة ، وبعد التحرّي عن المدعو جسّار محمود لم تعط منظومة المعلومات شيئا يذكر سوى نسخة من صورة له ....

عمد الفريق الأمني إلى مراقبة البيت بالأجهزة الإلكترونية الحديثة لمحاولة التنصّت على الاتصالات التي تجري عبر شبكة الهاتف وشبكة الانترنت ، والاستمرار في متابعة عاملي توصيل الأطعمة الجاهزة التي تتوجّه إلى الشارع الممتدّ من أوّل تقاطع لمنطقة البنوك ، ولاحظ فريق المراقبة أنّ عامل توصيل الطعام يوصل للبيت طعام الفطور والغداء والعشاء ، وأحيانا فقط يوصل طعامي الغداء والعشاء ، ولم يلحظ مايدلّ على أنّ عائلة ما من نساء وربّما أطفال موجودة في الدار .. فقط رجال أقوياء البنية يدخلون أو يخرجون بمرّات جدّ قليلة ، وأوقات غير منتظمة .

حينها قرّر الفريق الأمني العودة إلى التحقيق مع زيد معاون أبي البراء القياديّ في (الحزب) ، ومحمد جابر المنظّر الثقافي له ، ومع عبد الرحمن معاون زيد حول جسّار محمود مؤجّر الدار ، ومايمتلكونه من معلومات عن هذا الاسم وعرض صورته عليهم والضغط عليهم بقوّة لاستخراج الحقائق ، وبعد تمنّع ومحاولة لإنكار معرفتهم بـ(جسّار محمود) أقرّ الجميع تحت وطأة السلطة التحقيقية الصارمة أنّه أحد قيادات (الحزب) ، ومسؤول عن ملفّ د.سالم محمود رئيس تحرير جريدة الحرّية.

إذّاك وجّه الوكيل بمخاطبة السلطة القضائية لإصدار قرار بالقبض على جسّار محمود ، واقتحام الدار المؤجّرة باسمه في منطقة البنوك ، ووضع مع الفريق الأمني خطّة الاقتحام التي ستكون عبر إنزال قوات مدرّبة من الجوّ بالوقت نفسه الذي تقتحم فيه المكان قوّة الاقتحام

الخاصة بوزارة الداخلية حتى يقلّلوا من إمكانية تعرّض د.سالم لأيّ مخاطر محتملة إن كان موجودا في هذه الدار.

ضجّت الصحف ، والقنوات المرئية والمسموعة بعد تحرير القاص صالح بالمانشيتات العريضة ، والأخبار التي حاولت تلخيص المشهد ، ونقل حقيقته بشكل يجذب القارئ ويثير فضوله :

– (قوات الأمن تتمكّن من تحريرعميد الأدب العراقي والعربي القاص صالح أمين من أيدي خاطفيه في بغداد ، والكشف عن قتلة عائلته..)

– (معلومات عن اكتشاف تنظيم سياسي سرّي يتبنّى حمل السلاح كان وراء خطف القاص صالح وقتل عائلته ، ونشر رواية له كتبها تحت تهديد السلاح..)

– (التنظيم السرّي الذي خطف القاص صالح أمين ، وقتل عائلته هو من يقف وراء تفجير مكتب مكافحة جرائم الخطف ، واغتيال مديره العميد ضرغام عبد القادر ..)

عناوين لأخبار قرأها بتمعّن رئيس الوزراء في مكتبه ، وطلب رأي عدد من مستشاريه ، فتوصّلوا إلى ضرورة إطلاع الشعب على مايجري في الساحة وكشف الحقائق له حتّى تجد علامات الاستفهام الكثيرة التي رفعها الشعب أجوبة تريح ضمائرهم لأنّ ضغط الشعب بدأ بالتصاعد يوما بعد آخر، فقرّر رئيس الوزراء عقد مؤتمر صحفي يكشف به الحقائق بعد أن تداول الأمر مع وزير الداخلية وطاقمه الأمني ، فرجا منه الوزير أن يعقد رئيس الوزراء المؤتمر بعد إطلاق شارة البدء

لاقتحام مكان احتجاز التدريسي ، ورئيس تحرير جريدة الحريّة د.سالم جواد الذي تمكّنوا من تحديده حتى لاينتبه خاطفوه ويغيّروا من مكان احتجازه .

قرّر الفريق الأمني أن يتمّ اقتحام الدار المحتجز فيها د.سالم جواد قبيل موعد وصول طعام الغداء الجاهز للدار ... يدخل عامل توصيل الطعام بدرّاجته من خلال التقاطع المؤدّي إلى المدرسة ، وهنا اعترضته سيّارة خرج منها المقدّم شجاع ، والمقدّم ياسين والرائد علي ليسحبوا العامل من درّاجته إلى داخل السيارة وينطلقوا به بعيدا .. أمّا النقيب مصطفى فقد صعد على الدّراجة وهو يرتدي قميصا به شعار المطعم وينطلق بها نحو مكان احتجاز د.سالم ..

فتح وكيل الوزارة الذي كان جالسا في سيّارة مركونة إلى جانب الشارع قرب التقاطع جهاز النداء ليبلغ قوات الاقتحام بالتقدّم ، ودخول الشارع خلف النقيب مصطفى الذي ما أن وصل إلى الدار وقرع الجرس حتّى سُمِعَ أزيز طائرة مروحية قريبة من المكان.. فتح أحد أتباع جسّار محمود الباب .. رجل ذو بنية رياضية يرتدي لباسا رياضيا عاقدا مابين حاجبيه.. إنّه (مجاهد) أحد أتباع جسّار المخلصين وذراعه الأيمن.. أخذ ينظر مليّا بوجه النقيب مصطفى ، ثمّ منحه مبلغا من المال كي يتسلّم طرد الطعام ، فأراد النقيب مصطفى كسب المزيد من الوقت قائلا:

– أعتذر إن تأخر الطعام عليكم .

– لا .. بل جاء في موعده المعتاد .. أنت عامل جديد في المطعم .؟ لم أرك من قبل .

– نعم .. مضت بضعة أيّام على عملي وهذه أوّل مرّة آتي بها إلى داركم .

– حسنا .. هات طرد الطعام. (يسلّمه النقيب مصطفى الطرد قائلا):

– مارأيك بنوعية طعامنا .؟ (يديم مجاهد النظر بوجه النقيب مصطفى ، ثمّ أردف قائلا :)

– جيّد .. جيّد ، لم يسأل غيرك هذا السؤال .

هنا سادت بضع ثوان من الصمت قبل أن يضجّ المكان بأزيز شديد ، وهواء مغبرّ تعالى في المكان عندما اقتربت الطائرة المروحية من سطح الدار ، ثمّ انفجرت في الحديقة الأمامية داخل أسوار البيت قنبلتان دخانيّتان وسط صراخ من أفراد قوّة الاقتحام الّذين يرتدون أقنعة الوقاية من الغازات ، ومدجّجين بالسلاح مقتحمين الباب الرئيسة دافعين النقيب مصطفى ومجاهد مسقطين الاثنين أرضا ، وسحب أحد أفراد القوّة الأمنيّة النقيب مصطفى جانبا ، وهو يطلق النار في الهواء في حين ألقى جنديان القبض على مجاهد.

دخلت قوّة الاقتحام البيت في الوقت نفسه الذي أتمّ فيه أفراد قوّة الاقتحام الجويّة النزول من الطائرة المروحية بوساطة حبل متدلّ منها ليستقرّوا فوق المنزل ، وكسر أحد الجنود قفل باب السطح بآلة خاصّة

، لينزل أفراد القوّة عبر السلّم مطلقين الصيحات والقنابل الدخانية ، ثمّ تعالت أصوات الإطلاقات الناريّة ، وسقط أحد أتباع جسّار محمود قتيلا عندما فتح النار على القوّة المهاجمة من السطح التي ردّت عليه بنيرانها ، ولم تمض سوى عشر دقائق ، ومع تسرّب الأدخنة ، وانكشاف المشهد خرج أفراد من القوّة المقتحمة متأبطين ذراع د.سالم ، وأفراد آخرون يمسكون برقبة اثنين من أتباع جسّار واضعين أكياسا في رأسيهما تخفي معالمهما.

خرجت القوّة ليستقبلها أعضاء الفريق الأمني في مكتب مكافحة جرائم الخطف.. هنا فتح أحد افراد الأمن باب سيّارته لتخرج منها رؤى وسعاد ، وسرعان ماترقرقت عينا رؤى بالدموع مهرولة نحو أبيها وسط صراخ طفولي لا إرادي انطلق منها بابا !!!!! .. بابا !!!!! .

سمع د.سالم صراخ ابنته ملتفتا نحو الصوت ، فهاله مرآها وكاد يغمى عليه ، ثمّ مدّ يديه ورجليه محاولا المشي نحوها فخانته رجلاه ، وكاد يسقط أرضا لولا يد النقيب مصطفى الذي هرول كالسهم نحوه ممسكا إيّاه.. ارتمت رؤى بحضن أبيها جاثية على الأرض من هول الصدمة..

في مساء اليوم نفسه أُعلن عن عقد رئيس الوزراء مؤتمرا صحفيّا مهما جدّا بحضور وسائل الإعلام المختلفة بمندوبيها الصحفيين .. تألّقت قاعة المؤتمر بالومضات الضوئية لآلات التصوير الفوتوغرافية عندما قدم رئيس الوزراء ، ووقف أمام المنصة المليئة باللاقطات التي تمثل القنوات التلفازية والإذاعية والصحف والوكالات الخبرية الإلكترونية ، ووقف بجانبه وزير الداخلية الجديد. بدأ رئيس الوزراء حديثه ممجّدا

الوطن ، والشهداء الّذين ضحّوا بأرواحهم في سبيل الحفاظ عليه وحماية الشعب، وأخذ بسرد الوقائع الأمنية :

– لقد تمكّنت الأجهزة الأمنية المختصة من الكشف عن عصابة إجرامية كانت تخطف القامات الثقافية والأدبية ، والشخصيات المؤثرة في المجتمع لأجل المساومة ، والابتزاز من أجل الحصول على الأموال ، وتم إلقاء القبض على رؤوس هذه العصابة الّذين سيحالون إلى القضاء العادل ، وتمّ قتل بعضهم وإطلاق سراح كلّ المخطوفين ، وبهذا نغلق هذا الملف الذي شغل بال الشعب طول الفترة الماضية.....

وقبل أن يكمل عبارته الأخيرة دخل قاعة المؤتمر الصحفي وكيل وزارة الداخلية ، وأعضاء الفريق الأمني في مكتب مكافحة جرائم الخطف ، وصرخ وكيل الوزارة طالبا من الصحفيين ، ومندوبي القنوات المرئية والمسموعة أن ينتبهوا إليه ، وينقلوا تصريحه وسط معارضة رئيس الوزراء ، واحتجاج وزير الداخلية الجديد الذي وقف مبهوتا من هول الصدمة لايلوي على شيء :

– فليسمع كلّ أبناء شعبنا : مايقوله رئيس الوزراء غير صحيح إطلاقا .. لقد تمكن أبطال مكتب مكافحة جرائم الخطف بمعاونة الخيّرين من الناس من كشف أكبر مؤامرة إجرامية في البلاد يقودها (الحزب) .

حاول رئيس الوزراء تشتيت الانتباه ، ومنْعَ الوكيل من إتمام كلامه لكنّه لم يتمكن ، فانسحب من فوره من المكان بمعية وزير داخليته ، واستمرّ

الوكيل يصدح بخطابه، وتقدّم مع الفريق الأمني ليعتلوا المنصة بدل رئيس الوزراء:

– رأس هذه المؤامرة جهة سياسية معروفة ، وقائدها معروف كانت هذه الجهة السياسية مشاركة في الانتخابات قبل الماضية ، وهي ذات أفكار رجعية تعمد إلى الوسائل غير القانونية للوصول إلى غاياتها في محاولة التسلّق إلى السلطة في العراق ، ومصادرة تضحيات الشعب والجيش والشرطة والقوى الأمنية في الحفاظ على الديمقراطية والحرية في هذا البلد .

هنا أعلن لكم أنّي بالتعاون مع الجهات النزيهة المخلصة في وزارة الدفاع تمّ الاتفاق على توجّه قوات النخبة من وزارتي الداخلية والدفاع لمحاصرة وكر (الحزب) الذي تمّ الاستدلال على مكانه ، وإعمال القانون بحق المجرمين ، وأدعو أعضاء (الحزب) ، وقائده إلى تسليم أنفسهم للقوات الأمنية ، ومنع سفك الدماء. إذ لاطائل من المقاومة على الإطلاق ..

بينما كان وكيل الوزارة يتحدّث عن المؤامرة شعر المتابعون عبر شاشات التلفزة بنوع من الخوف والاضطراب ، وبدأ الناس يخبر أحدهم الاخر بما يُعرض في التلفاز ، ويسمعونه من كلام في المؤتمر الصحفي ، ووصلت الاخبار إلى القاص صالح ، وأمّ زهراء زوجة الشهيد الشيخ خالد ، والصحفي الأكاديمي د.سالم وابنته وموظفي جريدته ، فعقد الجميع العزم على التوجّه فورا إلى مقرّ المؤتمر الصحفي .. إذ قرّروا الالتحاق بالقوات الأمنية ، وهم يواجهون

وكر (الحزب) وقائده ، واستمرّ الوكيل والفريق الأمني بالتناوب في الحديث عن فصول المؤامرة .. هنا قال المقدم شجاع :

– لقد كشفنا أنّ (الحزب) الذي يرأسه المدعو (.....) هو من ارتكب جرائم الخطف ، والاستعباد والقتل التي جرت في الأشهر الماضية بحق نخبة من المثقفين والمتنوّرين لغرض إجبارهم على العمل لغسل دماغ الشعب ومحاولة جذبه إلى أفكاره ونوازعه وغاياته الشريرة ، وتمّ إلقاء القبض على عدد من قيادات هذا الحزب الّذين اعترفوا بارتكابهم الجرائم ومسؤولية الـ(قائد) عنها على وفق اعترافات وأدلّة ثبوتية قضائية مصدّقة ..

بينما كان أعضاء الفريق الأمني يتحدّث للصحفيّين اقتحم القاص صالح ود.سالم وأمّ زهراء قاعة المؤتمر ، ومن خلفهم جمال مدير التحرير ورؤى وسعاد وأفراد جريدة الحريّة ، وطيف واسع من الناس هاتفين بحياة العراق ، وتحوّلت كاميرات القنوات التلفازية ، واللاقطات نحو هذا الجمع الذي اقتحم المكان ، ثمّ وقف الثلاثة أمام الصحفيين ، ورفع القاص صالح يده صائحا :

– أنا القاص صالح أمين .. باسم جميع الأدباء ، وباسم كلّ المثقّفين أقول : يجب أن نحمي الحريّة .. يجب أن نحمي الديمقراطية .

وتقدّم د.سالم رافعا يده ، وبصوت عالٍ صائحا :

– باسم جميع التدريسيّين الأكاديميّين ، وباسم كلّ الصحفيّين أقول : المجد للشهداء .. المجد للوطن .

وتقدّمت أمّ زهراء ، وهي ترفع (المكوار)* صارخة :

– سـأثأر لأبـي زهـراء سـأقاوم الظـالمين .. يجـب أن تـدعوني ألتحـق بالقوات الأمنية.. أريد أن أضرب بهذا (المكوار) كلّ الظلمة المجرمين قاتلي الأبرياء.

ثمّ صاح الثلاثة ومن خلفهم الناس الّذين التحقوا بهم بأصوات متداخلة:

– خذونا نلتحق بالقوات الأمنية .. نريد أن نعاقب الظالمين .. نريد أن نحمي الحرية والديمقراطية من المعتدين .. نريد أن نحمي العراق .

****

في صباح اليوم التالي ، تطوّق القوات الأمنية المداخل البعيدة لقصر قائد (الحزب) الذي يتحصّن فيه هو وأتباعه ، وعلى سطح القصر المنيف يمسك أبو الأسيد بالناظور المكبّر ، وإلى جانبه يقف فاتك وكلاهما متحفّز قلق ممّا يجري..

أخذ أبو الأسيد يتطلّع إلى أفواج متتالية من الناس تترى باتجاه القصر

---

* المكوار سلاح دفاعي شخصي فردي لدى الفلّاحين في الريف العراقي ، ويعدّ هذا السلاح اليوم من الموروثات الشعبية العراقية ، وهو يتكون من عصا غليظة تنتهي بكرة صلبة من القار ، وبإمكان ضربة واحدة أن تشج بها رأس العدو، بل وتقتله أحيانا .

تتقدّمهم العربات المدرّعة للقوات الأمنية إلى جانب الطائرات المروحيّة التي تجوب الأجواء ، وهي تدور حول القصر من مسافة متوسطة البعد

، فأبدى أصوات التأوّه والتعجّب ممّا يرى .. نزل أبو الأسيد مسرعا ومن خلفه فاتك مهرولَين إلى دهليز يؤدي إلى ملجأ تحت الأرض يتحصّن فيه (القائد) الذي بادرهما متسائلا :

– ما الذي وراءكما .؟

أبو الأسيد : سيّدي أفواج من الناس تتقدّمهم القوات الأمنية يسيرون باتجاهنا.

(لقد تفاعلت قضية اختطاف القامات الثقافية ، والدينية المعتدلة وماجرى من أحداث جعل الشعب يلتفّ بقوة حول أبطال مكافحة جرائم الخطف الأمر الذي أجبر رئيس الوزراء على إعطائهم الصلاحيات الكاملة لمواجهة (الحزب) والانسحاب من المشهد خوفا من غضبة الجماهير المدويّة.)

يلتفت جسّار محمود نحو (القائد) قائلا : سيّدي هل أوجّه الأوامر إلى أتباعنا بالمواجهة وفتح النار .؟

في هذه الأثناء تفتح الطائرات المروحية عن بعد مكبّرات الصوت ومن إحدى الطائرات يمسك وكيل وزير الداخلية لاقط الصوت مناديا (القائد) وأتباعه بقوله :

– نداء .. نداء .. باسم الشعب والقضاء العراقي أدعوكم إلى تسليم أنفسكم للقوات الأمنية .. أنتم مطلوبون للقضاء العراقي بتهم القتل والخطف وانتهاك الحرمات ، والقيام بمؤامرة على الشعب والدولة لمصادرة حق الشعب في الحريّة والديمقراطيّة.. أكرّر .. سلّموا أنفسكم إلى القوات الأمنية وسنضمن لكم سلامتكم ومحاكمتكم محاكمة عادلة ... لافائدة من المقاومة المكان محاصر بقوات مميتة في البرّ والجوّ ، وهاهي أفواج الشعب تترى لتساهم مع القوات الأمنية في القبض عليكم .. احقنوا دماءكم وسلّموا أنفسكم .. سنمنحكم نصف ساعة لتقرّروا .. إذا قرّرتم الاستسلام ارفعوا الرايات البيض فوق سطح القصر ، وفي كلّ مكان يوجد فيه أتباع (الحزب) ، وقد أعذر من أنذر ...

وقع هذا النداء وقع الصاعقة على (القائد) وأتباعه الذّين لم يخطر ببالهم قطّ تطوّر الأمور إلى هذا الحدّ ، وأُخذوا لايلوون على شيء ، ولايعلمون ماذا يفعلون .هنا صرخ (القائد) ملتفتا في هستيريا مجنونة إلى من حوله من الأتباع والحرس :

– أيّ خائن هذا الذي وشى بنا .؟ أيّ كلب يلغ ببوله دلّ القوات الأمنية على مكاننا .؟ هل أقود مجموعة حمقى .؟ لقد كان النصر حليفنا إلا قليلا كيف وصل الأمر إلى هذا المآل .؟ تبّا .. تبّا .

لم يجرؤ أحد على الردّ عليه . إذ كانت سيماء الغضب والأعصاب الثائرة كفيلة بقتل كلّ من يردّ عليه في هيجانه المسعور.. في هذه اللحظات كان المسلّحون التابعون لـ(الحزب) المرابطون في الحدود الخارجية لمقر القائد في القصر المنيف ينظرون إلى القوات الأمنية من

بعيد وإلى أفواج من البشر تتجمّع خلفها ، وبعد أن سمعوا النداء عبر الطائرة المروحية تناهت إلى أسماعهم من بعيد أصوات الجماهير وهي تهتف هادرة باسم العراق وتدعو للقصاص من القتلة ، وحماية الحريّة والديمقراطية في الوطن .

بعد دقائق مرّت ثقيلة على هؤلاء المسلحين تقدّم أحدهم ملقيا سلاحه جانبا وخلع قميصه العسكري ، ثمّ أتبعه بنزع الفانيلة البيضاء التي كان يرتديها تحت القميص ، ملوّحا بها إلى القوات الأمنيّة طالبا الاستسلام ، وما أن رآه رفاقه على هذه الحال حتى بدأوا يلقون أسلحتهم جانبا ، ويرفع من يجد منهم لباسا أو قماشا أبيض يلوّح به للقوات الأمنية واحدا تلو الاخر .

وصلت أخبار استسلام المسلّحين المرابطين في الحدود البعيدة عن القصر إلى (القائد) ، فجنّ جنونه ، وأمر بقتل كلّ رجل يستسلم من أتباعه لكنّ أحدا لم ينفّذ الأمر ، فحمل السلاح الرشاش وأخذ يطلق النار في الهواء وهو يصرخ في هستيريا مجنونة :

– نفّذوا أوامري وإلا قتلتكم جميعا ..

هنا تسرّب كلّ من كان في المخبأ إلى جهة ما ، ولم يبق إلّا هو واثنان من حرّاسه الشخصيّين ، وبعد دقائق من إطلاقه الأوامر بقتل كلّ من يحاول الاستسلام للقوّات الامنية خرج من المخبأ إلى الطبقة الأولى من القصر مقتربا بحذر من الشبّاك العريض ، وفتح الستارة قليلا ليتفاجأ

بأنّ جميع أعوانه المقرّبين (أبو الأسيد ، وجسّار محمود ، وفاتك ، ومجاهد ، وأبو الخنزب وغيرهم..) قد رفعوا الفانيلات وأقمشة الستائر البيضاء بعد أن جعلوها قطعا مختلفة الأبعاد، وأخذوا يلوّحون بها إلى القوّات الأمنيّة معلنين استسلامهم ، فجُنّ جنونه وركض إلى سطح القصر وهو يصرخ :

– خونة ... خونة .. جبناء .. جبناء .. خونة .

وصل (القائد) إلى سطح القصر وحده . إذ تراجع حارساه الشخصيّان وقرّرا الاستسلام .. هنا لاحظ قائدا الطائرتين المروحيّتين اللتين اقتربتا أكثر من القصر ، وكانتا تراقبان كلّ شاردة وواردة فيه لاحظا رجلا مسلّحا على سطح القصر ، فأخبر قائد الطائرة وكيل وزير الداخلية الذي يجلس خلفه بما رأى ، فأمر القوات الأمنية بمعالجته بالقوّة النارية المباشرة إن شعروا بهذا الرجل يريد فتح النار من سطح القصر، وماهي إلا لحظات حتّى فتح (القائد) وابلا من النار صوب أتباعه الفارّين ، وبعد ثوان معدودة عالجه القنّاص في الطائرة الأولى ، وبالمدفع الرشّاش في الطائرة الأخرى ، وانهمرت الطلقات صوبه كالمطر ليتمزّق جسده تمزيقا..

بعد ساعة تقريبا من إطلاق النار دخلت القوات الأمنية ، وفي مقدّمتهم أعضاء الفريق الأمني لمكتب مكافحة جرائم الخطف نطاق القصر، ومعهم الجماهير الغاضبة الهاتفة بحياة العراق وبالحرية والديمقراطيّة والقصاص من القتلة والمفسدين يتوسطها (القاص صالح ، ود.سالم ، وأمّ زهراء) ومرّوا بقرب أجساد مدماة ملقاة على الأرض ، وفجأة تحرّك

أحـد هـذه الأجسـاد بصـعوبة بالغـة ، فلاحظـه القـاص صـالح وميّـز شخصه .. إنّه أبو الأسيد مصاب بإطلاقة نارية فصرخ بوجهه راكضا نحوه :

– أيّها المجرم الآثم .. أيّها المجرم الآثم .

وركضت خلفه أمّ زهراء وهي تحمل (المكوار) فسبقته إليه ، ولمّا دنت منه هوت بمكوارها على رأسه فخرّ صريعا من ساعته .. وهرول إليها رجال الأمن ود. سالم ، وابنته رؤى وسعاد ، وجموع من الناس وكلّهم يصيحون :

– عاش العراق .. عاشت الحريّة .. يحيا الشعب .. يحيا الشعب.

النهايـــة

د.قيس العطواني

الدكتور قيس العطواني

* دكتوراه في أدب اللغة العربية - كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد .

* تدريسي في قسم اللغة العربية – كلية التربية – الجامعة المستنصرية .

* روائي وناقد ، مشارك في عدد من المهرجانات الأدبية داخل العراق وخارجه.

* قدّم لونا جديدا من السّرد القصصي أسماه (الانطباع القصصي) نُشر في مجلة دي زولا – OPCION (فنزويلا) ضمن مستوعبات سكوبس . يحمل هذا اللون أبعادا نفسية وإنسانية خالصة ، فهو يمثل ترجمة لدواخل الفرد ، ودعوة لإفساح المجال أمام تسطير هذه الدواخل في النسيج القصصي ، تقوم هذه الفكرة على مبدأ تأثر الكاتب بمشهد مرئي أو مسموع ربما يشارك في صنعه ويكون فاعلا في تكوينه ، ثم يثير هذا المشهد بما يحمله من تداعيات يثير دواخل الكاتب النفسية ليعبر عنها على سطح الورقة ، والقارئ حينها سيستمتع بقراءة الدواخل النفسية للكاتب التي ربما تشكل علامة فارقة غير معتادة .

* نشر عددا من البحوث النقدية في مجلة (ريس) التي تصدر من منظمة بابير الأكاديمية في تركيا ، ومجلات جامعة كربلاء ، وجامعة بغداد ، والجامعة المستنصرية ، وعدد من المجلات الأدبية الرصينة الأخرى.

المؤلفات :

* رواية (الحزب) / باكورة التأليف في فن الرواية .

* صدرت له المجموعة الشعرية الأولى (صريع الغواني) عن دار المصادر – بغداد – ٢٠١٠

* صدر له كتاب نقدي بعنوان (أربع قصائد بين المتنبي والجواهري) عن دار الفراهيدي للطباعة والنشر ٢٠١٢ .

رواية

الحزب

د . قيس العطواني

إن الطبيعة أحيانا تنتخب بعض البشر ليحاول تدمير جنسه تحت مسميات شتى مثل تفوق العرق ، أو إعلاء القومية أو الطبقة أو الدين أو حب السيطرة والتملك . والغرض هو المحافظة على التوازن في الكرة الأرضية بين مخلوقاتها ، فمثلما أوجدت الطبيعة أمراض الكوليرا والشلل والملاريا والجدري ، والكورونا لتقضي على الملايين من البشر ، فقد أوجدت مجرمين مختولين من البشر يسمون أنفسهم قادة ليساهموا في قتل الملايين أيضا .

رواية الحزب
د. قيس العطواني

LEVANT